

ملتزم الطبع والنشر
دار الكتب الحديثة
لصاحبها: توفيق عفيفي
١٤ ش ابراهيم باشا بمصر

محمد الغزالى



ملتزم الطبع والنشر
دار الكتب الحديثة
لصاحبها : توفيق عفيفي
١٤ ش ابراهيم باشا بمصر

الطبعة الأولى
شعبان ١٣٧٦ هـ
مارس ١٩٥٧ م

مطابع
دار الكتاب العربي بمصر
محمد حلمي المنياوي

فى هذا الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

من المشاهد أن للأجواء الرديئة أثراً فى صحة الأبدان . فإذا ركد الهواء وانتشر الغبار وتطايرت الأدخنة والأكدار ، وطال الأمد على هذه الحال فإن السقام يتخلل الأجسام ، والشحوب يكسو الوجوه . ! !

ومن المشاهد أن للأغذية المنقوصة أو المضطربة مثل هذا الأثر أو أشد ، فقد يتغضَّنُ الجلد وتملؤه البثور ، وقد يلين العظم ويتعرض للكسر ، وقد تذبل الحواس وتختلُّ وظائفها .

ولن تعود للأجسام المريضة صحتها إلا إذا استُكمل الغذاء المفقود ، وتوفَّرت العناصر المطلوبة !

وإذا كانت هذه المشاهدات موضع تسليم فى حياة الناس المادية فيجب أن تكون كذلك موضع تسليم فى حياتهم المعنوية .

فإن للقلوب والعقول أمداداً تصحُّ بها وتنمو ، ولها أغذية تقوى بها وتسمو

فإذا عرا هذه الروافد الماسَّة كدر ، أو طرأ عليها نقص ، فلا محالة تمرض معنويات الأمم !

وإذا استمر هذا العوج فلا تنتظر إلا ضموراً فكرياً أسوأ من ضمور الأبدان المسلولة ، وعجزاً روحياً أنكى من عجز الحواس المشلولة .

وقد نظرت إلى الأمة الإسلامية فوجدت أوضاعها العامة تدعو إلى الرثاء .
إن الخَدَرَ سرى فى كيانها حتى لتحسبه أعراض موت . والأعداء تجمعوا حولها وما فى نية أحد منهم إلا أن يسلب أو يغصب ، وكأنهم أمام تركة مفلس قرر الانسحاب من ميدان العمل والزحام .

والذى يتغلغل النظر فى علل هـذه الأمة يلحظ على عجل أنها تتنفس فى جوٍ فـكرى خانق ، وأن تغذيتها النفسية والاجتماعية والعقلية والعاطفية رديئة أشد الرداءة .

وهى تغذية لا تفقد فحسب عناصر حيوية مهمة ، بل إن فى بعض أجزائها عفونة وفى البعض الآخر سموم ! ! !

وتتابع الليالى والأيام على تلك المآسى أعقب النتيجة التى لا محيص عنها !
فقد خارت قوى هذه الأمة وتعثرت خطاها فى الحياة .

ونظرت دولة إلى رسالتها النبيلة فإذا هى تجمد وتتراجع .

ثم استشرى الخطر واستفحل الشر فإذا أرضنا من عدة قرون تنقص من أطرافها ، فبعد أن كان الأعـداء المتربصون يتواثبون حولها ، أمسوا يتواثبون فوقها ، حتى إننا لنشهد اليوم فى خفوت وانقباض محاولات الجبابرة لتهويد قطر إسلامى وتنصير قطر آخر .

ونرى جهود المصلحين والمجددين تستميت وهى تدفع هذا البلاء ، وتنفخ من روحها فى الأخلاف الهامدين كى يرفضوا الذبح ويستمسكوا بالحياة ! !

وهى جهود بدأت من مائة سنة تقريباً ومات أصحابها الأبطال ولم يقطفوا لها ثمرة ، حتى ظُنَّ أنهم غرقوا فى اللجة العمياء دون جدوى .

والحقيقة أنه منذ صرخ جمال الدين الأفغانى . ورددت الآفاق صيحته

المرعدة وحراس الإسـلام من بعده ينهضون بالحمل الثقيل ؛ ويقاومون الوباء المنتشر .

ومن الخطأ أن نحسب العلة غلبت الأطباء ، كلا ، إنهم وقفوا سير المرض قليلا ، ومشوا بالعليل خطوة فى سبيل النقاهة .

وما كان يمكنهم غير هذا مع تعقد الداء وتشعب آثاره وكيد الخصوم وشدة وطأتهم .

والأمة الإسلامية الآن تجتاز مراحل حرجة ، فإما تغلبت على أدوائها وأعدائها ونجت . .

وإما ذهب الدين ، وانطوى الحق وعمّ العالمين الظلام .

* * *

وبلاء هذه الأمة جاءها من داخلها قبل أن يجيئها من الخارج . وقد عرف الأئمة الأيقاظ هذه الحقيقة وعالجوا المشـكلات الكثيرة على ضوئها ونحن — مع غيرنا من المعنيين بهذا الأمر — نعرف أن مصـادر التوجيه العام ومنابت الأجيال الناشئة كانت تعانى فساداً عريضاً وانحرافاً شاملا .

فكيف ينتظر الثمر الجيد من هذه الغراس ؟ : « والذى خبث لا يخرج إلا نـكدا[1] » ! !

هناك معارف إسلامية صحيحة طويت عن الأمة فلم تقدّم إليها ، أو عرفها القليل وكان ينبغى أن يعرفها العامة !

وهناك خرافات علمية وخلقية وعقدية فشَت فى كل البقاع وتوطنت ، وما كان ينبغى أن تظهر ولا أن تبقى طويلا إذا قدر لها وجود

وهناك تقاليد إسلامية عريقة لو سمع الجمهور بها لعقر فه دهشة ، فهى

---

(١) الأعراف : ٥٨ .

غريبة عليه ! بينما حلت مكانها تقاليد ما أنزل الله بها من سلطان .

فإذا حاولت تغييرهـا سمعت صيحات الفزع كأنك تغير مآثر الدين لا مآثر الجاهلية .

ويا حسرتاه على عزلة العلم ووحشة العلماء فى الأعصار الأخيرة ، إنهم فى حياتهم يحيون قليلى الأتباع لاهثى الأنفاس .

فإذا انقضوا لم تلق كتبهم من ينشرها إلا فى أضيق نطاق .

ذلك بينما لصوص الجاه وسراق السلطة يمرحون فى كل ناحية ومن حولهم حراق البخور وتجار الشريعة .

إن العلماء البارزين كثر فى تاريخنا لـكن أسماءهم تخفى عن عمد أو عن ذهول ، ثم تتبعهم آثارهم على مهل أو على عجل .

وما أحسب أمة أهدرت تراثها وأرخصت رجالها كمسلمى القرون الأخيرة ، فلا جرم أنهم يحصدون اليوم عقبى ما فرطوا واستهانوا . .

لقد جاء الأولاد بعد الآباء ، وجاء الأحفاد بعد الأجداد ، وهم جميعاً يتناولون أغذية علمية ناقصة ، ويحيون فى أجواء معنوية موبوءة ، فذبلت حياتهم وضمرت أعوادهم ، وكان أن سار العالم وقعدوا ، ووثب وما زالوا يحبون .

وإذا لم يكسر المسلمون قيود الوهم التى كبلت مشاعرهم وأفـكارهم .

وإذا لم يعودوا إلى ينابيع الفطرة الصافية التى جاء بها دينهم ، فهيهات أن تصح لهم معيشة أو تخلص لهم وجهة أو تقوم لهم قائمة . . .

* * *

لقد شوه المسلمون من معالم الإسلام بقدر ما عصوا من تعاليمه .

ولئن كانت المعصية شؤما على الأفراد والجماعات إن غش هدايات الله وإقحام الدَّخَل عليها أعظم شؤما وأفظع غرما .

ومن بضعة قرون والمـادة المستخلصة من الإسلام لتغذى مشاعر المسلمين وأفـكارهم مشوبة بأخلاط غريبة .

ولو أن العقاب المرصد لغش الرغيف يرصد مثله لمن يفسدون التربية بتقديم دروس رديئة لزُجَّ بالألوف من الناس فى السجون ! !

إن تعليم الإسلام والدعوة إليه اتخذا طريقاً شاردة انتهت بالأمة الإسلامية إلى هذه الوحشة الهائلة وجعلت ألوفا مؤلفة من الناس تحيا باسم الإسلام وهى أقصى ما تـكون عن فقهه وأدبه ، وأنأى ما تـكون عن روحه ونصه!!

ونحن نلتفت يمنة ويسرة فى طول العالم الإسلامى وعرضه فنرى شعوبا بينها وبين « محمد » العظيم « وتراثه » الضخم مثل ما بين عابد العجل وعالم الذرة .

ومع هذا البون البعيد فإن هذه الشعوب تزعم أنها مسلمة ، وتُعرَفُ فى أنحاء العالمين بهذه الشارة ، وإن كانت تجرُّ وراءها أثقالا من الجهالة والخرافة والتخلف تزرى بـكل نسب . !!

من عدة قرون وللأمة الإسلامية فى هذا العالم وضع عجيب .
لقد نسيت رسالتها وساد ربوعها الهرج والمرج .

واسترخت أعصابها أو تفـكـكت فأصبحت دورة الإحساس فيها غير منتظمة ، ورمقها أعداؤها ثم قالوا : هذه أمة اقتربت منيتها ! وأوشك تراثها أن يصير إلينا وسمّوْا خلافتها القائمة حكومة الرجل المريض !!

نعم وما ننـكر أننا كنا مرضى ، ليس لنا فى ميدان الإنتاج أثر ولا فى زحام الدنيا جهد .

وما ننكر أن الله رفع يده عن شئوننا لأن صلتنا به وهت ، وأخذنا بدينه ضعف . .

كما لا نعى من علوم الدنيا شيئاً ، وكان ما يسمى علماً دينيا آخر شيء يقره الإسلام ويستبقيه ؛ ذاك لأن الملل الوبيلة خالطت علوم العقيدة والشريعة والقانون وأفسدت مناهج التربية والاجتماع وملأت بالخبل أصول السياسة والحكم ، ووضعت فى إطار من الخرافة كثيراً من تفاسير الكتاب والسنة ، وانحطت آداب اللغة العربية وأساليب التفاهم والتلقى وانحطت معها سائر العواطف التى ترقى برقى الأدب من شعر ونثر .

واتسعت الهاوية بين الحكومات والشعوب ، وبين هؤلاء جميعاً والإسلام نفسه ، فعمت الفوضى وساد الارتباك كل شيء .

وإذا كانت هناك بقايا حركة تومىء إلى حياة هذه الأمة فهى أثر الدفعة الأولى أو الدعوى الأولى ، كما تتحرك السيارة خطوات إلى الأمام بعد نفاد وقودها ثم تخمد وسط الطريق .

والمؤسف أن ننظر — بعد هذه المصائب الداهمة — فنجد الشقة بيننا وبين الإسلام بعيدة ، بعيدة فى تعلمه وتعليمه والدعوة إليه ، بعيدة فى إشراب النفوس والجماعات روحه المصفاة كما تنزل بها وحى الله ! ! !

وقد أحصينا فى ذلك الكتاب جملة من المزالق التى عرضت للحياة الإسلامية ، وحاكمناها للدين الحق المحفوظ فى كتاب الله وسنة رسوله ، ومرنا فى أعقاب الأئمة المصلحين نعرف المعروف وننكر المنكر ونجهد فى نفى الزيف الكثير الذى راج للأسف بين الخادعين والمخدوعين ممن لم يفهموا الإسلام ، ولم يحسنوا تعلمه ولا تعليمه ولا الدعوة إليه

* * *

إن غذاءنا العقلى والعاطفى بحاجة إلى تنقية مستمرة .

وإن سياسة تسميم الآبار التى رسمتها الشياطين لإغواء العباد قد آتت أكلها المر ، فأثمرت هذه الجماهير الغفيرة التى تعيش دون وعى صحيح ودون يقين ناضج ودون سيرة راشدة ودون حكم معقول !!

وأين يوجد الإسلام بعدئذ أو ماذا يبقى منه ؟؟

ليس هنالك أخطر من فساد التوجيه ، سواء حسنت النيات أم ساءت !

والهزائم الكاسحة التى أصابت الإسلام وأهله من قرن ونصف ، والتى ما نزال نلعق مرارتها تعود قبل كل شىء إلى الدَّخل الذى غلب فى أنحاء حياتنا كلها ، ولم يَبْقَ معه مجالٌ لسنة صحيحة أو هدى نقى .

وضعف المناعة — أمام عربدة الإلحاد الذى يسود العالم — يرجع أيضاً إلى فوضى التربية والتوجيه بيننا .

إن الإسلام الحق لا يكاد يبين فى زحمة الموروثات التافهة والعوج المطرد ، وفى زحمة الرجس الجديد الذى وفد مع الاستعمار الغربى . .

وآمل أن يكون هذا الكتاب مع ما سبق أن نشرتُ فى موضوعه نورا يزيد طريق الحق وضوحاً .

وقوة تعين أهل الخير على دحض الشبهات وإزالة الترهات .

وطهرا يقتل جراثيم العلل التى آدت إيماننا ، وآذت تاريخنا ، وعطلت رسالتنا ، ومكنت زبانية الأرض من الأخذ بخناقنا ...

محمد الغزالى

حول التعريف بالإسلام

أظننى أملك محصولا من التجارب الحسنة ، والمعارف الصحيحة ، تجعلنى حقيقاً بالكتابة فى هذا الموضوع ، والإدلاء فيه برأى صائب .

من عشرين سنة وأنا معنىٌّ بهذا الأمر ، عامل فى مجاله الرحب ، وليست هذه السنون العشرون مما ألف المسلمون فى تاريخهم ، لقد كانت فترة من أصعب الفترات التى واجهتها أمتنا فى تاريخها الطويل . إذ وصلت فى سيرها إلى مأزق يتهددها بالهلاك ، فإما نجت منه بعد لأى ، وإما طواها الردى ...

ويستطيع أى خبير بالإسلام أن يستكشف حدود الوضع الذى صارت إليه أمته . وانتهت إليه رسالتها بين الناس .

العالم الآن تسوده أفكار وتقاليد وديانات شتى ، ونشاط العقل الإنسانى والغرائز البشرية أبرز من غيره فى توجيه العالم ، وفى علاج قضاياه .

ومسألة الإيمان بالله واليوم الآخر لا تنال حظاً من الاكتراث فى شئون الحياة الكبرى .

والإسلام ديانة غامضة لا تُعرف — على وجه صحيح — أصولها ولا أهدافها . والمسلمون أنفسهم شعوب تستشرى فى كيانهم علل نفسية واقتصادية واجتماعية تجهد الأطباء ، ومن المستبعد أن ينالوا احترام أهل الأرض وهم بهذه المثابة من التخلف فى كل ميدان ، وتبعاً لذلك لن يكون دينهم مثار تأمل وإعجاب ، ما دام أهلوه على هذه الأنحاء القاصرة .

* * *

وقد أسائل نفسى : لو كنت أمريكياً أو أوربيا ، أكنت مسلماً أعرف ربِّى العظيم ، وأومن بالقرآن الحكيم ، وأوقر الحق الذى جاء به محمد النبىّ

الأمىّ ؟ ما أظن ذلك ! فن أين أقع على هذه المعرفة ؟ وكيف تتاح لى سبلها ؟

إن الصورة النظرية للإسلام بلغت سكان هاتين القارتين مشوهة مرعبة ، والصورة العملية ليست أقل سوءاً من زميلتها !!

إن شعوب أوربا وأمريكا تعرف عن البترول العربى أكثر مما تعرف عن القرآن العربى !! . والبترول العربى ثروة طائلة ، يجهلها أصحابها ، ويعجزون عن استخراجها . ولما كان الغرب بحاجة إلى هذه الثروة ، فهو يرسل الإخصائيين من رجاله بآلاتهم الهائلة ، وعلومهم الدقيقة ، لاستيراد هذا الخير الدافق ، وإعطاء ثمنه لشعوب التى تنظر مسحورة إلى هذه الكنوز بأرضها ، دون أن تقدر عليها ، أو تحسن استغلالها لنفسها .

أكان المسلمون العرب ينتظرون الوفود تجىء لطلب الوحى العربى كما جاءت لطلب البترول ؟ لا ! ! وإنها لجديرة أن تسيء الظن بهذا الوحى وأن تحسبه مسلاة صبية ، أو مواريث أمة عاطلة عاجزة !!

فلأقرر إذن أن اهتدائى للإسلام كان من الأقدار الحسنة أوهو — فى نظرى — من النعم التى يختص الله بها من يشاء من عباده .

ولأسرع ببيان ما أقصد من هذا الكلام

فأنا لم أرث الدين عن والدىّ ، كما ورثت قصر القامة ، وبياض البشرة . بل لقد مرّت علىّ أيام فرّغت نفسى من كل اعتقاد ، وتركت لعقلى أن يوازن ويختار ؛ والذى أعاننى على إيثار الإسلام : أن لغتى هى لغة القرآن ، وأن الدراسة الناقدة له ولغيره كانت ميسرة لى . أى أن ظروف البيئة التى احتوتنى هى التى جعلتنى مسلماً على حين حرم غيرى هذه المنحة الطيبة ، لأن ظروف بيئته باعدت بينه وبين الاهتداء ، بل لعلها زينت له الأخذ بضده ، وملأت نفسه ثقة ورضا بما عنده ، وليس ما عنده إلا الضلال الخادع ...

وآثار البيئة فى الخلق والسلوك ونوع الدين لا يمكن نكرانها . ألا ترى الحديث الكريم يردّ شرود الطفل عن الفطرة السليمة إلى أسرته :

« فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه[١] » ؟

ثم ألا ترى إلى التذييل الذى أعقب النهى الإلهى : « وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ » ؟ إنه يقول : « كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إلى رَبِّهِم مَرْجِعُهُم فَيُنَبِّئُهُمْ بما كانوا يعملون[٢] » ...

* * *

وانطلاق الأفراد أو الجماعات فى سُبل تخالف فيها الحق ، ثم هى ترى — وفق تفكيرها الخاص — أنها على الحق ، أمر له اعتباره . صحيح أنه لا يقلب الباطل حقاً ، والغواية رشدا ، إلا أنه يوجب على أصحاب الإيمان النقىّ ، أن يرسموا لدعوتهم أسلوبا يقوم على الأناة والإقناع والتلطف ، وأن يتبينوا السدود التى وضعتها الأيام أمامهم فلا يحاولوا نسفها بالمنفجرات وأن يقدروا الأحوال التى أحاطت بخصومهم فى العقيدة أو الرأى ، وصاغت عواطفهم وأحكامهم على نحو معين ، ذاكرين أن هذه الأحوال نفسها لو أحاطت بهم ، لكان لهم هذا الموقف المنكور نفسه ...

ولعل هذا الملحظ بعض ما عنته الآية :

« ... كذلك كُنتم من قبلُ فمنّ الله عليكم فتبيّنُوا إن الله كانَ بِما تعملون خبيراً[٣] » .

---

(١) البخارى

(٢) الأنعام : ١٠٨ .

(٣) النساء : ٩٤ .

قد تقول كأنك تعتذر عن ضلال الكافرين !! ؟ والجواب : لا ، بل أصف الدواء الناجع لشفاء عللهم . إن الكفر الجدير بالاستئصال ردُّ الحق بعد ما تبين ، والذين ينقل إليهم هذا الحق بحاجة إلى مهلة لفقهه وارتضائه والذين لم ينقل إليهم ، يحاسبون على ضوء من أصوله التى ذرأها الله فى فطرتهم والأمر بين الحالين لا تجدى فيه عَجلة ، ولا يقبل فيه الحكم العابر السريع .!!

إن تفتيح البصائر على الحقائق الكونية الكبيرة ليس شيئا سهلا . فأغلب الناس يوجد وتوجد معه حجب الغفلة ٠

ويحيا وبالقرب منه مزالق قلما تقفه على الصراط المستقيم إلا قليلا .

وقد شاء الله — تبارك اسمه — أن يضع كل هذا فى سياسة التعريف به والدعوة إليه . فلم ينتظر من الجماهير أن تستجيب لرسوله فور سماعها له . ومن ثم أوجب عليه أن يعذر ، وأن يترك النضج لزمان لا يعرف مداه ، زمان يصحو فيه الغافل على مهل ، زمان يعطى المخطئ فرصا كثيرة للعودة إلى الصواب ، زمان تنحل فيه العقد المنحدرة مع الوراثة ، أو الوافدة مع البيئة ، زمان تمحى فيه الأعذار التى أقامتها الحياة الفاسدة ، وسيطرت بها على المشاعر والأهواء . وذلك سر الوصايا الرقيقة التى حفل بها القرآن الكريم صدر الدعوة الأولى : « فذكِّرْ إنما أنتَ مذكِّرٌ لستَ عليهم بِمُسَيْطِرٍ [1] » .

« وإنَّ الساعةَ لآتيةٌ فاصْفحِ الصفحَ الجميلَ [2] » .

« فأعْرِضْ عنهم ، وانتظر إنهم منتظرون [3] » .

« واصْبِر عَلَى ما يقولون واهجُرْهم هجرا جَميلا [4] » .

---

(١) الغاشية : ٢١ ، ٢٢ .
(٢) الحجر : ٨٥ .
(٣) السجدة : ٣٠ .
(٤) المزمل : ١٠ .

هذه الآيات التى نزلت فى عبدة الأصنام بمكة ، جاء مثلها فى أهل الكتاب بالمدينة :

« فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولاً بليغاً[١] »

« ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين[٢] » .

وهى كلها تدور على محور واحد : التراخى مع الجهال والضُلّال ، حتى تنفك عنهم القيود التى غلّت حريتهم العقلية ، وتنجاب الغيوم التى جعلت أذهانهم لا تلتقط للحقائق صوراً صحيحة . وعند ما يبلغ المدعوون هذه المرحلة ويرفضون مع ذلك الانقياد للحق ، فإن إمكان القسوة فى معاملتهم يصح التفكير فيه . وهم عندما يعاقبون لا يقوم لهم عند الله ولا عند أنفسهم عذر .

ونحن نلاحظ أن النبى خاض أول معركة فى الإسلام وسط ظروف تستحق التنويه .

لقد ظل خمس عشرة سنة يدعو أهل مكة إلى دينه بالأسلوب الذى رأيت ، أسلوب التذكير والإعراض ، والتعليم الذى يلقى الصدود بالهجر الجميل ، فلما أخرج هو وأصحابه من مكة ، وصودرت أموالهم بعد ما صودرت حرياتهم ، فرض الحصار على تجارة خصومه ، وأحس أهل مكة أن قافلة لهم مهددة بالوقوع فى أيدى المسلمين ، فخرجوا لاستنقاذها وحالف القافلة حسن الحظ فنجت ... وإلى هنا كان فى وسع المشركين أن يعودوا إلى بلدهم ليكفروا فيه ما شاءوا ..

---

(١) النساء : ٦٣ .

(٢) المائدة : ١٣ .

بيد أن الغرور الذى لا عذر معه ، والإصرار الذى يجانبه التوفيق ، كانا قد نسجا غطاء سميكا على عيون القوم . وبدا أن النذر الكثيرة التى سيقت إليهم لم تنجح فى إيقاظ غافل ، ولا تبصير جاهل .

وإذن فقد حلّ دور القسوة بعد ما فات أوان النصح .

ويريد الله — لحكمة عليا — أن تدور هذه المعركة على غير إعداد من المسلمين ولا توثب ، وأن تدور بعد ما انقطع كل تطلع إلى مغنم دنيوى عاجل ، وأن تدور وليس للمشركين عذر قريب أو بعيد فى إشعال هذه الحرب . وأن تدور بعد ما استنفدت جميع وسائل الإقناع التى تصح بها العقول والقلوب المعتلة ، أجل ، دارت المعركة بين كفر خالص وإيمان خالص لأن الأمر كما قال ربك :

« وَيُرِيدُ اللهُ أن يحقّ الحقّ بكلماتِهِ ويقطعَ دَابرَ الكافِرِينَ ليُحِقّ الحقّ ويُبْطِلَ الباطِلَ ولو كرِه المجرمونَ[١] » .

ومجيء المعركة فى هذا الإبّان ، يضفى عليها هالة العدل المطلق ، ويجعل دماء المشركين المهراقة آخر شيء فى الدنيا يرثى له ، أو يؤسى عليه .

والذى أحب إبرازه — فى معرض الإشارة إلى أول قتال فى الإسلام — أنه لم يقع فى السنة الأولى للدعوة الإسلامية ، بل وقع بعد أعوام يصحو فيها الغافى ، ويذكر الناسى ، ويرق القاسى ، فلو كانت بيئة مليئة بالأقذار ، لقد عرض لها من فيوض الهداية ، ما يغسل أدرانها ، ويجعل الوصول إلى الحق فى متناول كل نفس ...

---

(١) الأنفال : ٧ ، ٨ .

ومن الذى قدم معالم هذا الحقِّ للناس ؟ نبيٌّ صدوق نزيه ، ليس بعد شرحه إيضاح ، ولا بعد تلطفه حلم ، ولا بعد تجرده إخلاص …

أسلوبه فى التعليم يتبع هذا النسق : إننى أُلْفِتُكُمْ عن الباطل الذى توارثتموه ، وأعرفكم أن ربكم واحد ، هو الله الذى خلقكم ورزقكم ، فيجب أن تؤمنوا به ، وتعملوا له . لقد علمنى هذه الحقيقة وأنا بدورى أعلمكم إياها . وبذلك نصبح سواسية فى إدراكها ، فليس لأحد منكم — بعدُ — أن يعتذر بجهل ، أو يحتج بقصور .

وإذا أبيتم إلا العناد ، فاحذروا غضب الله عليكم . وهو غضب قد يبغتكم فى أية لحظة ، ما دمتم تستكبرون عن اتباع الحق .

هذه المعانى هى التى يفهمها المشركون من خواتيم سورة الأنبياء التى جاء فيها :

« قُل : إنَّما يوحَى إلىَّ أنما إلَـهُكُم إلَـهٌ وَاحدٌ فَهَلْ أَنتُم مسلِمون ؟ . فإن تولَّوْا فقل : آذَنْتُكُمْ على سَوَاء وإنْ أدرى أقَرِيبٌ أم بعيدٌ ماتوعَدونَ . إنه يعلم الجهرَ مِنَ الْقولِ وَيعلمُ ما تَكتمون . وإنْ أدرى لعلَّهُ فتنةٌ لكم ومتاعٌ إلى حينٍ . قال : ربِّ احكُمْ بالحقِّ وربُّنا الرَّحمنُ الْمُسْتعانُ عَلَى ما تصفون » .

انظر إلى الدعاء الضارع الأخير ، لقد جاء بعد تهديد يعلن الرسول أنه لا يعرف وقته ، ولا كنهه ، لأنه ليس منه ، بل من الله الذى يسيء إليه أولئك الكافرون .

وهو وحده الذى سوف يحق الحق ويبطل الباطل .

وقد فعل جل شأنه . . .

* * *

من آثار رحمة الله بالناس أنه يحلُم عليهم حتى يعرفوا الحقَّ فى أناة وتريث .

فهو يعطيهم مهلة بعد مهلة ليتركوا الضلال .

ويتيح لهم فرصة بعد فرصة ليدَعوا الباطل .

ولا يُنزِل عقابهم إلا بعد أن يتجاوز طويلا عن سيئاتهم ، وإلا بعد أن يفتح لهم ألف منفذ للتوبة كى ينجوا من عذابه .

وانظر إلى قوله تعالى وهو يصف إهلاكه للأمم المجرمة .

« وَلقد أهلَكنا القرُونَ مِنْ قَبْلِكُم ... » .

لم هذا الإهلاك ؟ ومتى ؟

بعد ثلاث مراحل ، « لمَّا ظلَموا ... » « وَجاءتهم رسلهم بالبيِّنات » « وما كانوا لِيُؤْمِنوا[1] » .

فوقوع الآثام فيهم ، ووقوع العدوان منهم ، لم يُلْحِق بهم العقوبة على الفور !

هنا مهلة البيان يجيء المرسلون فيها ليعلموا الجاهل ، وينبهوا الغافل ، ويزجروا الجاحد .

ومع هذا البيان الشافى فإن الوقوع فى الأخطاء لا يستتبع الاستئصال ، بل تجيء مهلة أخرى ، مهلة الإرجاء والتجاوز ، ليقدُر المخطئون قيمة النصائح المسداة لهم ، وليعطموا أنفسهم عن الرذائل التى ألفوا ارتكابها ، وليخلصوا بحياتهم من عواقب الإجرام القديم .

فإذا تكشف أن أرعواءهم ميئوس منه ، وأن صلاحهم بعيد الحصول ، وأن تكرار النصح عبث ، وأنهم على التلطف والتأديب ما كانوا ليؤمنوا . . . فهنا ينزل القصاص الرهيب ... !!!

---

(١) يونس : ١٣

هذه المراحل الطويلة ، كما بين القرآن أنها تسبق هلاك المجرمين ، بين أنها تسبق انصرافهم عن الحق ، وكنودهم لدعاته .

وتأمل فى قوله عز وجل « كيفَ يهدى اللهُ قوماً كفروا بعد إيمانهم » « وشهدوا أن الرسولَ حقٌ » « وجاءهُمُ البيِّنات » « واللهُ لا يهدى القوم الظالمين[1] » ؟؟ !!!

فجحد الحق بعد ما يخامر شعاعه النفس ، ويعنو لسطوته العسكر ، هو الكفر بعد الإيمان .

ثم معاينة الصدق فى سيرة الرسول وشمائله ، والانصراف عنه بعد ذلك ، هو الجنوح إلى الزور ، واتباع العناد .

وانقطاع المعاذير لتوفر العلم ، وتمهُّد السبل إلى الحقيقة ، وكثرة الدواعى إلى الأخذ بها . كل ذلك يسجل على المرء أنه ظالم لنفسه ، وظالم لغيره ، وإذا أصر على غيه بعد ذلك ، فالله لا يهدى الظالمين .

* * *

ومن هنا نعرف ، لماذا طالب الله الدعاة إليه أن يصبروا على توضيح منهاجه ، وألا يملُّوا نداء الحيارى وإن طال ترددهم ، وأن يتحمَّلوا الأذى من صرعى التقاليد ، أملا أن تقترب الفرصة لاهتدائهم ، أو يتدخل القدر فيحسم الموقف كلَّه « قلْ لِلَّذينَ آمنُوا يغفِروا لِلذينَ لا يَرجون أيامَ اللهِ لِيَجْزِيَ قوماً بما كانوا يكسبُون . من عمِل صالحاً فلنفسِه ومنْ أساء فعليها ثم إلى ربكم تُرْجَعُون[2] » .

---

(١) آل عمران : ٨٦ (٢) الجاثية : ١٤ ، ١٥

وإذا كان للبيان الشافى ، والمسلك العالى من أهل الإيمان تلك المنزلة الجليلة ، فإن الكافرين مسئولون كذلك بما أوتوا من عقل .

نعم ، الله لا يعذب العامة حتى يبعث إليهم رسولا ، لكن هناك أموراً شتى ، ركز فى الفطرة آلاف الدلائل عليها ، ومكن البعض من النطق بها ، وهيأ البعض الآخر لسماعها واستجابتها ! !

هب أهل الغرب الآن لا يعرفون الإسلام ، أو يعرفونه على نحو مشوه ينفر من اعتناقه ، فمَنْ يَعْذُرُهم فى قضايا العدل والظلم ، والخير والشر ، والرجس والعفة ، والإيمان المطلق ، أو الإلحاد المطلق ؟ ؟

إن بواعث الباطل توشك أن تطمس بينهم كل آثار الحق ، والقوم تجرون فى طيش إلى مصارعهم ، ويجرون العالم كله معهم .

ولئن كانوا يحملون أمام الله تبعة هذا النزق ، إن المسلمين الذين أهانوا دينهم ، وحرموا العالم ثماره الحلوة ، يحملون هذه التبعة معهم . . .

إن كثيراً من الدعاة إلى الإسلام تنقصهم خصائص معينة لينجحوا فى إبلاغ رسالته ، وإدخال أكبر عدد من الناس فيها . .

ولولا أن فى الإسلام طبيعة الانتشار والتمدد لسهولة تعاليمه وتجاوبها مع الفطرة — لوقف حيث بدأ ، أو لانكمشت رقعته وزالت .

وسبب ذلك أن أغلب الطرق التى يُعرض بها تحتاج إلى مزيد من المهارة والحنكة والإخلاص والتضحية . وهى الآن خصال نادرة .

إننا فى عالم إن لم تستغفله الوثنية المخرّفة استغفلته الأهواء المجحفة والمذاهب المتعسفة !!

وأعداء الحقيقة فى هذا المجال فوق الحصر .

ومن ثم فإن الإسلام واجه فى القديم ، ولا يزال يواجه حتى اليوم أعداء لا يَنُون فى بَثّ العقبات أمامه وإشاعة المفتريات ضده .

وعلى الدعاة المسلمين أمام هذه الأحوال المعقدة أن يلوذوا بالصبر الطويل وأن يفترضوا الصدود والكنود فى أحيان شتى .

وقد قرأت نصيحة حسنة أحب أن أسوقها إلى كل مشتغل بالدعوة إلى الله ، كى يفيد من صدقها وعمقها . . .

« قد يكون الحق معك . . ولكنك لا تحسن الوصول به . . ولا تجيد الدوران معه حول منعطفات الطريق ، لتتفادى المآرق وتتخطى العقبات وتبلغ به ما تريد .

وقد يكون الباطل مع غيرك . ولكنه يلبسه ثوب الحق . . ثم يجيد الانطلاق معه حتى يصل به إلى حيث ينبغى أن يصل الحق . . .

وترى أنت ذلك فتتألم له تألماً قد يكون ساكناً فيعزلك عن المجتمع . . وقد يكون صاخباً فتتضاعف معه أخطاؤك فيتنكر لك الناس . . كل ذلك والحق معك والباطل مع غيرك .

وقد يسوءك تنكر الناس لك فتتبرم بالحياة والناس وتصير إنساناً ساخطاً متشائماً ناقماً على الجميع ثم على نفسك وعملك . . ويخسرك المجتمع . .

ولا أطلب منك أن تجيد الالتواء والانثناء حتى تصل بحقك إلى مبتغاك ولكن أطلب منك أن تصبر وتثابر وتتشبث بالحق . . وتناضل فى سبيله . . وتؤمن أن العاقبة حتما لهذا الحق .

وأطلب منك أن تؤمن أيضاً بأن المجتمع يتطور تطوراً يجعل الناس يحكمون على الشخص بحقيقته لا بظاهره . . وأن مجتمعنا وقد نفض عن

رأسه غبار رواسب الاستعمار يسلك هذا السبيل . . ولكن تطور المجتمع لا يتم بين يوم وليلة . فطريقه طويل وخطواته قصيرة ، والعقبات فى الطريق كثيرة ومتعددة . . ولكنه سيصل حتما إلى هدفه طال به الزمن أو قصر . .

والأمل الكبير يتحقق دائماً . . عند ما يتشبث أصحاب المبادئ بالحق والصبر ومواصلة الكفاح » .

* * *

على أن الشرح النظرى للحق لا يُقِرُّ بين الناس معالمه ، ولا يرسى على ظهر الأرض دعائمه ، فلا بد من مثل عملى ينقل الأخلاق والأهداف ، والأوامر والنواهى من عالَمَ الخيال ، إلى عالَمَ الواقع .

وكلمة الإسلام تضم شطرين متساويين : « أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » .

والشهادة بالرسالة ليست تمجيداً لشخص أو تخليداً لرأس أسرة . وإنما هى فى الحقيقة ضميمة تمثل الجانب العملى فى الرسالة ، إلى الجانب العلمى فيها .

فإذا كان القرآن هداية الله لخلقه ، فإن محمداً هو التطبيق الحى لما حواه من معان ، والمظهر العملىُّ لما تضمنه من توجيهات ووصايا .

وليس محمد وحده الصورة الصادقة لما نزل عليه من وحى ، بل صحابته المخلصون ، وتلامذته الصالحون ، وخلفاؤه الراشدون ، أولئك جميعاً شروح جيدة للحق الذى صدعوا به ، ودعوا الناس إليه ، وحاجة الحياة إلى هذه الشروح تؤكدها تجارب الماضى والحاضر .

ففى عصرنا هذا وضعت مواثيق لحقوق الإنسان ، ووضعت قواعد

لملافات الأمم . ومع أن هذه المواثيق والقواعد بلغت الذروة فى الشمول والإحكام ، فقد ولدت ميتة ، لأنها كانت أشبه بأمنية حلوة صاغها أديب يحسن ترصيع الألفاظ ، ثم تركها أثراً جامداً فى بطون الكتب . أو قل : أثراً تزرى عليه التطبيقات المضادة ، والسياسات الدامية .

وذاك عكس ما سجل التاريخ للنهضة الإسلامية الأولى ، فعند ما ننظر إلى بدء الإسلام نرى المؤمنين الذين استجابوا لدعوته ، قد خلبتهم روعة الحق فى حياة نبيه ، قدر ما أعجبهم ذلك فى آيات الكتاب الذى نزل عليه . .

بل إن ما عرف عن هذا الرسول ، من شرف نفس ، وإدمان عبادة ، ونبل جهاد ، كان الحادى الأسبق للجماهير أن تقبل عليه ، وتعجب به . أليس هو أسوتها الحسنة ؟ ؟

وما يقال عن تأثر المؤمنين بشخص الرسول ، يقال كذلك عن تأثر الأمم الأخرى بالمجتمع الإسلامى الأول ، واستباقها إلى تقليده . فإن ما زخر به هذا المجتمع من أخوة وعدالة ومرحمة ، وما صاحبه من انفجارات عقلية أخاذه ، جعل منه حركة تقدمية تستهوى أولى النهى حيث كانوا ، وتغرى الجماهير بالدخول فيه أفواجاً .

* * *

وقد ركدت ريح الإسلام من سنين ، وتعثرت أمته تعثراً غريباً ، حتى ساء الظن بها ، وبما لديها إلى حد بعيد .

ونحن قبل غيرنا المسئولون عن هذه الحال . فإن الصيدلية التى تغش أدويتها ، لا تلوم أحداً إذا انصرف الناس عنها ، وأخذوا حذرهم منها ! .

والمفروض أن الوحى الذى اختص المسلمون به فيه كل ما يريح العالم من علله ، ويذهب عنه ألمه :

« وننزِّلُ منَ القرآن ما هُوَ شفاءٌ وَرَحمةٌ للمُؤمِنين[1] » .

فإذا كانت علاقات المسلمين بغيرهم لا تقوم على هذا الأساس ، بل إذا كان المسلمون من عدة قرون يشقَوْنَ بنظمهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية . وإذا كانت الدولة التركية التى تولت زمامهم من أربعة قرون لا تعرف العدل مع رعيتها بله غيرهم من الأجانب ، فكيف يوقر العالم ديناً أول من تمرد عليه أهله ؟ وكيف يستورد الناس لأدوائهم النفسية والعامة أشفية لم تَبْقَ على نقائها السماوى ، بل تحولت فى أيدى أصحابها إلى بدع وأهواء ، وجهالات وخرافات ؟

إننى لا ألوم بنى الدنيا إذا جهلونا . فليس لنا ما نتحدث به بعد ما طمرنا مواريثنا الجليلة فى التراب . وليس لنا ما نباهى به ، إذا استحدث العالم القوانين والأنظمة ، واستغنى بها عن شرائع الله ، واستغنينا نحن أيضاً بها ، زهداً فيما معنا ، وانسلاخاً عما ورثنا .

إننا لم ننصف الإسلام فى تصوير حقائقه من الناحية العلمية .

ولم ننصف الإسلام فى العمل به كأمة تمثله ، وتجعل من نفسها القدوة والدليل .

ولم ننصف الإسلام فى طرق عرضه ، وأساليب الدعوة إليه .

وفى هذا البحث علاج المشكلات التى تتصل بالموضوع من شتى أطرافه .

---

(١) الإسراء : ٨٢

مساوىء التعليم الديني

قلنا فى مكان آخر : إنه لا توجد فى الإسلام طائفة تختص باسم «رجال الدين» على النحو المعروف فى ديانات أخرى ، ويمكن أن يستحق هذه التسمية نفر من الساسة والقادة ، والمهندسين والأطباء ، والتجار والصناع ، فهموا دينهم فهما حسناً ، ومدّوا رواقه فى الميادين التى يعملون فيها . ومن ثم يكون إعزازهم للاسلام سبباً كافياً لأن يرفعهم إلى مصاف رجالاته المعدودين .

ولئن كان الإسلام ينكر تميز فريق من أتباعه بهذا العنوان ، إن الحياة لا تنكر توزع البشر على ما يحسنون من دراسات وحرف . .

والتخصص العلمى — بعد ما استبحرت المعرفة ، وتفجرت فنون الثقافات — أصبح سمة عصرنا هذا ، وإن كان معهوداً فى العصور الأولى . فلا غرو إذا عنينا بتكوين فئة خاصة يكون عملها البارز التفقه فى الإسلام ، والإحاطة بعلومه ، ثم الإشراف على تعليمه للعامة ، والتوفر على تربية الأجيال الناشئة ، والتغلغل فى استيعاب — النصوص والحِكم — تغلغلا يمكّن من دحض الشبه ، ورد مفتريات الخصوم . .

وهذه الطائفة يوم توجد ، لا ينبغى أن تتميز بملابس ، أو تنفرد بشارات . وهى — وإن اصطلح العرف على تسميتها : برجال الدين — لا تحتكر هذه التسمية ، بل من الخير أن تنأى عنها ، وأن تبرئ الإسلام من الطائفية التى تدل عليها . . .

والتخصص فى الدراسات الإسلامية ضرورة علمية ، وطاعة إلهية معاً . فأما أنه ضرورة علمية : فإن الفقه فى القرآن الكريم ، والسنن النبوية ، يتطلب الطاقة العاطفية والذهنية التى يتطلبها التبريز فى الأدب ، أو الصناعة ، أو التجارة . .

وأما أنه طاعة إلهية فلأن الله — جل شأنه — يكره أن يسأل عنه وعن وحيه من لا باع له، ولا ذكاء. ولذلك يقول:

« فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ[1] » . ويقول : « الرَّحْمَنُ، فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً[2] » .

وعندى أن النكبات التى طاحت بمجد الإسلام، تعود أكثر ما تعود إلى قلة العلماء الراسخين، والخبراء الفاهمين، وإن كثر المتزيون بزى العلماء والحاملون لإجازتهم الدراسية وكان المتوقع أو المتيقن أن يسد « الجامع الأزهر » حاجة العالم الإسلامى إلى هذه الطائفة الممتازة من المعلمين والدعاة، وأن يكفل للرسالة الإسلامية امتدادها الروحى والعقلى، على اختلاف الزمان، وتطور الحياة، بيد أن الأزهر لم يقم بهذا الواجب، لعوائق شتى: بعضها نبت فيه، وبعضها صُنِع له!!

وبين عدة آلاف من الأشخاص الذين تخرجوا فى « الجامع الأزهر » أخيرا وسُمُّوا « علماء الدين » أو « رجال دين » لا نجد إلا بضع عشرات من الرجال الفقهاء الأمناء!!

والغريب أن هذه العشرات التى تحصى على الأصابع مغبونة فى هذا المعهد العتيق، أو مسحوب عليها ذيل الإهمال...!!

* * *

وهناك مآخذ على سياسة تخريج العلماء المسلمين وهم بهذه المكانة من القصور:

---

(١) الأنبياء : ٧ (٢) الفرقان : ٥٩

أولها : فقدان الخصائص النفسية والذهنية التى ترشح أصحابها للعلوم الدينية ؛ فليس كل أمرئ يصلح — مهما بلغت ثقافته — أن يشتغل بالنواحى الروحية ، أو الجوانب الإلهية فى دنيا الناس .

وإذا كنا لا نتصور الأبكم خطيباً ، ولا الأبله نجيبا ، للعجز الملحوظ فى خلقتهم فكيف نتصور أصحاب الشهوات الطافحة ، أو الطوايا الخبيثة ، أو العقول البليدة ، رسلا للدين ، ودعاة إلى السماء ؟ .

وألوف الطلاب الذين يتوجهون منذ نعومة أظفارهم إلى مكاتب تحفيظ القرآن الكريم ، ومنها إلى معاهد الأزهر الشريف ، فكلياته العليا . هذه الألوف لا يتهيأ أغلبها — بطبعه الخاص — كى يحمل رسالة تخير الله لها صفوة خلقه فى الأولين .

وليس ذلك طعناً فى صلاحية هؤلاء الناس للتعلم والإنتاج . فقد يكونون أقدر من الألوف الأخرى فى شئون الحياة ، وفنون المعرفة ، وأنواع الحرف الأخرى . . أما هذا الضرب الخاص من مواريث النبوات ، فهم عزوف عنه بطباعهم . وربما أجادوا خدمة الدين والدنيا فى نواح هامة لا تتصل بالتعلم والتعليم ، غير أن الأوضاع الظالمة هى التى حصرتهم برغمهم فى هذا اللون من الدراسة ! ! !

ونشأ عن عدم التلاقى بين الطبيعة والوظيفة ، أن عدداً كبيراً من أئمة المساجد ووعاظها يكره العمل الذى كلف به وعاش منه ، اللهم إلا أن يكون مكفوف البصر ، فسيمق رهين محبسيه : من ضرارة ، وتعليم دين ! ! ومن يدرى لو أتيح له ما أتيح للدكتور « طه حسين » ؟ ما نأمن أن ينقل شبه المستشرقين والمبشرين ليناوش بها قلاع الوحى كما فعل أخ له من قبل !! .

وكثيراً ما أقارن بين بعض المدرسين فى المعاهد والكليات وبين إخوتهم فى الريف ، فما أجد فارقاً بيِّناً بين سلوك وسلوك ، بل قد أجد هؤلاء الفلاحين أدنى إلى طاعة الله وخشيته . ثم تنظر أخيراً إلى أولاد العلماء فترى الجمهرة العظمى سلكت طريقها فى التعليم المدنى ، إن واحداً فى الألف من أولئك الآباء هو الذى يشعر فى قرارة نفسه بالرضا عن عمله ، أو الطمأنينة على مستقبله . .

والدولة من عشرات السنين تحمل تبعة هذه الفضاضة . فمنذ ثلاثين سنة ، ويوم كنا طلاباً فى الفرق الأولى ، ونحن نتصايح بطلب الإصلاح دون جدوى . .

ومن الفكاهات التى تداولناها ، ونحن لما نزل طلاباً فى المعاهد : لماذا لم يُختَر فلان شيخاً الأزهر ؟ فيكون الجواب : لأنه عالم ، أو لأنه جرىء ، أو لأنه حرٌّ ، !!!

وهذه أحوال توجب الرثاء . فإن العمل للإسلام قد يتطلب قليلا أو كثيراً من الجراءة ، أو البذل ، أو الغربة ، أو الاستيحاش من الحاكمين ، فكيف يقدر عليه رجل هو بطبيعته خوار ؟ أو شحيح ؟ أو لصيق ببيئته ؟ أو يستمد وجاهته من رضا الآخرين ؟

بل إن منصبه لو أوحى إليه أن يظهر بصفة من هذه الصفات فإن نفسه تخذله ، ولو أراد تمثيل دوره كما يتخيل هو أو كما يقترح له فإن مسلكه يجىء أقرب إلى الهزل منه إلى الجد .. !!!

* * *

والمأخذ الثانى على سياسة التعليم الدينى عندنا ، هذا التخصص المبكر قبل تحصيل ثروة محترمة من المعارف الإنسانية ، والدراسات الكونية التى لا بد منها قبل التوفر على علوم الدين ، وعلاج قواعدها ودقائقها وإننى لأجزم بأن الإسلام لا يمكن أن يُدرس دراسة واعية ، ولا أن يفهم فهماً صحيحاً قبل تحصيل هذه الثروة المحترمة من الثقافة .

ذلك أن القرآن الكريم ، والسنة النبوية ، تعرّضا لشئون نفسية وكونية ولمسائل اجتماعية وتشريعية ، ولتوجيهات داخلية وخارجية ، يتطلب الخوض فيها طاقة ذهنية عالية ، إلى جانب الاستمداد الروحى المتيد ...

فكيف يصل إلى فقهٍ ناضج فى دين الله امرؤ محدود الفكر ، مختل التصوُّر ؟ لقد حفظتُ القرآن الكريم وعمرى عشر سنين . وبذلك صار صبىٌّ ساذج وعاء من أوعية العلم ، استدرج النبوّة بين جنبيه ، وإن كان لا يوحى إليه .. !!

ولقد استوعبتْ الذاكرة هذه الوديعة الضخمة من آيات الله طوراً بالرغبة ، وطوراً بالرهبة بيد أنها لم تزدْ على أنها وديعة مختزنة ، ظلت سنين عدداً وهى مقطوعة الصلة بالعمل والخلق ، والتفكير والتدبير .

ومثل هذا الحفظ لا يمكن اعتباره امتداداً لرسالة الإسلام ، ولا تأديباً للناس بآدابه العظمى ...

ولست أَنفِّر من تعهُّد الأطفال بحفظ القرآن ، إن مرحلة الطفولة فترة حسنة لإيداع الذاكرة مُدّخراً نافعاً من النصوص والتعاليم . ولكنى أرى أنه لا ضرورة هناك لإلزام الأطفال بحفظ القرآن كله ! حتى الذين يراد تخصيصهم فى الدراسات الإسلامية وحدها فإن أمامهم متسعاً من الوقت لاستظهار ما يُنشدون ..

وأعتقد أن حفظ القرآن الكريم كله لا بد منه لكل متخصص فى التعليم الديني ، كما أعتقد أن ذلك ممكن وميسور فى مراحل التعليم المتوسطة والعالية لمن شاء .

والمؤسف أن جمهرة المتخرجين فى الجامع الأزهر فى هذه السنوات العشر نسوا القرآن الكريم بعد ما استُحْفِظُوه وهم أولاد صغار . ومرجع ذلك إلى الخيانات العلمية الشائنة التى فشت فى هذا المعهد العتيق .. !!

* * *

والطريقة المثلى لتكوين علماء الدين اختيارهم وفق رغباتهم الخاصة من بين الذين تجاوزوا مرحلة التعليم الإعدادي والثانوى . بعد إدخال إصلاحات شاملة على التعليم العام ، تُشرِبُه روح العروبة والإسلام ، وتدخل فيه عناصر التربية السليمة ، تلك التربية التى تغرس فى نفس التلميذ عواطف معينة ، وتوجه أفكاره وجهة خاصة ولا بأس باقتباس قليل أو كثير من نظم المدارس الأجنبية ، التى تشغل اليوم حتى الغروب ، وتُقَطِّع الإجازات على فصول السنة ، وتربط الطلبة ربطاً محكما بحياتهم العلمية ، وجوهم المدرسى ...

ويجب أن يخضع تكوين معلم الدين لطبيعة العمل الذى يوكل إليه فى المستقبل ، فالدعاة فى الداخل غيرهم فى الخارج . ومربو الأطفال غير مدرسى الصفوف الوسطى والعليا . وبديهى أن الزاد العلمى الذى يُقدَّم لهؤلاء يتفاوت كماً وكيفا ، كما تتفاوت كذلك المؤهلات التى لا بد من توفرها فى اختيار كل نوع ...

على أن الشئ الذى نلفت النظر إلى ضرورته وجوب الاطلاع الواسع على المعارف الإنسانية التى تشعبت واستبحرت فى علوم النفس والاجتماع والأخلاق . وكذلك فى علوم النبات والحيوان والطبيعة والكيمياء . كما لا بد

من إلقاء نظرات شاملة أو عابرة على تاريخ العالم وأجناسه ودياناته ، ونهضاته القديمة والحديثة ، وفتح مجال المقارنة الواعية بين أحوال الأمة الإسـلامية وغيرها من الأمم التى اشتبكت معها فى سلم أو حرب ...

وهذه المعارف اللازمة قد تسبق الدراسات الدينية الخاصة أو قد تقارنها وعلى كل حال ما يجوز أن يشتغل بتعليم الدين رجل فارغ منها أو تافه الحظ فيها فإن تصدّىَ رجل للدعوة إلى الله أو لتعليم رسالاته وهو يجهل طبيعة كونه وخلقه ، أو هو يكوِّن عنها فـكرة مغلوطة أمر لا يليق ، وهو قبل أن يسىء إلى الشخص يسىء إلى ما يُعلمُه ، وإلى ما يدعو الناس إليه . . .

* * *

والمأخذ الثالث على التعليم الدينى عندنا ضعف الاستيعاب لجملة الحقائق التى جاء بها الإسلام ، والغلوّ فى تقدير الأجزاء المبتورة التى تتاح معرفتها للبعض مع القصور فى معرفة الأجزاء المـكملة الأخرى مع ما يكون لها من خطر وأثر !!

ففقه العبادات ربما لا يتجاوز المسجد وميضأته ، والسنة النبوية لا يدرس منها إلا ما يمس الناحية الخاصة ، أو أركان الإسلام الخمس ، وأصحاب العاطفة المضطربة أو المستقرة يهتمون بالتصوف ، وجانبه الروحى السلبى ، وينكمشون عما عداه . وأغلب المتعلمين فى البلاد الإسلامية تنفتح أمامه نافذة معينة إلى هذا الدين فلا يرى إلا مدّ بصره هو ، ثم يحسب ما يرى هو الأول والآخر ..

وقد ظل الأزهر — وهو أكبر معهد إسلامىّ — يطنب فى شرح العبادات الشخصية ، ويحسب جهده هذا إحاطةً لها شأنها !! فى الوقت الذى ذهل فيه ذهولا معيباً عن التشريعات التجارية والاقتصادية . والسياسية والاجتماعية التى ذخر بها الإسلام ، وخاض فيها الأقدمون .

والذى وقع فيه الأزهريون وقع فى مثله خلفاء وتلاميذ الإمام المصلح محمد بن عبد الوهاب فى نجد والحجاز . بل إن مدارس أخرى فى المشرق والمغرب قد سارت فى الطريق نفسها !! ومع أن كل فريق شغل نفسه بما لم يشتغل به الآخر ، فقد حسب ما عنده اللباب الذى لا يلتفت إلى ما عداه . وتلك هى المأساة ...

على أن العالم الإسلامى لم يخل من رجال راسخين ، تخطوْا هذه السدود التى صنعها ضيق المطن ، والتى باعدت للأسف بين أتباع دين واحد ! فوجد فى مصر والشام والأفغان والجزائر والحجاز من يتسع عقله وضميره للتقريب بين تفكير السلف والخلف ، وتفكير الفقهاء والمتصوفة ، وتفكير العباديين والاجتماعيين ، وتفكير الحرفيين والموضوعيين .. وهكذا ..

إن الفلاحين فى بلادنا لا يعرفون الدنيا إلا سهولا خضراء منبسطة ، لا نجود فيها ولا وهاد ، وأعراب الجزيرة لا يعرفونها إلا أرجاء من الرمال والجبال ، تسودها الوحشة ، ويغمرها الجدب . وسكان الجُزُرِ تطالع أبصارهم فى الصباح والمساء بحاراً لا آخر لها ، تمرح فيها الأمواج ، وتسبح السفن . وزنوج أفريقيا يحيون وسط غابات متشابكة ، وأشعة محرقة ، وطفولة فى أطوار الحياة .. وكل فريق من هؤلاء يخطئ إن حسب العالم أجمع لا يعدو ما رآه ، وعاش فى طواياه .

ومهما طال الإلف ، واستقر الظن ، فإن حقائق العالم التى حجبها القصور يجب أن تستكشف ، وأن تعرف ، وأن يعترف بها ... !!!

كذلك الدين ، إن أسوأ ما بُلىَ به معرفة جانب منه ونسيان جانب آخر ، ثم تضخيم ما يُعرف ، وتهوين ما يجهل !! وقد تهون عواقب هذا القصور فى شئون الناس المادية ، أما بالنسبة إلى الإسلام ، وهو جملة

حقائق أحصاها القرآن وبينها الرسول ، فإن الأمر يجلّ ويعظم . إذ أن هذه الحقائق قد تشبه مثلا جهاز « الراديو » تكمل بين يديك عُدَدُه وصماماته ، ثم يتعطل السماع منه لانكسار قطعة فيه لا تساوى بضعة قروش ! ! ! أو كالمنضدة التي تتكفأ مكانها ، ولا يستقر عليها شيء لقصر في إحدى قوائمها يمكن علاجه بجهد تافه .

والمجتمع الإسلامى قد يسرى إليه الخلل لمثل هذا النقص . بل إن النفس الإسلامية قد طرأ عليها عوج بالغ — منذ عدة قرون — لعجز الدعاة ومعلمى الدين عن ترتيب معالمه ، وتقديم ما يستحقَ التقديم وتأخير ما يستحق التأخير ، فكانوا كالطبيب الذى اضطرب فى عقاقير الدواء ، زاد ما ينبغى نقصه ، ونقص ما ينبغى زيادته فصار دواؤه داء ....

وقد تعلمت من تجاربى فى شتى البيئات الدينية ، أن الأذهان الكليلة بطبيعتها يجب نفيها من ميدان التعليم الدينى ، فإن ضعف طاقتها يضطرها لأن تقبل بعض الدين وتجهل بعضه الآخر .

كما علمتنى التجارب أيضاً أن الأفئدة المليلة يجب نفيها هى الأخرى ، فإنها ولو استوعبت الدين كله ستجهل روح الخير فى رسالته ، وستستغل ما تعرف من كل أو بعض لتضليل الناس عن غايات الدين ، أو تقليل نفعهم به ، والتفائهم عليه .

* * *

والمأخذ الرابع على التعليم الدينى عندنا أن بين العلماء والدعاة نفراً كبيراً لا تصدق أحوالهم أقوالهم ، يستمع الناس إلى كلامهم عن الله والآخرة والعبادة والتقوى ، فإذا رأوا فعالهم أخذتهم الحيرة من بعد الشقة بين القول والعمل ... ! !

وليس ما نستنكره على هذا الفريق من العلماء نكولهم عن أداء واجب ، أو انزلاقهم إلى ارتكاب محرم . فإن هذا العصيان الواضح المحدّد منكور على عامة المسلمين ، فلا جرم يستبشع من خاصتهم ، ولا ينتظر وقوعه منهم ، فإن هم اقترفوه فلهم عليه حساب آخر ، حساب مُغلَّظ عنيف .

وفى الحديث : الزبانية أسرع إلى فسقة القراء منهم إلى عَبَدَة الأوثان . فيقولون : يبدأ بنا قبلهم ؟؟

فيقال : « ليس من يعلم كمن لا يعلم[1] » !!!

وإنما الذى يؤخذ على العلماء والدعاة ما يواقعونه من أخطاء أو خطايا تمس سير رسالتهم التى حملوها ، وكلفوا بالسير عليها ، ومدّ رواقها . .

فكثير من هؤلاء يعمل فى حدود نِصابٍ مُعيَّن من الأهداف الدانية . ثم يتوقف توقفاً تاماً بعد ذلك إذا أحس اقترابا من سلطات جائرة ، أو تقاليد مرعية ، أو أوضاع ميئوس من إصلاحها . كأن للأمر والنهى دائرة يتحرك داخلها ، ويبطل وراءها .

هذا الخوف يحمل نفراً من العلماء على ترك كثير من حدود الله حتى توشك أن تخفى أو هى خفيت .

وما خفيت على مر الزمن إلا من توارث الجبن عن الجهر بالحق .

وقد بلغت هذه العلة حدًّا طمس شرائع الله بين أهل الكتاب الأولين ، حتى جاء محمد يعمِّق مجراها من جديد بعدما طمرته الأهواء :

« يأهلَ الكتابِ قد جاءكم رسولنا يبيِّنُ لكم كثيراً مِمَّا كنتم تُخْفُون منَ الكتابِ ويعفو عَن كثيرٍ[2] »

---

(١) المدرى (٢) المائدة

« إن الَّذين يكتُمون مَا أنزلنا من البيِّناتِ والهُدى مِن بَعْدِ مَا بيّناهُ للناسِ فى الـكتابِ أولئِكَ يَلعنُهمُ اللهُ ويلعنهمُ اللَّاعِنُون[1] »

وإذا كان الفَرَقُ على العمر ، أو الجزع على الرزق ، قد عقل ألوف الألسنة عن كلمة الحق ، وضار رسالات الله فلم تأخذ امتدادها فى الأرض ، فهناك داء آخر فشا بين المشتغلين بالعلم الدينى ، وجرثومته معروفة بين الناس جميعاً على كل حال ، وهو التحاقد والتحاسد .. !!

وعندى أن أغلب العراقيل التى اعترضت نجاح الأديان ، وأغلب الهزائم التى منيت بها ضد الإلحاد والعصيان ، يعود إلى هذا الداء . . .

إن اليهود — وهم كما يقال أصحاب دين — كان يسرُّهم ، ويثلج صُدورهم ، أن يرتد المسلمون عبدة أوثان !! لمــاذا ؟ :

« حسَداً من عند أنفسهم من بعد ما تبيَّنَ لهم الحق[2] » .

وقد كفروا بمحمد أقبح الـكفر . لمــاذا ؟ لأنه ليس إسرائيليا من جنسهم .

« بَغْياً أن يُنَزِّلَ اللهُ من فضله على مَنْ يَشاء مِن عبادِه[3] » !!! وأستطيع أن أحكم وأنا واثق مما أقول أن فساد الأزهر ، وعجزه عن اقتياد الأمة ، يعود إلى هذا الداء . ففى الأزهر بضع مئات من العلماء ذوو دراية وفطنة ، أخرتهم الضغائن عن مكانتهم الواجبة ، وقدمت عليهم من لا يغنى غناءهم ، حتى لقد خُيِّل إلىّ وأنا فى الأزهر : أن الـكفاية علة كافية للحرمان !!!

---

(١) البقرة : ١٥٩ (٢) البقرة : ١٠٩

(٣) البقرة : ٩٠

وما حدث فى الأزهر وقعت له نظائر فى بيئات أخرى . ولِوخامةِ النتائج التى يجلبها هذا الداء اقتنعتُ بأن شهوة الزنا فى دم شاب طائش ، أخف من سورة الحسد فى قلب راهب يَصُفُّ قدميه طول الليل فى محراب !!

إن الظن بأن العلم الواسع ، والـكلام البليغ ، يكفيان الرجلَ لـكى يُعَدَّ بهما لخسبَ عاملا للإسلام ظن غريب ، وإن احتراف التعليم فى أى مهنة أو صناعة قد يقبل وقد يكفى ، أما التعليم الدينى فإن احترافه لا يعتبر عملا للإسلام حتى يصحبه العمل والخلق ، ولذلك يقول الله عز وجل :

« أتأمرونَ الناسَ بالبرِّ وتنسَوْنَ أنفسَـكُمْ وأنتم تتْلون الـكتابَ أفلاَ تعقِلون[1] » .

* * *

هبطت مكانة الإسلام أوائل هذا القرن هبوطاً شديدا بين أهله ، ونزلت معها مكانة الرجال المنتسبين إليه ، لأن أحوالهم كما رأيت بين التفريط والصدود . . ! !

وأريد أن أكون أمينا فى وصف الواقع . فعند ما كنا طلابا فى معهد « الإسكندرية » الدينى كنا نعانى آلاماً شديدة ، من جراء الجفوة والوحشة والغلظة التى كان يلقانا بها سكان الإسكندرية دون شفقة ! ! كان الذين يلبسون العمائم يسيرون على حذر من هجوم مفاجىء ، أو كلمة ساخرة ! !

وما ندرى سر ذلك ، ألأننا أبناء الفلاحين ، أو لأننا نتعلم الدين ؟ ؟

ولا تحسبنَّ هذه الزراية خاصة بأشخاصنا ! فما كانت مكانة الإسلامَ نفسه فى دنيا السياسة العالمية بأحسن من مكانة ذلك « المجاور » التعس يمشى مغموصاً منكمشا فى المدن الآهلة الآمنة . . . ! ! !

---

(١) البقرة : ٤٤

وما كان يتوقع للإسلام أفضل من هذا المصير بعد أن رمى الأتراك بالخليفة والخلافة فى عرض البحر ، وبعد أن كرّت القرون على ينابيعه الثقافية فأسِنَتْ من طول ما أهملَتْ .

وبعد أن أصبحت العلوم الإسلامية خليطا من قشور وآراء ومذاهب لا قيمة لها

وبعد أن تطرقت الملل الجسام إلى قدرة العلماء العاطفية والفكرية ، فانتهت إلى ما صورناه لك آنفا . . . . ! !

وبدلا من رسم سياسة قويمة لإصلاح التعليم الدينى ، أنشئت عدة مدارس لتخريج موظفين أقوياء ، يقومون بتدريس اللغة العربية ، أو القضاء فى المحاكم الشرعية « سابقاً » ، فأسست مدرسة دار العلوم ، ومدرسة القضاء الشرعى ، كما أسست مدارس المعلمين الأولية .

وقد هرعت إلى هذه المدارس أفواج الطلاب ، الذين أنسوا فى مستقبلها كرامة العيش وضمان الحياة . والذين كرهوا « الجبة والقفطان والعمامة » وما يلقاه لابسوها من مطاردة وهوان على أن هذه المدارس لم تحلّ مشكلة التعليم الدينى إلى اليوم ، بل لعل بقاءها مع الأزهر ، أو بقاء الأزهر معها ، لم يزد الأمور إلا تعقيداً . . . .

والخلاصة أن هوان التعليم الدينى وقلة شأنه ترجع إلى سببين .

١ — انحلال[1] النظام الإسلامى من عصور متراخية ، وانطلاق الحكومات مع دوافع الهوى دون ارتباط جاد بتعاليم الإسلام أو وفاء بيّن لرسالته . . .

---

(١) أفردنا باباً خاصاً بهذا البحث يجىء بعد .

وذلك مما حرم التعليم كله رعاية السلطات القائمة .

مع الإشارة هنا إلى أن التعليم فى تاريخنا الطويل لم ينقسم إلى دينى وآخر مدنى بل كانت الدراسة العامة تمزج بين النوعين ، ثم يتشعب المتخصصون فى الدراسات التى يرتضونها لأنفسهم ، بعد أن يحصلوا جميعاً على أنصبة محترمة من التربية والمعارف الدينية .

٢ — سطوة التيار الغربى الفاتح . وقيامه على خصائص حيوية تتصل بمعاش الناس ومستقبلهم القريب ، واتباعه سياسة ماكرة فى مخاصمة الإسلام وإقصائه عن الحياة العامة .

وقد بدأ بهذه السياسة مستر « دنلوب » الذى سيطر على وزارة المعارف المصرية وحذف من برامجها حصص الدين والأخلاق واللغة العربية .

ولا يزال أثر هذه السياسة باقيا فى مختلف المدارس والمعاهد مع انقضاء الرجل وذهاب سياسته .

فقد تجرد التعليم المدنى من كل قوامة إسلامية ، وعصبية عربية ، ثم وكل إلى خريجيه وحدهم إدارة دفة البلاد .

وما حدث فى مصر مَثَلٌ كامل لما حدث فى سائر الأقطار التى وقعت فى براثن الاستعمار ، وهى أقطار الأمة الإسلامية كلها ! ! !

وقد نشأ عن ذلك انكماش حقيقى فى دائرة التعليم الدينى ، ثم ذبول مادى وأدبى بين رجاله ، جعل جمهرتهم الكبرى تتوارى من زيه ونسبته . . . ! ! !

ولا ندرى — مع الفوضى الهائلة التى تسود الجبهة الإسلامية ، والجامع

الأزهر — ما يكون عليه مستقبل التعليم الإسلامى ، أو ما ينتهى إليه اتصال الحياة الواجبة لهذا الدين ؟

* * *

ثم دخلت أحوال الإسلام فى طور آخر ، مذ قامت جماعات وهيئات شتى ، تردُّ إليه ازدهاره الأدبى ، وتنفخ فيه روحا جديداً . ومن المألوف فى تاريخ النهضات أن اليقظة العقلية والنفسية تسبق دائماً النشاط السياسى والاجتماعى ، أو أن هذا النشاط الفوار يكون وليد تلك اليقظات المليئة بالحياة . . .

وقد شرعت الثقافة الإسلامية تربو وتهتز منذ أعوام قلائل ، ودخل ميدانها نفر من الأدباء الكبار ، والباحثين الأمناء . كما دخل الميدان معهم أقوام لهم عواطف دينية حسنة ، غير أن عُدَّة البحث الموفق تنقصهم . .

وقد نشط كذلك عدد من العلماء الأزهريين ، وعدد من الدارسين الذين يضارعونهم من خريجى المعاهد الإسلامية فى الأقطار الأخرى . وعلى أيدى هؤلاء أمكن عرض التراث الإسلامىّ فى صورة أرق وأنضر . . . !!!

إلا أن انتعاش الثقافة الإسلامية البادى فى كثير من المؤلفات الحديثة شىء غير تنظيم التعليم الدينى ، وتوزيع برامجه على الصفوف الدنيا والعليا . فهذه المؤلفات محسوبة ضمن الترف الأدبى ، أو الكماليات العقلية ، يقبلُ عليها من شاء ، وينصرف عنها من شاء . . .

أما التعليم الذى نريده فإعداد شامل يهيئ الأمة كلها للسير وفق نظام روحى رتيب ويجعل المدن والقرى ، والشباب والشيوخ ، متجانسين فى سلوكهم العام ، ومثلهم العليا .

* * *

ولا بد من إلقاء نظرة عجلى على الـكتابات الإسلامية التى تشيع الآن .

وسنرى أن كثيراً منها تأثر بأسلوب التفـكير الغربى ، وحمل طائفة من الأحكام الأجنبية ، وأراد أن يفرضها على الإسلام قسرا .

وسنرى أيضاً أن أغلب هؤلاء الـكتاب له نصيب محترم من فهم الحياة ، وحسن الذوق ، وله بصر بعلل المجتمعات ، وقيمة الدين فى علاجها . ومع ذلك فعندهم نقص كبير فى استيعاب نصوص الـكتاب والسنة ، ونقص أكبر فى معرفة المقاييس الإسلامية ، وأصول الفقه الإسلامى . .

وقد يستخفى هذا النقص إذا كان الـكاتب صاحب عقلية جبارة ، كالعقاد ؛ أو ملـكة أدبية ممتازة ، كهيكل والحـكيم . . . بيد أن هذا النقص يبدو فى صورة تدعو إلى الضحك عندما يتعرض بعض « الـكبراء » لبحوث شرعية ، أو تقريرات دينية ، فيخبطون خبط عشواء ، ويخلطون خلطا منكرا . . . .

هؤلاء الـكبراء ربما كانوا ذوى مناصب خطيرة فى الدولة ، وربما كانوا أساتذة لعلوم مدنية فى الجامعات . وباسم أنهم مسلمون ، وأن الإسلام ليست له طائفة خاصة تسمى « رجال الدين » يخوضون فى شئون دينية مهمة ويُدلون فيها بأفهام سقيمة ، وآراء لا تساوى فلساً ...

تصور كاتباً لمحام ناشئ يرسل أحكاماً فى قضايا يتروّى فى دراستها والبتّ فيها مستشارو محكمة النقض والإبرام !! أيُقبل هذا اللغو بأى عذر ؟ ولو عذر حرية الرأى ؟ إن الإسلام ليس له كُهّان بداهة ولـكن من قال : إن أى دين ، أو أى مذهب اجتماعى ، بل أى مشروع إصلاحى — ولو رصف طريق — ليس له من يتخصص فى دراسته ، ويعتبر قبل غيره المسئول عنه ؟؟

إنه يَسُرُّنا أن يزن الناس تصرفاتهم بمعايير الإسلام ، وأن يرجعوا البصر في أصوله ليعرفوا على شعاعها طريقهم . ويسرنا أن تكثر البحوث والأفهام في هذا المجال الكريم ، على شرط أن يُذاد عنه سفهاء الأحلام ، ممن لا يُقبَلْ رأيهم في موطن الجِدّ ، وأن يذاد عنه أصحاب الوسائل القاصرة مهما صلحت نياتهم ..

لقد قرأت بحوثا لأناس يعالجون الموضوعات الدينية بقلة مبالاة كأنهم يكتبون رواية غرام !

وقرأت — لمن يجهلون قواعد النحو في خطبةٍ يُنمّقونها — كلماتٍ في تفسير القرآن ، وتخطئة العلماء الأولين !

وقرأت لمن يجهل تاريخ الأمة التي يعيش فيها غمزاً لتاريخ السنن المروية عن رسول الله !

وقرأت محاولات لتزوير الفتوى ، وتأويل النصوص الحاسمة بتمحلاتٍ ما عرفها أهل الذكر طوال أربعة عشر قرنا . !

وقرأت مقالا للدكتور طه حسين يسوّغ هذه الفوضى الشائنة باسم حرية الخطأ[1] ! !

ولا شك أن الأوضاع التي سحبت الأزهر من ميدان الحياة ، والمآخذ التي سجلناها على التعليم الديني هي علة هذه الاضطرابات في ميدان الثقافة الإسلامية . . . ! ! !

(١) أفردنا باب « التجديد والاجتهاد » لعلاج هذا الموضوع ! !

علوم الحياة ونشاطها

وقَمَت فى تعريف الإسلام للناس أخطاء شـاعت بين أهله أنفسهم ، فعـكرت عليهم محياهم ، وعـكّرت على الإسلام رونقه ، ونحن نحاكم هذه الأخطاء إلى كتاب الله ، وسنة رسوله ، ليـنـكشف الغطاء عن الحق ، وليعرف المسلمون بعض أسرار تأخرهم ! !

هل الحياة شرٌّ ؟

وهل التعمير على ظهر الأرض مرحلة يجب على المسلم أن يستحث السير إلى نهايتها كى يتخلص منها ؟ ويجب عليه أن يمر بالدنيا غريباً لا تربطه بأحوالها علاقة موثقة : ولا يلابس شئونها إلا كما يلابس الزيت الماء ؟ ؟

إن جمهور المسلمين فهم الدنيا على هذا النحو . ومن عدة قرون وجمهور القصاص ، والوعاظ ، وأرباب الطرق الصوفية ، يلحون على الأمة بكلام كثير ، لصرف المسلمين عن الحياة الدنيا ، ويسوقون بين أيديهم حشداً من أحاديث الرِّقاق ، وبعض آيات الـكتاب التى يرونها كما يرى الأرمد ضوء الشمس . وأغلبها يدور على هذا المعنى المأثور :

« كن فى الدنيا كأنك غريب ، أو عابر سبيل . . »[1] .

وما زال المسلمون يتدافعون فى السبيل الموحشة التى ساقتهم إليها هذه التوجيهات ، حتى طلع عليهم العصر الحديث ، وهم غرباء فى الدنيا على الحقيقة لا على المجاز ، يدلفون إلى غاياتهم من سُلَّم الخدم والعبيد ، تاركين الأبواب الـكبرى فى عمارة الوجود لسائر الملل والأجناس ! ! !

هل الدنيا كذلك !

---

(١) البخارى .

وهل الانزواء فيها ، ثم الفرار منها عبادة ؟ كلا !

إن الحياة خير ، وإن كل يوم تنفتح فيه العين على ضوء الشمس والقمر نعمة متاحة ، يجب شكرها ، ويجب استغلالها .

وإنشاء العلاقات الموطدة مع الدنيا وشئونها أمر يهتم به المسلم الراشد ، ما دام في صدره نَفَس يتردد ! وغاية ما يكلَّف به أن يُحسِنَ السيرة في هذه الأرض التي استخلفه الله عليها ، وإليك هذه الشواهد من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . .

عن أبي هريرة قال : كان رجلان من حيّ في قضاعة أسلم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستشهد أحد الرجلين ، وأُخِّرَ الآخر سنة . قال طلحة بن عبيد الله : فرأيت المؤخَّر منهما أُدخل الجنة قبل الشهيد ، فتعجبت لذلك . فأصبحت فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، فقال :

« أليس قد صام بعده رمضان ؟ — وصلى ستة آلاف ركعة وكذا وكذا ركعة في هذه السنة ؟؟ فلَمَا بينهما أبعد مما بين السماء والأرض[1] »...

انظر إن المكث في الحياة والبقاء على وجه الدنيا ليسا شرًّا ، إنهما رفعا منزلة رجل فوق الشهداء ! !

إن طول الحياة يمكن أن يكون منبع خير غزير ؛ وإن الزعم بأن الحياة شر ؛ وأن مغادرتها أفضل من معالجتها ؛ ليس إلاَّ هُرَاءَ مقطوع الصلة بالإسلام .

وقد روى هذا المعنى عن عامر بن سعد بن أبي وقاص قال : سمعت سعداً وناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : كان رجلان أخوان

(١) أحمد .

فى عهد رسول الله ، وكان أحدهما أفضل من الآخر ، فتوفى الذى هو أفضلهما ، ثم عُمِّرَ الآخر بعده أربعين ليلة ، ثم توفى فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال !

« ألم يكن يصلى ؟ قالوا : بلى يا رسول الله وكان لا بأس به ! فقال رسول الله ما يدريكم ما بلغت به صلاته ؛ إنما مثل الصلاة كمثل نهر عذب غَمْرٍ بباب أحدكم يقتحم فيه كل يوم خمس مرات ؛ فما ترون ذلك يبقى من درنه ؟ إنكم لا تدرون ما بلغت به صلاته . . [١] ؟ » .

أوعيتَ الدلالةَ المشرقة خلال هذا التوجيه ؟

إن الحياة فرصة ينبغى انتهازها ! والبقاء فيها وسيلة لمزيد من الطهر والتكمل ، وكل لحظة يقضيها الإنسان فى هذه الحياة الدنيا يمكن أن يصنع فيها شيئاً ما ، فلا يجوز التجهم لها ، ولا القعود عنها ، ولا العجز عن أسبابها ، ولا الانصراف عن أبوابها . . .

وجود المرء على ظهر الأرض ليس سوءاً فى ذاته يُتَمَنَّى معه الموت ، بل هو أمد كلما طال طالت معه مجالات العمل ، ومراحل السباق ، والتنافس إلى أرفع الدرجات قال رسول الله :

« ألا أنبئكم بخيركم ؟ قالوا : نعم ! قال: خياركم أطولكم أعمارا ، وأحسنكم أعمالا[٢] » . وفى رواية : أن رجلا قال : يا رسول الله أى الناس خير ؟ قال : « من طال عمره وحسن عمله » قال . فأى الناس شر ؟ قال : من طال عمره وساء عمله[٣] » . . .

* * *

---

(١) ابن خزيمة . (٢) ابن حبان . (٣) الترمذى .

إن التماوت قبل الموت هرب وضيع من وظيفة المرء فى الوجود ، ونكول عن حمل تكاليف الحياة ، وجهالة بأسرار الحكمة العليا . وهذا التماوت لايمكن أن يكون دينا ، إذ الدين حركة إصلاح للحياة إذا شردت ، وتوجيه لقواها الدائبة كى تعرف ربها وتتقيه .

وقد تسربت إلينا جراثيم هذا التماوت مع بعض الفلسفات الانسحابية التى ولدتها أفكار المتشائمين ، ومشاعر المنهزمين ، ثم انتشر هذا الوباء مع انتشار التصوّف فى الأمة الإسلامية ، ومع فساد قواعد الحكم ، ومناهج التربية ، خلال القرون الأخيرة .

فكانت عقباه أن عاش جمهور المسلمين فوق أرض ما يحسنون استغلالها ، وتحت سماء ما يرمقون آفاقها ، وفى كون ماتمنيهم أسراره ، ولا تبهرهم أنواره . عاشوا فى ظلمات هذا الانطواء النفسانى المشلول ، يزينه لهم قُـرَّاء ليس لهم فقه ، وقُصَّاص ليس لهم وعى ، يختبئون وراء نصوص محرفة ، وأحاديث مُشَوَّهة ، ثم يَحْدُون الركب الإسلامىّ التائه حداء البوم والغربان . . .

إن التعبير الشائع فى بلادنا — نحن المصريين — إذا أراد امرؤ الاستحمام أن يقول : أغسل جثتى ! ! ! هذا البدن الذى نحمله جثة ؟ وتطهيره فى حمام منعش هو إفاضة الماء على هذه الجثة ! وماذا بعد أن يغسل إنسان جثته إلا أن يلبس أكفانه ؟ ويستقبل حياة داكنة ، لا عزيمة فيها ولا رجاء ، ولا إقبال عليها ولا نشاط ؟ ؟

ومتى يحدث ذلك ؟ بعد أن تطورت الحياة ، وارتقت معارفها ، واستكشفت أسرارها ، وأخذت مصاريع الكون تتفتح نافذة إثر أخرى ، وتخلل الضوء المنساب شتى الأرجاء ! ! !

إن هذا التماوت قوّض أركان المسلمين ديناً ودنيا ، وعليهم إذا طلبوا وجه الله ، وطلبوا عاجل أمرهم معا ، أن يُصَحِّحوا موقفهم ، وأن يصوّبوا نظرتهم إلى الدنيا ، وألا يلبسوا الحق بالباطل ، فيفهموا أن التمكين فى الأرض ، والإمساك بزمامها بعض الاشتهاء الحرام ، أوبعض الخروج من سنن الإيمان . . . ! ! !

إن البون بعيد بين التمكين فى الدنيا ، والقدرة عليها ، وبين الاغترار بالدنيا ، والحمق فى تقديرها .

الأول يعود إلى فهم آيات الله فى كونه ، وقوانينه فى سمائه وأرضه .

والآخر يعود إلى الجهل أو الشطط فى تعرف الوجود ، وتبيّن بداياته ونهاياته .

وعلى المسلمين أن يعرفوا الحقيقة التى ندت عنهم من سنين طويلة ، وهى أن حاجة الدين إلى الدنيا كى يستقر ويمتد ، كحاجة الروح إلى البدن السّوىّ ، كى يسمع ويبصر ، ويمشى على هذه الأرض .

ثم إنه لا ارتباط بين التمكين فى الأرض ، والخبط فى شهوات الدنيا ، أو السرف فى شهوات البدن ، أو الميل مع نزغات الهوى والظلم .

فكم من مُمَكَّنٍ فى الدنيا عازف عن هذا كله ، أو آخذ منه بقدر ، أو نازل عنه فى أول عراك على مبادئه ومُثُله .

وكم من خامل جاهل مستضعف ، لا يرتفع بصره أبداً عن الدنيا ، ثقلت به أهواؤه ، فأخلد إلى الأرض ، فعاش بعقله الكليل ، ومنزلته المزرية ، كما تعيش بعض الدوابّ ، لا تعرف إلا الأكل والسفاد .

من الذى يزعم أن العرب والمسلمين عزوف عن الشهوات ، وهم من

بضعة قرون مزلزلون فى الأرض ، لانصرافهم عن علومها ، وذهولهم عن أسرارها ؟

ومن الذى يزعم أن شعوب الغرب تحرص على الآجال والأرزاق فى عشرات المعارك التى لا تفتأ تخوضها ، وهى ما هى من تمكين ومنعة ؟ ؟

الحق أن المسلمين خلطوا بين النقيضين عندما فهموا نعى الإسلام على الدنيا صرفا لهم عن التبريز فى شئونها ومعارفها ، والتنقيب فى أقطارها ومعالمها . .

وما دَرَوْا أن دينهم لن تقوم له قائمة إلا بهذه الدنيا المكينة ، وهذه الحياة القوية الثرية الذكية . . .

* * *

وقد قلنا : إن المتصوفة يحملون أوزار هذا التخريب الفكرى فى العقل الإسلامى . وهذه البلبلة النفسية التى جعلت القافلة الإسلامية تنحاز جانباً فى الحياة ، بينما الأجناس الأخرى تمر مرَّ السحاب .

لقد جازف أبو حامد الغزالى — عفا الله عنه — مجازفة لم يُوقَ المسلمون غوائلها عندما قال فى كتابه « المنقذ من الضلال » : إنى علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله خاصة ، وأن سيرتهم أحسن السير ، وطريقهم أصوب الطرق ....

ثم قوله فى كتاب « ميزان العمل » : إن السالك لسبيل الله يعرض عن الدنيا إعراضا لو ساواه الناس كلهم فيه لخرب العالم . . .

هذا الكلام ألقاه الإمام الكبير جزافا ، ويستحيل أن يقصد حقيقته ،

أو يلتزم بنتائجه . ويبدو أنه صدر فى حالة انفعال نفسانى من مصاحبة علماء السوء .

والمرء قد يضجر من دسائس البيئات الملمية — وخصوصاً المشتغلة بالدين — ويؤثر الفرار إلى شعف الجبال ، ومعاشرة رعاة الغنم ، بيد أن هذا الهرب إذا قبل من فرد منهزم أو معتزل ، فلا يجوز وصفه بأنه دين الله ، أو الدين كله ، كما لا يجوز أبد أن تتسع دائرته حتى تشمل الأمة كلها . إذ معنى ذلك بداهة خراب المجتمع ، وانهيار الحياة العامة ، وسقوط الرسالة التى تحملها الأمة ، وتــكلُّفُ بالعمل لها ونصرتها ، والدعوة إليها ، والدفاع عنها . . .

على أن هذه الأفــكار المملولة التى أفرخت بين أهل الطرق الصوفية فشت فشُوًّا منكراً بين جماهير المسلمين ، وغاض ما كان يصحبها قديماً من خير ، وربما انطوت عليه من خطر وضرر . فإذا المسلمون فى القرون الأخيرة مصروفو الهمم عن شئون الدنيا وأعمال الحياة يفــكرون فيها بانكسار وبلادة ! ! !

وقلما ينهضون إليها إلا لضرورات العيش الملحة !

وقلما يفــكرون فيها بالرغبة التى تفتق الحيلة ، والوثبة التى تستــكشف المجهول . !!!

* * *

وفلسفة التصوف هذه دخيلة على الإسلام ، وهى تخالف طبيعة الحياة كما شرحها الله فى كتابه ، وتخالف طبيعة الإسلام التى تتألق فى نصوصه ، وفى سيره السلف الصالحين . !!!

إن الله لما أهبط آدم إلى الأرض ، واستعمر ذريته فيها ، لم يقصد إلى

إهانتهم أو ضع مكانتهم ، ولم يؤخر منزلتهم بين أجناس الخلق الأخرى . بل الأمر على العكس .

فقد شاء الله عز وجل أن يجعل الإنسان سيداً فى هذا العالم ، وأراد أن تشترك عناصر الكون كلها أوجُلُّها فى خدمته وتيسير رغائبه :

« ولقد كرمْنا بنى آدمَ وحملْناهم فى البرّ والبحرِ ورزقْناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقَنا تفضيلا[1]

« ولقد مَكَّنّاكم فى الأرض وجعلْنا لكم فيها مَعايشَ قليلاً ما تَشكرونَ[2] » .

ونلاحظ أن هذا التمكين حقق للإنسان مكاسب كثيرة ، فهو لم يكفل ضروراته فحسب ، بل بذل له المتع المرفهة ، واعترف بأشواقه إلى اللذائذ المعنوية ، وأنواع الزينة والتجمل وانظر إلى قوله تعالى :

« والأنعامَ خلقَها لكُمْ فيها دفءٌ ومنافعُ ومنها تأكلون[3] »

ثم قوله بعد ذلك :

« ولَكُمْ فيها جَمالٌ حينَ تُريحون وَحين تَسْرحَون[4] » .

إن إحساس المالك بلذة الاقتناء ، وذهابه إلى الحقل تحفُّ به هذه الدوابُّ المسخرة ، وعودته فى الأصيل وهى حافلة وادعة ، وهو بها راض قرير ، إن هذا الجمال متعة تحسَبُ ، ويمتنُّ الله بها على الإنسان .

وكذلك الأمر فى الثياب ، فليست المنة فى ستر العورات بها فقط ، بل المنة فى إشباع رغبة الإنسان أن يزدان بما يحب :

---

(١) الإسراء : ٧٠ (٢) الأعراف : ١٠

(٣) النحل : ٥ (٤) النحل : ٦

« يا بَنى آدمَ قدْ أنزلنا عليكم لِباساً يُوارِي سَوْءاتِكُمْ وَرِيشاً ..[١] »

وينتقل هذا الفضل المزدوج إلى بناء الكون الذى نحيا على أرضه ، ونستظل بسمائه . فإن نجومه كما نسقت فى داراتها وفق نظام مُبين ، فقد رُصِّعت فى أوضاعها لتكون متعة أبصارنا فى الليل الهادىء :

« وَلقد جعلنا فى السَّماء بُروجاً وزيَّناها للناظرينَ[٢] » !!

هكذا أسبغ الله على الناس آلاءه . إنه يقول فى إعلان عام :

« هو الذِي خلَق لكم ما فى الأرْض جميعاً[٣] . »

« يَأيُّها الناسُ كلُوا مما فى الأرض حلالاً طيِّبا . ولا تتَّبِعوا خُطُوات الشيطانِ إنه لكم عدوٌّ مبينٌ[٤] »

وقد وعى أصحاب الطبائع المستقيمة هذا الإذن السمح ، وشرعوا ينتفعون به فيما بين أيديهم وما خلفهم ، وما زالت دائرة نشاطهم تنداح حتى وسعت أرجاء الملكوت ، على حين وقف المسلمون فى أماكنهم كجيران السَّدَّيْن الذين وصف القرآن أحوالهم مع السائح اللبيب فقال :

« حتى إذا بلغ بين السَّدَّيْن وَجَدَ مِنْ دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً ... [٥] »

وذلك العجز الذى شلّ تصرُّف المسلمين فى شئون الدنيا يرجع إلى الأفكار المعلولة التى أشاعها التصوُّف بينهم ...

والآن لنحتكم إلى الإحصاء والمقارنة لنرى ما انتهى إليه أمرنا وأمر الناس . يقول الله عز وجل ممتناً على عباده جميعاً :

---

(١) الأعراف : ٢٦ (٢) الحجر : ١٦ (٣) : البقرة : ٢٩
(٤) البقرة : ١٦٨ (٥) الكهف : ٩٣

« الله الذى سخَّر لكم البحرَ لتجرى الفلك فيه بأمرِه ولتَبْتَغوا من فضله ولعلكم تشكرون(١) »

فلنتساءل : كم عدد السفن التى تمخر البحار وتشق عباب المحيطات الشاسعة ؟

إنها ألوف ! فى كل ألف سفينة منها واحدة فحسب تنتسب للمسلمين !! وأحسبنى مبالغاً فى هذه النسبة !!! إن أحواض بناء السفن ، وإصلاحها ، ومعاهد قيادتها ، والإبحار بها ليست معروفة لدينا ، لأن شئون الدنيا لا تعنينا .. !

ويقول الله عز وجل :

« وأنزلنا الحديدَ فيه بأسٌ شديدٌ ومنافعُ للناس وليعلم اللهُ من ينصرُه ورسله بالغيب(٢) »

فلنسأل أنفسنا : كم صنعنا من آلات الحديد فى كل ألف آلة تُستخدم فى السلم أو الحرب ؟ إنها النسبة الهزيلة نفسها !! نسبة الواحد فى الألف . كأن هذه الآيات موجَّهة إلى الروس والأمريكان وحدهم !! وكأننا — معشر العرب — الأشاوس — لا صلة لنا بها !!!

وانظر إلى الزراعة — وهى حرفة الشعوب المتأخرة — إن هناك مساحات هائلة فى بلاد الإسلام لا تزال غفلا بكراً ما نقصت بركة الله ذرة فيها ، ولكنها تفتقر إلى الأيدى العاملة لتجود بالخير وترسله غدقا !

وأين الأيدى العاملة بين أقوام مسخوا دينهم ليعيشوا فى ظله كسالى قاصرين . وتستطيع أن تتساءل مرة أخرى لمن نزلت هذه الآيات :

---

(١) الجاثية : ١٢ (٢) الحديد : ٢٥

« هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شرابٌ ومنه شجرٌ فيه تُسِيمون ، يُنْبِتُ لكم به الزرعَ والزيتونَ والنخيلَ والأعنابَ ومن كلِّ الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون .... وما ذَرَأَ لكم فى الأرض مختلفاً ألوانهُ . إن فى ذلك لآيةً لقوم يذَّكَّرون[1] » .

ويبدو أن التفكر والتذكر ليسا من أنصبتنا فى هذه الحياة . والغريب أن أغزر المحاصيل وأنضرها ليس من صنع أيدينا . .

وقد رأيت بعينَىَّ كيف وفدت الشركات الأجنبية إلى الأرض الموات فى شمال الدلتا ، وأخذَتْ تحييها ، ثم تبيعها بأقساط ربوية للفلاحين المسلمين ! ! !

حتى البقر والضأن والطيور، ما يُرَبَّى منها فى الخارج أدرُّ لبنا و أرقى صوفا وأضخم بيضا من الأنواع المماثلة لها فى بلادنا ! ! ، ولذلك نستجلب إلينا لتحسين ثروتنا من الأنعام والدواجن ! !

ترى هل انتقلت عدوى الزهد فى أوطاننا من الإنسان إلى الحيوان ، فهُزِلت هى الأخرى كما هُزِل مقتنوها ؟ ؟

* * *

وهل وعيت قصة البترول فى البلاد الإسلامية ؟

إن هذه المادة أضحت روح المدنيَّة الآلية التى تسود العالم اليوم وإلى أن يُخترع وقود آخر لا بد من نهر دافق بالبترول ، يروى الألوف المؤلفة من الآلات التى لا تنقطع ضجتها ليلا أو نهاراً فى سائر أنحاء الدنيا .

وبلاد الإسلام تنتج ما يقارب النصف من هذه المادة ولكن الواقع المر ينطق بأن الذين اكتشفوها عندنا واستخرجوها بجهدهم ، وركبوا الآلات التى تقوم بتنقيتها وتهيئتها، ثم حملوها بسفنهم وتاجروا فيها بأموالهم هم الأجانب !!

---

(١) النحل : ١٠ — ١٣

لقد كانت فى أيدى المسلمين كقطع الماس فى يد صبىٍ من الأرياف ، ضحك عليه محتال ماهر ، فأخذها منه ، وعوضه عنها قطعة من الحلوى !!

والبترول الآن يستنزف من أرضنا بِنهَم رائع . والثمن الذى يقدره المشترون أى المستخرجون (!) بعضه أرصدة فى مصارف انجلترا ، وبعضه الآخر يضيع فى استيراد أدوات الترف . وهذا وذاك لحساب بعض الأشخاص أو الأسر ..!!

وقد تغلغت جذور هذه الخيبة العامة فى أساليب معالجة المسلمين لما يوكل إليهم من أعمال . أو لما توارثوا الاشتغال به من مِهَن وحِرَف . فهم يقبلون عليها بقلة اكتراث وسوء تقدير . ومن ثم تخرج من بين أيديهم رديئة لا تصل ألبتة إلى مرتبة الإحسان الذى كتبه الله على كل شئ ...

ثم يجىء دور التجارة !! وحديث الأرقام فيها يغنى عن تطويل المقال . والمعروف أن « ألوف الملايين » يملكها ويديرها الأجانب فى بلادنا .

أما التجار الوطنيون فهم يملكون حظوظاً قليلة من المال ، ونطاق نشاطهم يخضع فى أغلب الأحيان لنفوذ هؤلاء الأجانب الذين يحتكرون أسواق الجملة ، ويفرضون مشيئتهم على تقدير الأسعار والأرباح . !!

* * *

أتدرى معنى تقلص الإسلام من الميدان الاقتصادى ، وانفراد الآخرين بالسلطان الواسع فيه ؟؟ إن معنى ذلك هو أن رسالته ، وبوار دعوته ، ثم تماص رقعته المعنوية والمادية معاً ، واستحالته إلى أنقاض لا يسمح لها بالبقاء إلا ريثما يتم التخلص منها ، ويمهد الطريق لغيرها .

إن النجاح الاقتصادى بعيد المدى فى الحكم على الأشخاص والأشياء .

ولأذكر فى هذا المجال كلمة فيلسوف الشيوعية الأكبر «كارل ماركس»:
«إن اليهودى الذى لا يُحسب له حساب فى فينا هو الذى يقرر بقوته المالية مصير النمسا كلها !! واليهوديّ الذى يكون فى أصغر الولايات الألمانية محروماً من الحقوق، هو الذى يقرر مصير «أوربا» بأجمعها !!».

ولم ذلك ؟ لأن اليهود فى الغرب يملكون تقريباً نصف رءوس الأموال العاملة فيه وسيطرة رءوس الأموال على الحكم لها قصص تروى فى الشرق والغرب. قصص تتضح بها الحقيقة الأسيفة لا الخيال الشرود.

وإنى إذ أسطر هذه الأحرف، أستمع محزوناً إلى تصريحات رئيس الولايات المتحدة، وهو يضع مشروعه لسدّ الفراغ فى الشرق الأوسط، أى الشرق العربى الإسلامى!

ما هذا الفراغ المزعوم ؟ فراغ المنطقة بعد ما تزلزل فيها النفوذ الاستعمارى، وشارف الموت !!

إنها لا يجوز أن تترك خالية! أى لا يجوز تركها لأصحابها!

لا بد أن تكون فى حضانة قوة خارجية أخرى !!

كاليتيم المحجور عليه إن ذهب وصى لئيم جاء بعده وصىٌّ لئيم.

وإنى مع إحساسى بوضاعة المؤامرات الدولية التى تحاك ضدنا هنا وهناك، أعرف أن ضعف أخذنا لأنفسنا من هذه الحياة الدنيا هو سرّ طماعية الأقوياء فينا، وتحلُّب ريقهم على ما بأرضنا من خيرات وكنوز .. !!

ولذلك فإن الأفكار السقيمة التى خلفها التصوُّف فى الأجيال المتأخرة أفسدت نظرة المسلمين إلى الحياة الإنسانية — كما رسم خطوطها القرآن — وأفسدت كذلك عمل المسلمين بدينهم، وعملهم لدينهم.

فإن من المستحيل أن يقوم دين على غير مهاد من الحياة السكينة — كما يستحيل أن يسير قطار على غير قضبان ... !

* * *

هذه الأفكار جاشت بها نفوس اليائسين والمصابين والمدحورين ، فهى أفكار خرجت من الأرض ولم تنزل من السماء .

وليتها فلسفة تفاؤل وإقدام ، إذاً لهان شرها !! لكنها فلسفة نكوص وعجز ، جعلت أهل الدين يسيئون امتلاك الحياة وتسخيرها لله ، فاستداروا يطعنون فى الحياة ، ويلطخون وجهها بالأوحال ...

ولقد اضطر الصوفية — تحت إحراج التعاليم الإسلامية الواضحة بشأن المال والدنيا — إلى أن يومئوا إلى الحقيقة من بعيد ، وأن يعترفوا بأن الادخار ، والاستغناء ، وامتلاك الدنيا ليست مأخذاً على الإيمان ما دام ذلك كله مقترنا بنية طيبة . وهذا تعبير أمكن اعتصار بعض الحق منه على كره من أصحابه .

وقد نقل الدكتور زكى مبارك أعدل الآراء المتعلقة بالدنيا عند أئمة الصوفية . فانظر إلى ما نقله عن السكندرى .

قال : وابن عطاء الله لا ينكر الادخار فى جميع الأحوال ؛ وإنما ينكر ما يقع منه بخلا واستكثاراً ؛ ومباهاة وافتخاراً ؛ وهو يقبل ادخار المقتصدين وهم الذين لم يدخروا استكثاراً ولا مباهاة ولا افتخاراً ؛ وإنما علموا من نفوسهم الاضطراب عند الفقر ، فعلموا أنهم إن لم يدخروا تشوش عليهم إيمانهم ، وتزلزل إيقانهم ؛ فادخروا لضعفهم عن حال المتوكلين وعلماً منهم بعجزهم عن مقام اليقين .

وهناك طبقة ثالثة ؛ هم السابقون ؛ وادخارهم ليس لأنفسهم ، ولكنه ادخار أمانة ؛ فإن أمسكوا الدنيا أمسكوها بحق ؛ وإن بذلوها بذلوها بحق ؛ وليس الممسك لها بحق بدون الباذل لها بحق .

ثم قال الدكتور بعد أن سرد رأى الغزالى فى المال — وهو يدور فى النطاق السابق — أردنا أن نُنطق الصوفية بالدعوة إلى المـال والادخار ؛ والحق أنهم غرباء فى هذا الميدان ؛ فالتصوف الإسلامى هو فى حقيقته ظل من ظلال المسيحية ، هو هربٌ مطلق من الدنيا ومن الجاه ومن المال .

ولا يدعو إلى الغنى إلا طبقة ضئيلة من الصوفية ؛ ومن أجل هذا كان خطرهم شديداً على الأخلاق ..

الصوفية جنوا على المسلمين أبشع جناية حين حببوا إليهم الزهد . وبغّضوا إليهم المـال ...

الصوفية هم الذين جعلوا المسلمين آخر الشعوب ؛ وهم الذين قضوا عليهم بالاستعباد ؛ وهم الذين أوردوهم موارد الذل والضيم والهوان .

إن أول صوفى تعمق فى البحث عن عيوب النفس ، وآفات الأعمال ، وأغوار العبادات هو الحارث المحاسبي — وهذا الرجل — الذى كان قدوة لجميع الصوفية — كان من أعداء المال ولم تكن عداوته للمال عداوة هينة ، لأنه ضرب على الوتر الحساس حين ذكّر المسلمين بفقر الرسول ؛ وهو يتخذ من فقر النبي صلى الله عليه وسلم حجة على شر الغنى ، وإضراره بخير الدنيا والدين ..

وكان الحارث المحاسبي رجلا قوىّ المنطق ، زلق اللسان ؛ وكان من أهل البصر بمكامن الضعف فى النفوس ؛ وقد مكّنت له مواهبه الأدبية والذوقية من نواصي الناس ؛ فاندفع يذم المـال ذماً بليغاً ، لم يصل إلى سمع ولا قلب إلا حوّل صاحبه إلى زاهد أوّاب ..

ثم قال : كان المحاسبي رجلا مسيحىّ النزعة ، يرى العلماء كالمنخل ،

يخرج منه الدقيق الطيب ، وتبقى فيه النخالة ؛ ويرى الحكمة تخرج من أفواههم ، ويبقى الغل فى صدورهم ؛ ويراهم أفسدوا آخرتهم بصلاح دنياهم .

والحق أن الصوفية اختلط عليهم الأمر حين أحبوا التشبه بالأنبياء .

فالمسيح تصوف لأنه رأى حب الدنيا يعصف باليهود .

والنبي محمد صلى الله عليه وسلم لم يفكر فى إصلاح دنياه ، لأنه شغل بتبليغ الرسالة : فكان مثله مثل الداعية الذى يريد أن يقطع جميع الألسنة ، ويسلم من تلوّم السفهاء . .

ومن المعقول أن يلوذ الأنبياء والمصلحون بالفقر ، ليفرغوا لدعوة الخير ، ولكن كيف يصبح الفقر شريعة ؟ وكيف يصير من واجب الناس جميعا أن يعيشوا فقراء ؟

إن جانب الضعف فى الأخلاق الصوفية أنها تجعل الفقر مما يجب أن يرغب فيه جميع الناس .

ولو عقل الصوفية لعرفوا أن للفقر خلقة بشعة ، لا يطمع فى التعرف إليها رجل كريم ..

الفقر هو البلية العظمى ؛ والنكبة الكبرى ، والبلاء الماحق ، والشر الملعون ؛

الفقر هو العورة التى يفتضح بها الرجال .

الفقر هو المقتل الذى يُصرَعُ به الأبطال ؛

الفقر هو أقبح الصفات التى تنزه عنها الله ذو الجلال ؛

الفقر فضيلة سخيفة لا يدعو إليها الا رجل سخيف . ؟

و قد قرأت كما قرأ هؤلاء الآيات والأحاديث التى تفيد ذم الدنيا وتهوين شأنها. على أنى — مع جماهير العقلاء وعامة السلف الصالح — مافهمت منها شيئا من تعطيل العمران ، أو شل نمائه وارتقائه ، ولا من تعطيل الغرائز البشرية أو الشهوات الحيوانية المعتدلة ! !

هب أن رسول الله قال :

« اتقوا الدنيا واتقوا النساء .. » فهل معنى تقوى النساء ، أن يختصى الرجال ، وينقطع النسل ، ويصبح التبتل شريعة ! !

إن تقوى النساء بداهة لاتعنى إلا إيصاد الأبواب على المعصية ، وعلى الانفعالات الشاذة المريبة ، لكى يبقى المجال حراً أمام العفاف وحده . .

وكذلك تقوى الدنيا ، ماتعنى إلا اطراح الشره فيها، والاغترار بها ، وسوء الأخذ منها ، وكل تصرف يقوم على الجهل بحقيقتها ومجىء الدار الآخرة خلفها . . .

وقد سألنى أحدهم : مامعنى قول رسول الله لابن عمر : « كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » فقلت له : هذا الحديث كحقنة « الأنسولين » للمريض بالسكر ، تدخل على الجسم مادة زائدة ، لتعوض النقص فى إفراز الغدد الراكدة . . .

قال : كيف ؟

قلت : إذا طاشت ألباب البعض ، فحسبوا الدنيا الوجود كله ، وتشبثوا بهذا الظن فى تضخيم الحياة وجحود غيرها:

« وأقسَموا باللهِ جَهْدَ أيمانهم لا يبعثُ الله من يموتُ . . . [1] »

---

(١) النحل : ٣٨ .

فكيف ترد هؤلاء إلى الجادة ؟ وكيف تقفهم مكرهين أمام الحق الذى ينكرون ؟

لابد من كلمة تصوِّر لهم فى قوة وإزعاج أن الدنيا التى يبالغون فى فهمها، ويحتسون فى إطارها ليست شيئا مذكورا إلى جانب الآخرة التى لابد من استقبالها، ومواجهة نعيمها، أو مكابدة أهوالها . . .

إن الدابة الجامحة تحتاج إلى سوط لتعتدل وتلين، وكلما اشتد جماحها كلما اشتد إلهاب ظهرها بالسياط، وليس ذلك لإبطال حركتها، وإفقادها الحياة، بل لإلزامها السير المعقول، السير الذى يحقق النفع بها وينجيها هى نفسها من المطوب .

والإسلام لايذم الحياة أبدا ليخلق أجيالا تعيش عميانا فى أنوارها، جهالا أمام أسرارها، بل يذمها ليضمن حدود الاعتدال، وليحجز الغرائز الطافحة بالأثرة والبغى عن إفساد الأرض بأثرتها وبغيها . .

ولذلك يقول :

« فاتقوا الله وأطيعون . ولا تطيعوا أمر المسرفين . الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون[1] » .

فمنع الفساد، وإقرار الصلاح، هما غاية الدين . وعلى ضوء هذا الكلام تفهم قوله تعالى :

« اعلموا أنما الحياة الدنيا لعبٌ ولهوٌ وزينةٌ وتفاخرٌ بينكم وتكاثرٌ فى الأموالِ والأولادِ كمثل غيثٍ أعجبَ الكفارَ نباتُه ثم يهيج فتراهُ

(١) الشعراء : ١٥٠ — ١٥٢ .

مصفرًّا ثم يكون حطاماً . وفى الآخرةِ عذابٌ شديدٌ . ومغفرةٌ من اللهِ ورضوانٌ . وما الحياةُ الدنيا إلا متاعُ الغرور[1] » .

هذه الآية وأمثالها ، لإعادة التوازن إلى الحياة الإنسانية ، عند ما تختلُّ بأثقال الهوى .

وضمان هذا التوازن يشبه فى علم الطبيعة « قانون الروافع » الذى يقول : إن القوة فى ذراعها ، تساوى المقاومة فى ذراعها .

وعمل الدين فى الحياة يستهدف هذه المساواة .

فنحن نُحدِّث عن جمال الصفح رجلا بادى القسوة ، حريصاً على إدراك الثأر .

ونحدث عن جمال العطاء رجلا واسع الغنى ، شديداً فى حب المال .

ونحدث عن انقضاء الدنيا رجلا به إلى الدنيا شبقٌ سدَّ على روحه منافذ اليقين ، وفوّت عليه فرص الاستمداد للقاء الله وهكذا . . .

ولو وجهت هذه الأحاديث إلى اضداد أولئك الأشخاص لكان كلامك كله عبثاً فى عبث . . ! !

وجهلة القصاص والوعاظ يحملون تبعة تضليل الأجيال المتأخرة فى بلاد الإسلام ، وصرفها عن الانتفاع بالدنيا ، وعن دعم الإسلام بها ، بسبب تحريفهم الكلم عن مواضعه . . . ! ! !

* * *

---

(١) الحديد : ٢٠

على أن شرح الموضوع يحتاج إلى نُمْلَةَ أخرى فإن الإسلام ينظر إليه نظرة أرحبَ مما تُطيق الأفهام الضيقة !

إن شئون الدنيا ، وجميع الأعمال العادية تنسلخ من عنوانها وحقيقتها ، وتتحول إلى شئ آخر بين يدى الإنسان الراقى ؛ الإنسان الذى يضفى عليها روحا من مُثله العليا ، وغاياته النبيلة .

إنها تتحول إلى دينٍ ما نفث فيها الإنسان المؤمن من فيض إيمانه ، ووجهها إلى الله بحسن إخلاصه !

هل يطلب المؤمن من عباداته الثواب ، ورضوان الله ؟

وهل يصوم ويُصَلِّى ويتصدق ابتغاء ذلك ؟

إنه يستطيع أن يحصل على مثل هذا الثواب ، إذا باشر الأعمال الدنيوية كلها بنية صالحة ، وغرض شريف !!

ما يظن الناس فى الزراعة ؟ يظنونها عملا عمرانياً بحتاً ! لكن الإسلام يرتفع بها إلى مرتبة أسنى ، ما دام الغرس والحصاد يكفلان مصالح العباد ، ويضمنان شبع العانى والمحتاج .

إن فلاحة الأرض — والحالة هذه — إيمان وجهاد ، وصلاة وزكاة !

وقد جهل بعض الناس هذا المعنى ، واستنكر — لقصوره — أن يشتغل كبار الرجال بالزراعة .

فقد روى أحمد بن حنبل عن أبى الدرداء : أن رجلا مرّ به وهو يغرس غرساً بدمشق . فقال له : أتفعل هذا وأنت صاحب رسول الله ؟ قال : لا تعجل علىّ سمعت رسول الله يقول : « من غرس غرساً لم يأكل منه آدمىٌّ ولا خلق من خلق الله ، إلا كان له به صدقة » . . .

وقال رسول الله : « ما من مسلم يغرس غرساً ، إلا كان ما أُكِلَ منه صدقة ، وما سُرِقَ منه له صدقة ! ! ولا يرزؤه أحد إلا كان له صدقة ، إلى يوم القيامة » .

وفى رواية « فلا يغرس المسلم غرساً ، فيأكل منه إنسان ، ولا دابة ، ولا طير ، إلا كان له صدقة ، إلى يوم القيامة[1] » .

وانظر إلى جملة من أعمال البر يذكر النبىُّ صلى الله عليه وسلم أن أجرها خالد ، وأن ثوابها مستمر ، بعد أن ينتقل المرء من الحياة إلى الموت .

« سبع يجرى للعبد أجرهن وهو فى قبره ، بعد موته ، مَنْ عَلَّمَ علما ، أو كرى نهراً ، أو حفر بئراً ، أو غرس نخلا ، أو بنى مسجداً ، أو وَرَّث مصحفاً ، أو ترك ولداً يستغفر له بعد موته[2] » .

إن هذه الأعمال مختلفة المظهر والجهد ، وبعضها يمكن عدُّه من محض الأعمال الدنيوية ، بيد أن شرف الغرض سلكها جميعاً فى نظام واحد ، ومثوبة سواء . . .

* * *

وقد تكون الزراعة نافلة فى بعض الظروف ، لكن إذا ارتبطت بها أقوات الجماهير ، وميرة الجيوش ، فهى فريضة من الفرائض ، يعتبر التقصير فيها ، وترك الآفات تعدو عليها ، خيانة لله ورسوله . . .

وكذلك التجارة إن العمل فيها دين وكذلك توجيهها لخدمة الاقتصاد الإسلامى وحسبك أن رسول الله يقول :

---

(١) البخارى ومسلم . (٢) المنذرى

« التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء[١] » .

وأن الله يعذر الكادحين فى ميدانها ، ويعفيهم من قيام الليل ، كما يعفى الفرسان الذين يقاتلون سحابة النهار ، أليس كلا الفريقين فى جهاد شاق ؟ :

« والله يقدِّر الليل والنهار ، علم أن لن تُحصوه فتاب عليكم ، فاقرأوا ما تيسَّر من القرآن ، علم أن سيكونُ منكم مرضى ، وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضلِ اللهِ ، وآخرون يقاتلون فى سبيل الله . .[٢] » .

ومثل الزراعة والتجارة ، كل حرفة يتكسَّب بها المسلم ، ويقيم عليها حياته ، وفى الحديث :

سئل رسول الله : أى الكسب أفضل ؟ فقال : « عمل الرجل بيده وكل بيع مبرور[٣] » .

وقال رسول الله : « ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبى الله داود ، كان يأكل من عمل يده[٤] » .

وداود عليه الصلاة والسلام كان يحترف صناعة الحديد ، وهى صناعة أفشلُ الناس فيها — فى هذا العصر — عباد الله المسلمون ، لأن حرف الأنبياء لا تليق بمكانتهم ! ! ! .

ولو أنك قلت لأحدهم : إن أباك كان حداداً ، أو كان راعى غنم ، لعَلَتْ وجهَه صفرة الخزى . ! ! يحسب ذلك طعناً فى نسبه العريق ! ! فهل هذا فقه فى الإسلام ، أو فهم للحياة ؟ ؟

إن اكتساب المال من هذه المصادر المعروفة للناس يجب أن نَقْدُرَه

---

(١) الترمذى .
(٢) المزمل : ٢٠
(٣) المنذرى .
(٤) البخارى .

قَدْره وهو بحسب الأحوال التى تعرض له ، قد يكون فريضة مع الفرائض الموقوتة ، أو نافلة مع النوافل المستحبة .

والمهمُّ أن نعلم أن تغبير القدمين فى أرجاء الحياة ، كصفِّ القدمين فى محاريب العبادة ، كلاهما دين قويم ، وصراط مستقيم . . .

ويحتاج الأمر بعد ذلك إلى أن يعرف المسلم كيف ينظم عباداته ، ويرتِّب قرباته ، فإن الله لا يقبل نافلة حتى تؤدَّى الفريضة .

ولو أن رجلا أسهر ليله فى تسبيح الله وتحميده ، ثم أصبح ففتح متجره شاحباً كسولا ، ثم جرَّه الإعياء إلى أن يهمل عرض سلعه ، وتنظيف بضاعته ، وترقية موارده ، وتنمية ثروته ، لكان بذلك الاضطراب عاصياً لله .

فإن تأخره فى هذا المضمار — لانشغاله بنافلة — سيتيح لأعداء الإسلام أن يحتازوا الأموال الوفيرة ، وأن يسيطروا على الأسواق ، وأن يكونوا فى وضع يمكنهم من توجيه أقسى الضربات للإسلام وأهله . وهى ضربات قد تنتهى بإجاعتهم وإضاعتهم .

وعلتها الأولى لوثة نفر من الناس فى فهم الدين والدنيا .

إن إدارة المصانع والمتاجر وسائر الشئون العادية فرائض قد تستغرق من الزمن أكبر مما تستغرقه الصلوات الموقوتة . ولا غرو فإن الحياة لله ليس لها زمن مخصوص والجهاد له قد يكون موصول الآماد فى أكثر من ميدان . . ! !

* * *

هذا وقد كتب الأستاذ « البهى الخولى »

إننا نفيق اليوم من غفلة الماضى لنفتح عيوننا وعقولنا على واقع مروع فاجع ، إذ نرى سوانا قد ساد الكون ؛ وسيطر على الطبيعة ؛ وملك ثروات

الدنيا ؛ وأخذ علينا الجو والبر والبحر . ولم تتسع الأرض لهمته ، فراح يصنع لفضاء السماء سفناً جبارة طائرة يسبح بها فيما بين الكواكب من آماد شاسعات ، ولا مكان لنا فى ذلك المضمار ، إلا مكان المشدوه المستسلم . . مكان المتخلف فى ذهنه وعلمه وتجاربه . . . مكان من فقد أرضه ، وثروته وكرامته .

هل أدى السابقون واجبهم نحونا ؟

بل هل أدوا واجبهم نحو أنفسهم ودينهم ؟

نقولها لا لنضعهم فى الميزان ، رضى الله عنهم ، وغفر لنا ولهم . . . بل لأنها زفرة الألم الحبيس الذى لا يملك سوى التوجع والشكوى .

كم فى القرآن الكريم من نداء إلى الكشف عن آيات الله فى الآفاق !! . . كم دعانا القرآن الكريم إلى ذلك بمثل قوله جل شأنه :

« قل انظروا ماذا فى السموات والأرض[1] » !! . .

فهل استجبنا ؛ ولبينا ؛ ونظرنا ؟ . . هل قرأنا — مثلا — قوله تعالى :

« يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان[2] » .

وهل أدركنا عند تلاوته أن النفود فى أقطار السموات والأرض ممكن ، ولكن بعلم يبسط لنا السلطان على ذلك ؟ . . علم يسخر لنا القوانين ؛ ويضع بين أيدينا ما أعد الله لذلك من سنن ! . .

وهل خطر ببالنا ونحن نقرأ ذلك القول الكريم ما بينه وبين عروج نبينا صلى الله عليه وسلم إلى أقطار السموات العلا من تلازم ورابطة ! .

---

(١) يونس : ١٠١ (٢) الرحمن : ٣٣

ولقد جاء فى بعض حديث للنبى صلى الله عليه وسلم : « وجيء لى بمفاتيح كنوز الأرض فوضعت بين يدى[1] » .

فلم يظنها السلف الطيب رضوان الله عليهم إلا أنها إشارة إلى مفاتيح الغزو التى فتحت لنا فيما بعد كنوز كسرى وقيصر . .

أما أن هذه المفاتيح هى النواميس التى نسخر بها الطبيعة ، وننفذ بها إلى ما أخفى لنا من كنوز خيرات الأرض ، وثرواتها الطائلة . . فلا .

إن الله سبحانه قد أودع المادة سر الروح . . . وطبعها بطابع خالقيته لتكون دليلا ، وشاهداً عليها . . . وهو بذلك يقدس المادة ، ولا يحقرها ، ويفرض على المرء نوع الحضارة التى لا حِوَل عنها .

فإذا أخذ بالمادة وحدها فقد أشقى نفسه ، وهو بذلك شيطان يعيث فى الأرض فساداً . .

وإذا أخذ بالروح ؛ فهيهات أن يصل إليها بدون مادة ، وهو بذلك عنصر تافه فى الأرض ، يورث نفسه الفقر والجهل وهوان الشأن .

وإذا أخذ بما رسم الله له ، فقد أنصف نفسه ، وأدى الذى عليه لله وللحياة . .

تلك هى الحضارة .

---

(١) ... ...

الجهل بالدنيا والسقوط فيها

ولئن كان الإسلام يرى تعمير الأرض عبادة ، وشغل المسلم فيها مثوبة ، واستدرار الأرزاق منها جهاداً ، إنه إلى جانب ذلك يرى انتفاعه الخاص من ثمرات هذا الكدح قربى إلى الله !

وذلك أن الإسلام يرفع أعمال المرء كلها ما دام يعيش لمثل أعلى ، وغاية جليلة ، فإنفاقه على نفسه وأهله يحسب له زكاة متقبلة . وفى هذا يقول رسول الله .

« دينار أنفقته فى سبيل الله ، ودينار أنفقته فى رقبة ، ودينار تصدقت به على مسكين ، ودينار أنفقته على أهلك ، أعظمها أجراً الذى أنفقته على أهلك[1] » .

وهذا الحديث يحتاج إلى تأمل ، فإن المقصود منه بداهة ليس تهوين الإنفاق فى وجوه الخير ، وتحرير الرقاب ، وإطعام المساكين ، فإن إعظام النفقة فى الباقيات الصالحات دلت عليه مئات الأحاديث الأخرى .

وإنما المقصود من هذا الحديث ، توجيه المسلم إلى كفالة الأسرة ، ورعاية الأقربين ، كى يمكن إعداد نشء يصلح للحياة ، نشء يصلح بالدين ، ويصلح لحمل رسالته !

فإن الرجل حين يصرف أطيب كسبه إلى أهله وَوُلْدِهِ ، فهو يفعل ذلك لأمرين .

أولهما ، توفير حاجاتهم المادية من مأكل ومشرب وملبس ، ومن ثم نضمن جيلا بعيداً عن رذائل العوز والتسوُّل والتلصص ، جيلا مشرباً بالكرامة البدنية والنفسية .

---

(١) مسلم .

والأمر الآخر القيام بتكاليف التربية اللازمة لهم ، وإحسان تعليمهم ، وتهيئة الدراسة التي تفتق مواهبهم ، وتنمي عقولهم .

فالإنفاق على الأهل هو في سبيل الله على الحقيقة .

وما يمكن لدين أن يؤدي رسالته بنجاح ، إذا كانت المواد البشرية التي يعمل فيها قد أصيبت بعاهات في طبيعتها ومشاعرها ، كألوف المسلمين الذين تراهم اليوم ، ونحاول وعظهم ورفع مستواهم دون جدوى .. !!

إذا كان الإسلام يريد تزكية الملكات الإنسانية ، وتنسيق إنتاجها ، فما عساه يفعل في بيئات فعل بها الفقر والمرض ما يفعله السل بالصدور ، والعمى بالعيون .

أي أننا نبحث عن هذه الملكات فلا نجدها في الناس !! فقد فقدوها للأسف مع الدنيا التي ضاعت ، والحياة التي ذبلت وفنيت .. !!

أتدري ما نشأ عن ذلك ؟

نشأ عن ذلك أن الرجال الذين صَحَّتْ دنياهم كانوا — مع كفرهم وعنادهم ، وجهلهم بالله — أجرأ على الموت ، وأزهد في الدنيا ، وأبذل للمال — إذا هاجتهم الدواعي لذلك — من أناس ينتمون للإسلام ، ويؤدون بعض عباداته ، فإذا طلبتهم ميادين الشرف قالوا :

« ربَّنا لِمَ كتبت علينا القتال ؟ لولا أخَّرتنا إلى أجلٍ قريب !! [1] » .

ولا يعدل هذا الوَهَنَ المقذوف في قلوب العامة إلا الحرص المغروس في طباع الإقطاعيين . وأرباب الأموال الطائلة ، وهم في دنيا الشرق كثير .

---

(١) النساء : ٧٧ .

أما حيث توفَّرَتْ الصحة النفسية ، مع انتشار الأمن ، واستقرار الإنتاج ، ورسوٌ قواعد الحياة ، فإن الفطرة الإنسانية تعلن عن نقائها فى كثير من السِّيَرِ العظيمة ، والأعمال الحقيقة بالإعجاب ، وإن صحب ذلك شَوْبٌ من الهوى والظلم ، والشرود والضباب . !!

أجل ، إن الإلحاد فى المعايش السكينة ، والمجتمعات التى تقدم أنصبة محترمة من الصحة البدنية والنفسية ، يتفوّقُ حتما على التديُّن الذى يجهل الحياة ، وتَهيِى أسبابه فيها !!

ذلك أنه تدين فاسد ، فشِل فى إرضاء الله وفهم رسالته ، وفشل فى امتلاك الدنيا وفهم طبيعتها ..

والتدين فى الأمم المنحطة ، يُقبل حيث يجب الإدبار ، ويُدبر حيث يجب الإقبال . ويفقد أعظم خصائص الإيمان : من تمسك بالفضائل البنّاءة ، واجتراء على المظالم الواقعة ، واحتقار للحياة المهينة ، وإيثار لما عند الله إذا اقتضى التمسُّك بالدنيا غرماً أو تضحية !

ومن أكذب الكلام على الله ورسوله أن يقال : تأخَّر المسلمون فى الدنيا لأن الإسلام صنع بهم ذلك .

إنهم بهذا التأخر أساءوا إلى الإسلام أكبر مما أساءوا إلى أنفسهم .

إنهم شئ آخر غير الإسلام ، شئ قوامه الجهالة والمعصية ، والتفريط والنكوص .

وفى كل مقارنة تقع بين أحوالنا وبين أفجر أمم الأرض تبين هذه الحقيقة البسيطة : ظلمُنا للإسلام ، وظلمُنا لأنفسنا .

* * *

قرأت مقالا عن العلم والثروة ، قارن فيه الكاتب بين مصر وفرنسا فى هذا المضمار ، وأحب أن أنقل هنا هذه الفقرات . .

فى مصر أغنياء كثيرون ؛ ولكنهم أشد بؤساً من الفقراء المعوزين : لا ينتفعون بثروتهم أحياء ؛ ولا ينتفع الناس بثروتهم بعد موتهم ؛ هم لا يملكون الثروة ؛ وإنما يحملونها على ظهورهم لينقلوها من جيل إلى جيل ؛ يحملون الثروة عن آبائهم لينقلوها إلى أبنائهم ، ليعبروا بها النهر ؛ وكثيراً ما تنوء بهم هذه الثروة فتغرق ويغرقون معها ؛ ولا يظفر أبناؤهم منها إلا بالتعس والبؤس ، وسوء الحال ...

وفى أوروبا أغنياء . ولكنهم أبعد الناس عن الفقر ؛ وأدناهم إلى الغنى الحق ؛ لأنهم يملكون الثروة ، ويحسنون التصرف فيها ؛ لا يشترون بها الطعام والشراب واللباس فحسب ؛ وإنما يشترون بها الحب والعطف والإجلال وحسن الأحدوثة فى الحياة وبعد الموت ؛ ليسوا أنعاماً ينقلون الثروة من جيل إلى جيل ؛ وإنما هم ناس يملكون الثروة ويثمرونها ، فيفيدون ويستفيدون .

ليسوا عبيداً للمادة ، وإنما هم سادتها ، يملكونها ويسخرونها لحياة الإنسان والترفيه عنه ...

أقرأ فى صحيفة « الطان » أن رجلا أهدى إلى جامعة باريس عشرة « ملايين » لإنشاء حى خاص يسكنه الطلبة الذين يدرسون فى هذه الجامعة ؛ بحيث يتاح لهؤلاء الطلبة أن يعيشوا فى منازل صحية ؛ يجدون فيها ما يمكنهم من الدرس النافع بين ضروب الراحة والنعيم ! .

وأقرأ أيضا أن امرأة أوصت بثروتها كلها لجامعة باريس ؛ وثروتها تكاد تبلغ خمسة عشر مليوناً ، وأن هذه المرأة — قبل أن تموت — أهدت إلى كثير

من الجامعات مقادير مختلفة من المـال ؛ وأنها أهدت مرة إلى جامعة باريس مقداراً من المـــال تنفقه فى طبع الرسائل التى يقدمها الطلبة الفقراء لنيل الدكتوراه .

هذا فى فرنسا .

أما فى مصر ، فالثروة كثيرة ضخمة تنوء بالأغنياء ؛ ولسنا نستطيع أن نذكر فقر العلم ، أو حاجته إلى المعونة ؛ لأنا لا نستطيع أن نذكر العلم فى مصر .

فليس لمصر علم . وإنما هى فى علمها كَلٌّ على أوربا وأمريكا . تستعير منهما كل شىء ؛ وهى لا تحسن الاستعارة ؛ ولا تستطيع أن تستعير منهما ما هى فى حاجة إليه ؛ أو جزءاً موفوراً مما هى فى حاجة إليه ؛ لأنها لا تجد من المال ما يمكنها أن تستعير هذا المقدار العلمى الذى هى محتاجة إليه لتعيش.

أما إذا احتاجت إلى السيارات والدراجات والحلى ، وفاخر اللباس ، وبديع الأداة والآنية — فما أكثر المال ؛ وما أيسر البذلَ !

هنا تظهر ثروة الأغنياء ؛ ويظهر سخاؤهم ؛ فتكثر فى مصر هذه الأدوات المختلفة التى يفيد قليلها ؛ ويضر كثيرها .

نعم ؛ نحن أغنياء أجواد إذا احتجنا إلى متاع الدنيا ؛ فأما إذا احتجنا إلى غذاء العقل والقلب ، ففقرنا لا يعدله فقر .

هناك علوم مزدهرة فى أوروبا وأمريكا . ونحن لا نسمع بها فى مصر ؛ إما لأننا لا نحاول أن نسمع بها ، وإما لأننا نضع أصابعنا فى آذاننا ، حتى لا نسمع بها ؛ فنحتاج إلى أن ننفق المال فى جلبها إلى بلادنا .

ولكنى واثق بأن لوناً من ألوان البدع فى الحلى أو الملابس أو السيارات

أو الأزرار — لا يكاد يظهر فى باريس أو نيويورك حتى نسمع به ! ونرغب فيه ، ونتهالك عليه .

والنتيجة أننا فى حياتنا الظاهرة كأرقى الشعوب مدنية وحضارة ؛ وربما كنا أنخر لباسا وزينة من أغنياء باريس ونيويورك ولندره .

فإذا رآنا الأوروبى خيل إليه أننا مثله ؛ نلبس كما يلبس ، بل خيراً مما يلبس ، ونزدان كما نزدان ، بل خيراً مما يزدان ؛ ونتصرف فى فنون الحياة المادية كما يتصرف ، بل خيراً مما يتصرف — يحسبنا مثله إذا رآنا ، ولكنه لا يكاد يمتحننا ويخبرنا ، حتى يشعر بأن وراء هذه الزينة ، وهذه المظاهر ، الفناء ، أو شيئاً يشبه الفناء .

وماذا نزيد من قوم يجلبون من أوروبا كل ما ييسر عليهم الحياة المادية ، ويمكنهم من الاستمتاع بلذاتها المادية ؛ فإذا ذكر العلم والأدب والفن ؛ هزوا الرءوس والأكتاف ، بل هم يفعلون شراً من هذا .

فالعلم فى بلادهم ، ولكنهم يعمون أو يتعامون عنه ؛ لا يرونه ولا يشعرون به ويحبه الأوروبيون والأمريكيون على بُعد الشُّقه فيسعون إليه ، ويحملونه إلى بلادهم ؛ حتى إذا نبُه منا نابه ، وأحس كما يحس الناس ؛ واشتاق إلى ما يشتاق إليه الناس ، وأراد أن يكون مصرياً ، يعرف مصر كما يعرف الفرنسى فرنسا — اضطر إلى أن يبحث عن مصر فى باريس ، أو لندرة ، أو برلين .

يا للخزى ! بل قد يحتاج إلى أن يبحث عن مصر فى أثينا !!

* * *

هذه هى الدنيا التى يذمها الإسلام ، دنيا الغفلة والبلادة ، والذهول عن الواجبات ، والجرى وراء الشهوات !

الدنيا التى تشغل عن الله ، وتلهى عن الآخرة !

الدنيا التى يركن إليها الجبناء ، فلا يقولون كلمة حق ، خوفاً على ضياعها ، أو نقصانها !

الدنيا التى يتعلق بها البخلاء ، فلا ينهضون إلى بذل معروف ، استكثاراً من متاعها ، والتصاقا بدناياها !

الدنيا التى يتعشقها طلاب الظهور ، فيربطون سلوكهم بما يلقون فيها من تكريم ، ولو كان على حساب الحق !

الدنيا التى ينحصر القاصرون فى مآربها ومطالبها ، كما ينحصر الجنين فى ظلمات الرحم ، أو ينحصر الفرخ فى قشر البيضة !

الدنيا التى شاء الله أن تكون مِلْكاً لنا ، فجاء صغار الهمم وأبَوْا إلا أن يكونوا ملكا لها !

هذه الدنيا التى يقول الله فى أصحابها :

« من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوَفِّ إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يُبْخسون . أولئك الذين ليس لهم فى الآخرةِ إلا النارُ وحَبِط ما صَنَعُوا فيها وباطلٌ ما كانوا يعملون[1] »

والغريب أن المسلمين فى الأعصار الأخيرة جهلوا الدنيا بمعناها الصحيح الأول وأقبلوا عليها بالمعنى الثانى ، المعنى الذى حقره دينهم وحذره أولوا النهى من كل جنس : فكانت النتيجة المحتومة : أن سقطت بلادهم بقَضِّها وقضيضها فى يد من لا يخاف الله ولا يرحمهم .

---

(١) هود : ١٥ ، ١٦

ونحن فى نصحنا للمسلمين نرغبهم فى طلب الدنيا الصحيحة ، ونزهدهم من طلب الدنيا السقيمة ، لأن مرض المسلمين مزدوج : يحتاج إلى بصر دقيق بمواطن العلة ، ووسائل حسمها .

وعندما تآمرت الصهيونية والصليبية على احتلال غزة وسيناء وبور سعيد وجهنا الجهود لفطام المسلمين عن الدنيا بمعناها الثانى ، وهى الدنيا التى يكرهها الإسلام ويزدرى طلابها .

* * *

وإليك مثلا من توجيهاتنا للمسلمين فى أعقاب وقف القتال :

المعركة بيننا وبين عدونا لم تضع أوزارها ، فإن مداها بعيد ، وأدوارها طويلة ، ونحن لا نخرج من مرحلة إلا لندخل فى أخرى قد تكون أجدر بالحذر ، وأحرى بالبذل .

والشعور بهذه الحقيقة يكلفنا أن نكون على استمداد موصول ، وأهبة يقظة ، ويتقاضانا أن ننقب فى أحوالنا كلها ، فكل ما قارب حياة الرفاهية والرخاوة نَبَذْناه ، وكل ما واءم حياة الكفاح والرجولة التمسناه .

ولن نزال كذلك حتى نغسل بلادنا من أدران الاستعمار ، ونثأر لما لحق ديارنا من عدوان . . .

إن بعض الناس حريص على نحو من المعيشة ؛ تخالطه اللذة ؛ وتحفُّه المتع ؛ وإذا كانت الحروب تكلف الأمم أن تنزل عن الضرورات الماسة فى إبان الشدائد ؛ بل تكلفها أن تضحى بالنفس والمال .

فماذا يكون موقف أولئك المهازيل الحراص على الكماليات والمكيفات ؛

ونحن نواجه خصوماً ممنتين ؛ وأعداء متربصين ، يريدون سلب حياتنا وشرفنا .

لا شك أن هؤلاء يجب أن يعاملوا بصرامة وقسوة ؛ فمن النذالة أن يهتم البعض بشهواته الخاصة ؛ ويضطرب لفقدانها ؛ فى حين تكلف الجماهير أن تتعرض للحتوف ، فى سبيل مثلها العليا . . .

إن الأعباء المفروضة علينا فى هذا العصر — نحن العرب والمسلمين — تفرض أن نذهل عن شتى المغريات ؛ وصنوف المرفهات ؛ فلسنا فى صراع هازل مع قوم تافهين .

إننا فى صراع مرّ مع زبانية الأرض ؛ ودهاقين اللصوصية العالمية .

إننا فى صراع حاسم يقرر الحياة أو الممات . ومن ثم يجب أن نراجع أساليب الحياة التى نحياها ؛ لنحذف منها كل ما يضعف بنا عن المضىّ فى هذه الحرب الضروس ...

أيها المسلمون :

هذه الأيام لاتتحمل تقاليد السرف السفيه فى المآكل والمشارب والملابس . لقد كانت بعض أمم الغرب تتنازل عن الزبد — وهو فى الجو البارد من الضرورات اللازمة — لتوفر من ثمنه المدافع التى تحصن بهـا نفسها . وهذا تصرف معقول . بل هذا هو طريق الحياة الأبية ، ومسلك الشعوب الحصيفة الزكية .

أما الأمم التى تجزع لإخفاء نوع من الخضر ، أو الفاكهة أو الطيور فهى أمم تحكم على نفسها بالبوار .

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم صاحب طاقة كبيرة على الحياة

مهما تباينت ظروفها ، ولقد علم صحبه أن الاستسلام العام لشهوات البطن سقوط بالهمة ، وخور فى العزيمة ، وضعف فى اليقين ، واسترخاء مع الشيطان .

وقال يصف المجتمعات المعتلة : « إن القوم لما شبعت بطونهم ، سمنت أبدانهم ، فضعفت قلوبهم وجمحت شهواتهم[1] » .

وقال : « إنما أخشى عليكم شهوات الغى فى بطونكم وفروجكم ومضلات الهوى[2] » .

وقال : « إن شرار أمتى الذين غذوا بالنعيم ونبتت عليه أجسامهم[3] » .

* * *

وهذا التشديد إنما يتناول الخوارين المعجزة ، الذين يتعالى صياحهم بطلب أمور كثيرة كلما تعرضت الأمة لضائقة أو فرض الجهاد أن ينزلوا عن كثير مما ألفته أيام الاسترواح والنعومة .

إننا نطالب العرب فى هذا الوادى كله وفى طول بلادهم وعرضها ، أن ينسوا تقاليد الولائم وسعة الموائد ، وضروب التشمع من الحلال ، وليجعلوا من هذا الاقتصاد باباً لإطعام الجائع ، وإعطاء المحروم ، ومواساة المنكوب ، وليجعلوا منه كذلك باباً إلى تربية النفس على احتمال المشقات ، فى عصر نواجه فيه حروباً لا يعرف آخرها ، ولا يدرى متى يرعوى خصومنا فيها .

أيها المسلمون :

وهذه الأيام توجب علينا أن نعيد النظر فى ملابسنا ، وما ألفه رجالنا ونساؤنا منها .

---

(١) البخارى .　　(٢) المنذرى .　　(٣) البزار .

إن المرأة التى لا تزال تفكر فى ارتداء حرير نسجه أعداؤنا ، والرجل الذى لا يزال يفكر فى اقتناء صوف صنعه القتلة ، قتلة أبنائنا وإخواننا ، هذا الرجل وهذه المرأة لن يكونا أبداً أساس أمة عريقة ، ولا نواة مستقبل كريم .

يجب أن نحرم على جلودنا أن يمسها هذا الوارد الأجنبى من بلاد المعتدين ، ولن نكون منطقيين مع أنفسنا إذا سمحنا لملابسهم أن تحتل جسومنا ، ونحن نريد قذفهم بعيداً عن حدودنا ، حتى لا يحتلوا وطننا .

ثم ما هذه الأناقة ، التى يحاول ألوف النساء والرجال أن يظهروا فيها ، أهذه أيام تزين وتبرج ؟ هذه أيام خشونة ومصاولات وجولات .

إن الإحساس الصادق بخطورة المعارك التى نخوضها يتنافى مع هذا الهزل السمج .

وإن الإسلام ليزجر الرجال والنساء عن هذه الميوعة فى عهود السلام فكيف بأيام القتال .

لقد كان رسول الله يرقع ثوبه ويخصف نعله .

وعن شداد بن الهادى من الصحابة — « رأيت عثمان بن عفان يخطب الجمعة وعليه إزار عدنى غليظ ثمنه أربعة دراهم أو خمسة[١] » .

وروى عن رسول الله : « من لبس ثوب شهرة فى الدنيا ، ألبسه الله ثوب مذلة يوم القيامة ، ثم ألهب فيه نارا[٢] » .

أيها المسلمون :

إن الاستعمار لكى يفسد الأمم التى خضعت له ، يغريها بفنون الكماليات وألوان المظاهر الجوفاء ، ليتوسل بذلك إلى نتيجتين هائلتين :

---

(١) الطبرانى . (٢) ابن ماجه .

أولاها : الاستيلاء على مال الأمة ، وزلزلة اقتصادها . فهو يشترى منها السلع والمعادن والبترول بثمن يدفعه باليمين ، ويسترده باليسار ، يسترده مقابل هذه الـكماليات التافهة التي يخدعنا بها ، وتلك خسارة مادية فادحة .

أما النتيجة الأخرى . فهى إضعاف معنويات الشعوب ، وتعليق هممها بالدنايا : من مآكل وملابس ومباهج .

وويل للشعوب التي تتنافس في هذه المجالات ، وتضيع مثلها ، وقضاياها الـكبرى ، في زحام من المتع والشهوات .

أيها المسلمون :

إن من نعم الله الـكبرى أن وقعت الحرب بيننا وبين الاستعمار ، فتلك فرصة يجب انتهازها للخلاص من عاره ، والفـكاك من آصـاره ، وتصفية ما يؤود نهضتنا ، ويعوق ثورتنا .

فلنترك تقاليد الراحة والرخاوة ، ولنستعد لجهاد تسترخص فيه المهج ، وتبتذل فيه النفائس .

قال صلى الله عليه وسلم يصف عشاق الليونة والرخاوة والمظاهر الجوفاء :

« تعِس عبدُ الدينار . تعس عبدُ الدرهم ، تعس عبدُ القطيفة . تعس عبدُ الخميصة ، تعس وانتـكس . وطوبى لعبد مجاهد في سبيل ربه ، آخذ بعنان فرسه . إن كان في الساقة ، فهو في الساقة ؛ وإن كان في المقدمة ، فهو في المقدمة [1] » .

---

(١) البخاري .

أيها المسلمون :

إذا قويت علاقة الناس بالله ، ضبطوا شئونهم ، وحكموا أهواءهم ، وأقاموا فرائضهم . فاتصل ما بينهم وبين السماء ، ووضع لهم القبول فى الأرض .

أما إذا وهت العلاقة بالله ، وقل ذكره ، وخفت وازعه ، فإن الأهواء تفور ، والرغبات تجور ، والعبادات تهمل ، والواجبات تخان .

وقد وصف القرآن الأجيال المنحلة بقوله « فخلف من بعدهم خلفٌ أضاعوا الصلاةَ واتبعوا الشهواتِ فسوف يلقوْن غيًّا »[1].

وقد شاء القدر الأعلى أن يُمحص المسلمون فى هذه الآونة تمحيصاً ؟ نرجو معه حسن العقبى ، فرب ضارة نافعة ، وربما صحت الأجسام بالعلل وربَت الأمم على الآلام والمتاعب .

وإذا كنا بحاجة إلى لون من الصرامة يحيط بمعايشنا وتقاليدنا فنحن كذلك بحاجة أمس إلى الاستمداد من الله ، والاصطلاح عليه ، والاستضاءة بهديه جلّ شأنه . حتى نحظى برعايته ، ونظفر بنصرته .

أيها المسلمون . إنه ليس أعظم ولا أكرم من عمل القلوب المؤمنة فى مواجهة العواصف العاتية ، إنها من الأمل فى الله ، والتعويل عليه ، تأوى إلى ركن شديد ، ومن الثقة فى لقائه وجزائه ، تركب الأهوال دون وجل ، وتنهض بالواجبات دون زلل .

لذلك يجب أن نطهر نفوسنا من الرذائل والمعاصى ، نطهر صفوفنا من الضعاف والتافهين . قال عز وجل :

« ولا تُطعْ من أغفلنا قلبَه عن ذكرنا واتَّبع هواهُ وكان أمره فرطا[2] »

---

(١) مريم : ٥٩ . (٢) الكهف : ٢٨

الانفصال التاريخي بين العلم والحكم

لا وجه للمقارنة أبدا بين رسالة الإسلام فى العالم ، وبين المنزلة السحيقة التى وصل إليها المسلمون فى هذا العالم . ولست أعرف خيانة صنعها الناس أسوأ من الخيانة التى اجترحها المسلمون مع دينهم مذ تنكروا له ، واشتغلوا بأهوائهم عن هداياته ، وبمآربهم الشخصية عن أهدافه العليا ، وغاياته السامية .

يقول الكتاب العزيز فى وصف أمته :

« كنتم خيرَ أمَّةٍ أُخرِجَتْ للناسِ تأمرون بالمعروفِ ، وَتنهوْنَ عن المنكر ، وتؤمنون بالله[١] ... »

وهذه الآية تشير إلى أن الأمة الإسلامية تفضل غيرها بوصف أساسى فيها ، عنوانه اللامع ، أنها أنفع الأمم للناس فأقطار الأرض كلها ينبغى أن تنظر إلى هذه الأمة التى أخرجتها العناية « لها » فتلمح فيها خيرها الذى تنشده .

إن خير هذه الأمة يتعدى حدودها إلى آفاق الدنيا جميعاً ، ومن ثم يجب أن يكون ذلك الطابعُ الخيِّر أبرز ما يلفت أنظار العالم إلى الأمة التى تدين بالإسلام .

أجل ، ذلك الطابع الخيِّر وحده هو الجوهر والمظهر للأمة الإسلامية ، باسمه تتحرك ، وباسمه تجتذب العوام والخواص .

وقد أكد القرآن هذه الحقيقة فى آية أخرى « وقيل للذين اتقَوا ماذا أنزَلَ ربُّكم قالوا خيراً ... للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنةٌ ولدارُ الآخرة خيرٌ[٢] .. »

---

(١) آل عمران : ١١٠ (٢) النحل : ٣٠

الخير الجميل الوجه الجميل السر ، الذى تهفو إليه الجماهير ، ويستبشر به أولوا الألباب ، هو الخاصة الأولى والأخيرة لأمة الإسلام .

إنه ليس كبرياء جنس دَعِىّ ، ولا استعلاء دم خسيس أو زكىّ .

إنه الخير العام الذى يعلو به قدر الإنسان وتتقلص به وساوس الشيطان.

فإذا ماجت الدنيا بعضها فى بعض ، واختلط الحابل بالنابل ، وجب أن تبقى الأمة التى تمثل الإسلام راسخة فى مكانها ؛ تنصف الناس من أنفسهم ؛ وتنصفهم كذلك من نفسها . تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله .

والأمة التى تمثل رسالة ما تقيم نظامها وحياتها على هدى تلك الرسالة .

فالرسالات فى بطون الكتب أدب عال ، وعلى ألسنة الخطباء كلمات معسولة ، حتى إذا قام عليها مجتمع ، وأسست باسمها دولة . عرفت كلُّ رسالة طريقها إلى الحياة . . . .

وقد سار الإسلام فى هذه السبيل ، فتحول من دعوة إلى دولة ، فى عهد رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأخذت هذه الدولة تنشىء العلاقات بينها وبين الناس على شماش من الغاية العظيمة التى أُخْرِجت من أجلها .

ألا وهى تحقيق الخير العام ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر . . . .

* * *

وظيفة الحكم معروفة إذن فى الإسلام ، والعلماء حين يشرحونها يذكرون أنها إنفاذ وصايا الله ورسوله فى المجالات الآتية .

(١) التشريع والقضاء .

(٢) التعليم والتربية .

(٣) الدفاع العسكرى عن الأمة ورسالتها .

(٤) إقامة العلاقات الخارجية وفق ما أمرت به السماء ، أى جعل قوى الأمة فى خدمة العدالة والمصالح التى لا يقوم عليها خلاف بين الناس ...

لا إكراه على دين ؛ ولكن لا مهادنة لبغى أو عدوان ، ولو وقع من كافر على كافر ؛ فحق الله أن ينجد المظلوم حين كان وأيّا كان ...

وثمّ مجال آخر ، وهو الإشراف على الشئون الدنيوية التى لا يمكن حصرها ، والعمل على توجيهها لتحقيق الغايات الإسلامية المرتبطة بها وهو توجيه لا يلزم قالبا معينا ، إذ العصور متغايرة والحاجات متفاوتة ، والوسائل لا نظر إليها فى هذا المجال .

إنما المقصود ضمان المصلحة ، واستخدام النشاط المدنى المرن لبلوغها فحسب ..

إن رسالة الإسلام لا تفرق بتة فى شمولها بين شئون المعاش والمعاد .

وقد رأيت فى الفصل السابق أن لا قيام لدين يفقد الدنيا .

ولسعة المجال الدنيوى الذى يعمل فيه الحكم ، واستغراقه لأكبر نشاطه اعتبر الحكم من شئون الحياة . فهو ليس عبادة مرسومة الشكل ، معروفة الوقت ، محدودة الأداة .

بل هو عبادةٌ جوهرها ضبط شئون الدنيا ، وامتلاك أزمتها ، لإمكان تسييرها وفق هدايات الله ....

وقد ترك الإسلام لأتباعه أن يختاروا حاكمهم بالطريقة التى يحبون ،

وبالشروط التى يضعون ، وكل ما أوصى به أن يكون الحكم وليد بيعة محترمة ، أى نابعا من رغبة الأمة ، ومتلاقيا مع مشيئتها .

فلا قسر ولا تزوير ولا إرهاب .

وأن يقوم الحكم على الشورى فلا يسمح بتسلط جبار ؛ ولا افتيات مستبد .

وأن يؤدى وظيفته العتيدة فى الداخل والخارج ، على نحو يحقق المثل العليا لأمة كتابها القرآن الكريم ؛ وسنتها التراث الروحى والفكرى لمحمد صلى الله عليه وسلم ؛ وصحابته الراشدين ..

* * *

وهنا نسأل : لقد سلخ الإسلام من الحياة أربعة عشر قرناً ، فهل كان نظام الحكم فى بلاده منطبقاً مع تعاليمه ؟

وهل استطاع أن يترك فى أذهان البشر فكرة جيدة عن رسالة الخير التى يحملها ؟ .

أو هل استطاع إذاقة الناس طعم الرحمة العامة المقترنة ببعثة نبيه ، والتى قال الله فى بيانها :

« وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين[1] » ؟ .

ونحن لن نحيد عن الحق فى الإجابة على هذا السؤال .

إن القول بأن الحكم فى بلاد الإسلام كان إسلامياً طول هذه القرون الأربعة عشر ، وأنه كان صورة أمينة لتعاليم ديننا ، كلام لا وزن له ، بل هو عار عن الصحة ...

---

(١) الأنبياء : ١٠٧ .

فقد تطرق الفساد إلى الحكم تطرقا أزرى به فى كثير من الأزمنة ، وكثير من الشعوب . على أن هذا الفساد المنكور لم يظهر دفعة واحدة ، ولم يَبِنْ ضرره إلا بعد أطوار طويلة .

ومن إنصاف الواقع أن نقول : إنه بدأ انحرافا فى طريقة اختيار الحاكم ، يمس الأسلوب النزيه الذى رسمه الإسلام .

على أن هذا الانحراف لم يعرض لوظيفة الحكم نفسها فقد بقيت أقرب إلى السلامة ، وإذا كانت لم تبلغ الشأو الذى ينشده الدين ، فهى لم تهبط إلى الحد الذى يسخطه الدين .

والبعد عن الجادّة فى اختيار الحاكم ، وفى وظيفة الحكم ، يشبه زاوية حادة ، يقترب ضلعاها عند الرأس ، وتتسع مسافة الخلف بينهما كلما امتدت الخطوط ، وبعدت الشقة ...

على أن هذا الشرود لم يطّرد دون حركة تعود به بين الحين والحين إلى الحق ، أو ما يقاربه.

ففى تجاريب الناس قد يوجد ملك عادل ، وقد يصل إلى الحكم بطريقةٍ ما مَنْ يستغلُّ الحكم لمرضاة الله ورسوله . وإن كان الإسلام لا يعرف نظام الأسر المالكة ، ولا يُوَصِّل إلى الحكم بطرائق مبهمة ...

وهذه الفلتات لم تقف للأسف استمرار العوج فى سياسة الحكم ، لقد استمر ، واستشرى فيه الحيف حتى بلغ فى القرون الأخيرة الحضيض الأسفل .

كان الحكم أمانة يتهيبها أصحاب الطاقات الكبيرة ، فأصبح شهوة يتطلبها أصحاب الغرائز العارمة .

وكان فهماً للدين ، وفهماً للدنيا ، ليمكن تطبيق أحكامه على أحوالها ، فأصبح يطمع فيه ، ويستمكن منه ، من لا يفقه من دينه ودنياه شيئاً .

وكان تسخيراً للدنيا فى خدمة الدين ، فأصبح تسخيراً للدين والدنيا جميعاً فى خدمة أشخاص تافهين ، أو أسَر زنيمة كذوب !

وبعد أن كان الحكمُ الإسلامى فى القرن السادس للميلاد حركة تقدمية جريئة فى إعلاء كلمة الشعوب ، وإعطائها الحق فى اختيار الحاكم على أساس الاختيار الحر ، وهو الأمر الذى وصلت إليه الإنسانية بعد عناء أى عناء ، أصبح الحكم فى الإسلام بعد أربعة عشر قرناً صورة بدائية هزيلة ، لم يعرف العالم لها مثيلا إلا فى أطواره القَبَلِيَّة الأولى .

وذلك تدهور غريب ، أو هو ارتكاس إلى الجاهلية التى جاء الإسلام لنسخ ظلامها ؛ ومحو مظالمها .

* * *

من قرون طويلة ، والأركان التى يقوم بها الحكم الصالح ، وهى البيعة العامة ، والشورى الصحيحة ، والكفاية المجردة ، هذه الأركان منهدمة فى بلادنا نحن المسلمين ، والمجال متروك للمطامع الهوج ، تتصرف بطبيعتها المنتنة ، صانعة بالجماهير ما تشاء !

ومع أن هذا الحكم لم يَرْعَ فى قيامه ، ولا فى وظيفته تعاليم الإسلام ، فقد بقى يحمل شارته ويرفع رايته .

وتلك أبداً آفة التديُّن الفاسد ، يستر الهوى فى غلاف من الهدى ! ، ويستمسك بالقشور التى تحفظ نسبه الدينى ، وإن كانت مسالكه لا تعرف الدين ، ولا تعترف به !

ومع فساد الحكم على هذا النحو فإن الإسلام بقى قويا ناميا ، وذلك للأصالة الشائعة فى سائر تعاليمه ، كالقصر المشيد إثرَ غارة بالقذائف والرجوم

قد تطيح أبراجُه ، ويتكسر زجاجُه ، ولكنه مع كثرة غرفاته ، وسعة ردهاته ، وعُلوّ طوابقه يبقى صالحاً للسكنى ! ، بل يبقى للساكنين فيه أفضل من كوخ مَبْـنِيٍّ باللّبِن والقَشّ .

وذلك سِرُّ خلود الإسلام رغم انهيار حكمه ، وسر انكماش غيره من الأديان فى عالم الحقائق والتوجيه ، برغم ما واتاها من أسباب الغلب ..

ولنذكر هنا أن العلل التى عرضت للحكم على عجل ، لم تعرض للعلم الإسلامىّ إلا متأخرة .

فإن العصبيات القَبَلِيَّة والجنسية التى وسَّخَتْ سياسة الحكم عندنا ، برىءٌ منها العلم دهراً طويلا !

وعند ما نذكر أسماء الأئمة الذين برزوا فى الفقه والتفسير والسنة ، وفنون اللغة والأدب ، والطب والحكمة ، نجد أن النزعات العنصرية ، ماتت فى هذا الميدان الطيب ، وأن أصحاب التفوُّق العقلى والإنسانى من كل بلد ، ومن أىّ لون ، تكافأت أمامهم الفرص لخدمة الإسلام ، والاشتغال بثقافته ، فسادوا ورسخت مكانتهم ، وطار صيتهم ، أبعد مما يبلغه الملوك المتوجون !

***

وقد امتد نشاط العلماء المسلمين حيث انكمش نشاط الساسة الحاكمين ، وأخذ العلم الحر يخدم الرسالة الإسلامية ، ويملأُ الفراغ الرهيب الذى حدث فى بلاد الإسلام ، منذ ظهور الأسر المالكة فى ربوعها ...

وظهور هذه الأسر بدعة انتقلت إلينا من المجوسية فى فارس ، ومن النصرانية فى الرومان . وقد انصرف أغلب العلماء عن الخصومة الإيجابية لهذا الطراز الكافر من الحكم ، لأسباب ليس هنا مكان ذكرها ، وكرّسوا

جهودهم المباركة لتفقيه الجماهير فى كتاب ربها ، وسنة نبيها ، مكتفين بالمقاطعة السلبية لهذه البيوت المالكة .

تلك البيوت التى نقلت الكسروية والهرقلية ، أى الوثنية السياسية ، إلى دين الله الواحد القهار .. !

والواقع أن حياة الإسلام داخل رقعته ، ثم امتداده بعد ما جمدت دائرة الفتح تعود أول ما تعود إلى الجهاد العلمى الصامت المحتسب ، الذى رفع لواءه مئات العلماء .

فقد كان المفروض أن الدولة هى التى تشرف على سياسة التربية والتعليم ، والقضاء والتشريع ، وذلك يتم على خير وجه عند ما تكون الدولة وليدة الدعوة ، وعندما تكون الحكومة ثمرة الرسالة .

أما عند ما يتغلب أشخاص لظروف مساعدة على مناصب الحكم ، فإن فاقد الشئ لا يعطيه ، ومن المستحيل أن يكون كلُّ ملوك بنى أمية والعبّاس وعثمان أمثلة راشدة للإسلام الحنيف ، فقد ورثوا الحكم بعصبية الدم والبطش ، فكيف يكونون حكاماً مرشدين ؟

من هنا حلّتْ دولة العلم مكان دولة السيف فى بلاد الإسلام ..

ومن هنا بقيت شُعَبُ الإيمان مترابطة متماسكة ، بعد ما تقطع الحزام الذى يمسكها ، وهو الحكم .

ومن هنا انساح الرجال المجهولون إلى أواسط أفريقيا ، وشرق آسيا وجنوبها ، ينشرون الإسلام فى بقاع لم يصل إليها جيش ، ولم يفكر فى الاتصال بها الرجال الحاكمون .

ونحن نحنى الرأس إجلالا للفقهاء الأربعة : أبى حنيفة ومالك والشافعى

وابن حنبل ، وللأئمة الثلاثة : ابن حزم وابن القيم وابن تيمية ، وللمصلحين الكبار : محمد بن عبد الوهاب ، وابن إدريس السنوسى ، وجمال الدين ، ومحمد عبده ، وعبد الرحمن الكواكبى ، وحسن البنا .

كما نحنى الرأس لأصحاب الكتب الستة : البخارى ومسلم وأبى داود والنسائى والترمذى وابن ماجه ، ولأعلام المفسرين ، وأساطين البلاغة واللغة ممن يُعجِزُنا حصر أسمائهم خلال تاريخنا الطويل .

فإن هؤلاء العلماء هم الذين أبقوا سرادق الإسلام منصوبا ، وشأنه مرموقا على حين كان الساسة الحاكمون يخبطون فى دنيـــا الغرور والهوى ، ولا يهتدون سبيلا ...

على أن قيام الجفوة بين العلم والحكم ، أضَرَّ بسير العلم على مر الزمن .

فما أيسر أن تنمو الطفيليات فى أرض ليس بها مِقصٌ يجتثها كلما بدت .

لقد كان علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه يتفقد المساجد ليستمع إلى ما يلقى بها من دروس ، وكثيراً ما كان يطارد القُصّاص والوعاظ الذين يسيئون عرض الدين ، وتعليم الجماهير .

وقد لاحظت — وأنا أعلّم العامة — ميل الجماهير إلى التسلى بالعلم ، واستماع شتى القصص المثيرة .

ويوجد من محترفى التعليم الدينى مَنْ يحاولون إشباع رغبات السوقة فى هذا المجال .

ولما كان الإسلام لا يتحمل هذا التّمطيط السمج ، فقد عكف لفيف من أدعياء العلم على استيراد الروايات الإسرائيلية والنصرانية ، وعلى تلفيق ما يشبهها من الأقاصيص والأساطير ، فشاعت هذه الروايات بين العامة كما

تشيع الروايات الأجنبية الآن من غرامية وبوليسية بين صغار القراء ! ! !

ولو أن هناك إدارة حكومية ترقب الكتب الدينية الشائعة لمحت ألوف الصفحات المشحونة بالخرافات ، والتى سبق أن بذل الأئمة الكبار والعلماء الراسخون جهودهم دون جدوى لتحذير الناس منها ...

وماذا يعنى الحكام المغتالين من تصحيح الروايات أو تخطئتها ؟ وماذا يعنيهم من تنقية منابع الثقافة أو تلويثها ؟

إن استدامة الحكم هو ما يبتغون ، وعليه وحده يحرصون ، ليبقى لهم ، ثم ليبقى بَعْدُ فى أعقابهم . لذلك تُركت الطفيليات العلمية تنمو فينشلّ فى جوارها العلم النافع السليم ! !

وهناك أمرٌ أومأنا إليه آنفا ، وهو أن صلة العلماء العظام بالملوك الحكام لم تكن صلة مودة ظاهرة ولا باطنة .

لخروج الحكم عن سنن الإسلام أولا .

ولتفاهة هؤلاء الحكام وجهالتهم ثانياً .

والوقوف فى صف المعارضة ليس فى مقدور كل أحد ، إنه بحاجة إلى خصائص لم يرزقها الله إلا للقلة من عباده ! !

* * *

وقد أوى إلى البيئة العلمية خلق كثير كان تجمُّعهم وتراصُّهم فيها ملحوظا ومحذورا . وكان كبار العلماء يهشون للجماهير الوافدة من الطلاب والعبّاد ، ويحملون من مجامعهم تصويبا مستمرا لسير الإسلام فى الأرض ، واشتباكه مع مختلف الأحوال والأعمال .

وتكتّل الجماهير على هذا النحو ، كوّن رأياً عاماً يعارض بعناد سياسة

البطش والسرف التي يتخذها الملوك عادة . هذه المعارضة الواعية — وإن لم ينظمها حزب معين — كفكفت من غلواء الاستبداد السياسى ، وجعلت للعلماء مكانا فى النقد والنصح ، لا يجوز الإغضاء عنه .

وربما يحدث أن يلتقى الأئمة والسلاطين فى محاورات تكشف عن طبيعة الجانبين ، ومدى ما بينهما ... ولننقل هنا طائفة[1] يسيرة من أخبار القوم ، ليعرف الناس لونا من النقد النزيه ، والنصح العالى ، جرى على ألسنة العلماء ، وكان له أعمق الأثر فى إبقاء الحق مهيبا ، والمثل العليا براقة منشودة .

* * *

رأى « بنان » الحمال أن وزير خمارويه — وكان نصرانياً — يستكبر على المسلمين ، ويفتات على حقوقهم ، فقام إليه الرجل المسلم وأنزله عن دابته ، وقال له « لا تركب الخيل ويلزمك ما هو مأخوذ عليكم فى ملتكم » .

والواقع أن أمراء المسلمين — بدافع من سماحة الإسلام ، وبرّه بأهل الكتاب — كانوا يُوَلُّونهم المناصب الكبيرة ، بيد أن هؤلاء كانوا يردُّون الجميل بطراً وغدرا ، مما أحنق علماء المسلمين ، ودفعهم إلى استنكار هذه السياسة .

والقى رجل سليمان بن عبد الملك فقال له :

« سأطلق لسانى بما خرست عنه الألسن : تأدية لحق الله تعالى ؛ إنه قد اكتنفك رجال أساءوا الاختيار لأنفسهم ؛ وابتاعوا دنياك بدينهم ، ورضاك بسخط ربهم ، وخافوك فى الله ، ولم يخافوا الله فيك ؛ فهم حرب للآخرة ؛ وسلم للدنيا ؛ فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه .

---

(١) هذه النقول أثبتها الدكتور زكى مبارك فى كتابه التصوف الإسلامى ونسبها إلى الصوفية ، وليست لهم .

فإنهم لم يألوا الأمانة تضييعاً ؛ والأمة كسفا وخسفا ؛ وأنت مسئول عما اجترموا ، وليسوا مسئولين عما اجترمت ، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك ؛ فإن أعظم الناس عند الله غبنا من باع آخرته بدنيا غيره » .

وكان العلماء يرون أنفسهم مسئولين عن تذكير الملوك ؛ يدل على ذلك قول شعيب بن حرب :

« بينا أنا فى طريق مكة إذ رأيت هارون الرشيد فقلت لنفسى : قدوجب عليك الأمر والنهى ؛ فقالت لى : لا تفعل ، فإن هذا رجل جبار ؛ ومتى أمرته ضرب عنقك ؛ فقلت لنفسى : لابد من ذلك ؛ فلما دنا منى صحت : يا هارون ! قد أتعبت الأمة ، وأتعبت البهائم ! فقال : خذوه ! فأدخلت وهو على كرسى وبيده عمود يلعب به ، فقال : ممن الرجل ؟ قلت : من أفنـاء الناس ؛ فقال : ممن ؟ ثـكلتك أمك ، قلت : من الأنباء ؛ قال : فما حملك على أن تدعونى باسمى ؟ ؟

قال شعيب : فورد على قلبى كلمة ما خطرت لى قط على بال فقلت له : أنا أدعو الله باسمه فأقول : يا ألله ، يا رحمن ، ولا أدعوك باسمك ؟ وما تنكر من دعائى باسمك ؟ وقد رأيت الله سمّى فى كتابه أحب الخلق إليه محمداً صلى الله عليه وسلم ؛ وكنى أبغض الخلق إليه أبا لهب فقال : « تبت يدا أبى لهب [١] » ، فقال هارون أخرجوه فأخرجونى » . .

* * *

ومن شواهد ذلك ما صنع الفضيل بن عياض مع الرشيد :

فقد ذهب الرشيد لزيارته ليلا مع الفضل بن الربيع ، فلما وصلا إلى بابه

---

(١) اللهب : ١

سمعاه يقرأ (أم حسِب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلَهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون[١] » . فقال الرشيد للفضل ! إن انتفعنا بشيء فبهذا — فناداه الفضل ! أجب أمير المؤمنين : فقال وما يعمل عندى أمير المؤمنين ؟ قال الفضل فقلت : سبحان الله ! أماله عليك طاعة ؟ فنزل ففتح الباب ، ثم ارتقى إلى الغرفة ، فأطفأ السراج ، ثم التجأ إلى زاوية من زوايا البيت ، فدخلنا ، فجعلنا نجول عليه بأيدينا ؛ فسبقت كف أمير المؤمنين قبلى إليه . فقال :

يا لها من كف ما ألينها إن نجت غدا من عذاب الله عز وجل ! فقلت فى نفسى ليكلمنَّه الليلة بكلام من قلب نقى : فقال له : خذ فيما جئناك له رحمك الله . فقال له :

إن عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة دعا سالم بن عبد الله ، ومحمد بن كعب القرظى ، ورجاء بن حيوة ، فقال لهم : إنى قد ابتُليت بهذا البلاء ، فأشيروا على ؛ فعد الخلافة بلاء ؛ وعددتها أنت وأصحابك نعمة .

فقال له سالم بن عبد الله : إن أردت النجاة من عذاب الله فصمَ عن الدنيا ، وليكن فطرك منها الموت .

وقال له محمد بن كعب : إن أردت النجاة من عذاب الله ، فليكن كبير المسلمين عندك أبا ، وأوسطهم عندك أخا ، وأصغرهم عندك ابنا . فوقر أباك وأكرم أخاك ؛ وتحنن على ولدك !

وقال له رجاء بن حيوة ! إن أردت النجاة غدا من عذاب الله فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك ، واكره لهم ما تكره لنفسك ثم مت إذا شئت ...

---

(١) الجاثية : ٢١

وإنى أقول لك يا هارون : إنى أخاف عليك أشد الخوف يوما تزل فيه الأقدام ؛ فهل معك رحمك الله من يشير بمثل هذا ؟ فبكى هارون بكاء شديداً حتى غشى عليه ...

قال الفضل فقلت : أرفق بأمير المؤمنين ! فقال : تقتله أنت وأصحابك ، وأرفق به أنا ؟

ومن طريف المواقف ما حدّث به سعيد بن سليمان قال :

كنت بمكة وإلى جانبي عبد الله بن عبد العزيز العمرى . وقد حج هارون الرشيد . قال له إنسان : يا أبا عبد الله هوذا أمير المؤمنين يسعى ؛ وقد أخلى له المسعى ؛ قال العمرى للرجل : لاجزاك الله عنى خيرا ؛ كلفتنى أمراً كنت عنه غنياً . ثم قام فتبعه ؛ فأقبل هرون الرشيد من المروة يريد الصفا ؛ فصاح به !

يا هارون ! فلما نظر إليه قال : لبيك يا عمرى ! قال : ارق الصفا ؛ فلما رقاها قال : ارم بطرفك إلى البيت ؛ قال هارون : قد فعلت . قال : كم هم ؟ قال : ومن يحصيهم ؟ قال فكم فى الناس مثلهم ؟ قال : خلق لايحصيهم إلا الله ! قال :

اعلم أيها الرجل أن كل واحد منهم يسأل عن خاصة نفسه ... وأنت وحدك تسأل عنهم كلهم ؛ فانظر كيف تكون ! — فبكى هارون — فقال العمرى : وأخرى أقولها — قال : قل يا عم : قال والله إن الرجل ليسرف فى ماله فيستحق الحجر عليه ؛ فكيف بمن أسرف فى مال المسلمين !

قال البغوى : فبلغنى أن هارون الرشيد كان يقول : إنى لأحب أن أحج كل سنة ، ما يمنعنى إلا رجل من ولد عمر ، يسمعنى ما أكره ...

وقريب من هذا المقام فى الخشونة والصدق ما كان بين أبى حازم وسليمان ابن عبد الملك .

فقد حج سليمان وبعث إلى أبى حازم حين قدم المدينة للزيارة ؛ فلما دخل قال : تكلم ، يا أبا حازم ؛ قال : فيم أتكلم يا أمير المؤمنين ؟ قال : فى المخرج من هذا الأمر . قال : يسير إن فعلته ؛ قال : وما ذاك ؟ قال :

لا تأخذ الأشياء إلا من حلها ؛ ولا تضعها إلا فى أهلها . قال : ومن يقوى على ذلك ؟ قال :

من قلده الله من أمر الرعية ما قلدك ! قال : عظنى يا أبا حازم . قال : اعلم أن هذا الأمر لم يصر إليك إلا بموت من كان قبلك ؛ وهو خارج من يديك ، بمثل ما صار إليك . قال : يا أبا حازم ، أشر على ؛ قال :

إنما أنت سوق ؛ فما نفق عندك حمل إليك من خير أو شر ؛ فاختر أيهما شئت ! قال : مالك لا تأتينا ؟ قال :

وما أصنع بإتيانك ؛ يا أمير المؤمنين ؛ إن أدنيتنى فتنتنى ؛ وإن أقصيتنى أخزيتنى ؛ وليس عندك ما أرجوك له ، ولا عندى ما أخافك عليه ! قال : فارفع إلينا حاجتك . قال :

قد رفعتها إلى من هو أقدر منك عليها ؛ فما أعطانى منها قبلت ؛ وما منعنى منها رضيت ...

ويماثل هذا المقام مقام الأوزاعى بين يدى المنصور ؛ ذكره عبد الله بن المبارك عن رجل من أهل الشام قال : دخلت عليه فقال : ما الذى أبطأ بك عنى ؟ قلت : يا أمير المؤمنين ، وما الذى تريد منى ؟ قال : الاقتباس منك . قلت انظر ما تقول فإن مكحولا حدثنى عن عطية بن بشير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

من بلغه عن الله نصيحة فى دينه فهى رحمة من الله سيقت إليه فإن قبلها من الله يشكر . وإلا كانت حجة من الله عليه ؛ ليزداد إثماً ، وليزداد الله عليه غضبا ؛ وإن بلغه شىء من الحق فرضى فله الرضا : وإن سخط فله السخط . ومن كرهه فقد كره الله ، لأن الله هو الحق المبين » .

فلا تجهلن . قال : وكيف أجهل ؟ قال :

تسمع ولا تعمل بما تسمع !

قال الأوزاعى : فسلّ علىّ الربيع السيف وقال : تقول لأمير المؤمنين هذا ؟ فانتهره المنصور وقال : أمسك — ثم كلمه الأوزاعى وكان فى كلامه أن قال :

إنك قد أصبحت من هذه الخلافة بالذى أصبحت به ؛ والله سائلك عن صغيرها وكبيرها . وفتيلها . ونقيرها ؛ ولقد حدثنى عروة بن رويم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« ما من راع يبيت غاشا لرعيته إلا حرم الله عليه رائحة الجنة » .

فحقيق على الوالى أن يكون لرعيته ناظرا ، ولما استطاع من عوراتهم ساترا . وبالقسط فيما بينهم قائماً ؛ لايتخوف محسنهم منه رهقا . ولا مسيئهم عدوانا .

فقد كانت بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم جريدة يستاك بها ويردع عنه المنافقين ، فأتاه جبريل فقال : « يا محمد ، ما هذا ؟ الجريدة بيدك ؟ اقذفها لا تملأ قلوبهم رعبا » .

فكيف من سفك دماءهم ؛ وشقق أبشارهم ، وأنهب أموالهم !

يا أمير المؤمنين :

إن المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر دعا إلى القصاص من نفسه بخدش خدشه أعرابياً لم يتعمده ! فهبط جبريل فقال : يا محمد ؛ إن الله لم يبعثك جباراً تكسر قرون أمتك ...

إن الدنيا تنقطع ويزول نعيمها ؛ ولو بقي الملك لمن قبلك ، لم يصل إليك يا أمير المؤمنين ؛ ولو أن ثوباً من ثياب أهل النار عُلِّق بين السماء والأرض لآذاهم ؛ فكيف من يَتَقَمَّصُه ؟ .. ولو أن ذَنُوبا من صديد أهل النار صُبَّ على ماء لآجنه . فكيف بمن يَتَجَرَّعُه ؛ ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل لذاب ؛ فكيف من سُلِك فيها ، وَيرَد فصلها على عاتقه !

واعلم أن السلطان أربعة !

أمير يظلف نفسه وعماله ؛ فذلك له أجر المجاهد فى سبيل الله ، وصلاته سبعون ألف صلاة ؛ ويد الله بالرحمة على رأسه ترفرف .

وأمير رتع ورتع عماله ؛ فذلك يحمل أثقاله وأثقالا مع أثقاله .

وأمير يظلف نفسه ويرتع عماله ؛ فذاك الذى باع آخرته بدنيا غيره .

وأمير يرتع ويظلف عماله . فذاك شر الأكياس .

* * *

هكذا بقى العلم صحيح المنهج ، سليم الوجهة ، ولقد ظل دروبا وهو بهذه النضارة يؤدى رسالته المزدوجة فى ترقية الجماهير ، وإلانة شكيمة الحاكمين ، وإن اضطربت قواعد تمييزهم !

غير أن الكياسة التى عُرف بها أغلب الملوك القدامى ، والصلابة التى أُثرت عن جمهور العلماء ، لم تستمرا على مر الليالى فلم يلبث الانفصال بين الجانبين أن اتسع مداه وقد كان من الصعب أن يبقى مجال العلم زاخراً فياضاً مع شرود الحكم عن صراط الله .

وتاريخ الاستبداد ناطق بأن السلاطين والأباطرة ، يضيقون باليقظات العقلية ، ويتوجسون خيفة من انتشار المعارف ، وقد يسمحون بنوع خاص من العلم يعيش فى كنفهم وحده ، لكن تضييق الخناق على العلم فى ناحية يخمد النشاط فى نواحيه الأخرى ، ويجعله علماً قليل الجدوى .

وقد أخذ العلم فى البلاد الإسلامية ينكمش رويد رويدا . وبدت آثار هذا الانكماش فى إغلاق باب الاجتهاد ، والاكتفاء بما وصل إليه العلماء الأوائل من أحكام فى شتى ميادين الثقافة الإسلامية .

وإيصاد الأبواب أمام حركات الفكر الإنسانى — وإن بدأ عندنا فى مجال الفقه — أضر بكياننا العلمى والأدبى ، وشل الهمم فى كل مجال . فضعف الابتكار فى ميادين الأدب واللغة بل مات .

وكذلك الشأن فى آفاق الحياة العمرانية . فإن التجدد والاكتشاف فى علوم الكون توقفا ، ثم ظل الهزال يتمشى فى أوصال الأمة كلها حتى كدت تحس منها برودة الموت . وكان حكم الأتراك للأمة الإسلامية طوراً مشئوماً فى تاريخها ، أضرّ برسالتها فى الداخل والخارج .. وترك الجهل الطامس ينتشر فى مشارقها ومغاربها كما ينتشر ظلام الخسوف على صفحة القمر تاركا الكون كله غارقا فى السواد ...

* * *

ومع هذه الحالة المقبضة ، فإن الإسلام لم يعجز عن إنفاذ شعاعه ، وتوصيل حقائقه .

وإن فساد الحكم ، ونقصان العلم ، لم يؤثرا فى التقاليد الصلبة التى حفرت مجراها فى الشعور واللاشعور ، وأتاحت للإسلام وأمته البقاء برغم ضراوة أعدائه ، وسفاهة حكامه ! وما تكون هذه التقاليد المتيدة ؟

إن التقاليد فى الجماعات أشبه بالعادات للإنسان ، والإنسان إذا اعتاد طريقاً مشى فيه دون تفكير ، وإذا اعتاد عملا قام به دون وعى ، وفى دائرة شبه الشعور خطوط ممهدة لهذا النوع من السلوك — كما يقول علماء النفس — وكثير من الأفعال التى لا يصحبها انتباه حاد ، أو إدراك هادىء ، تمشى إلى غايتها فى غيبوبة من الذهن الواعى ، وتجىء كاملة كما لو تمت وفق خطة مرسومة !

كذلك الحال فى وصف التقاليد التى شدت أعصاب الأمة الإسلامية ، وأبقتها أمام العالم سائرة فى طريقها كأن لم يصبها شىء ! ولو أن ما أصابها من فساد الحكم ، ونقصان العلم ، أصاب غيرها ، لحفر قبرها من مئات السنين !

سقَوْنى وقالوا لا تُغَنِّ ، ولو سقَوْا جبال حنين ما سقونى لغنَّتِ

والتقاليد التى ننوه بها مرتبطة بالعبادات الشخصية ، والنواحى الاجتماعية العامة ، وما يرسب فى مشاعر الناس من أهداف دينهم وتاريخهم ، مقترناً بتقوى الله ، وطلب مرضاته ...

وإنى لأتساءل : ما ذا كان يمكن أن تكون عليه حال هذه الأمة لو لم يكن لها دين يفرض عليها الصلاة ، وتفرض عليها هذه الصلاة تكرار الوضوء ، وأنواعاً أخرى من الغسل ؟

لا بد أن الأوساخ كانت ستستأصلها فى ظل حكومات ما فكرت قط فى رعاية شئون النظافة فى البلاد طول عدة قرون ... !

وما يقال فى النظافة يقال فى الصحة العامة . ما كان أقل المستشفيات فى المدن والقرى ! إنه على الأهلين وحدهم أن يهتموا بأنفسهم . وعلى الحكام أن يجمعوا الضرائب ، وأن يطاردوا الناس لها من بلد إلى بلد . فإذا جمعوها بالسياط أنفقوها حيث يشتهون . ولا حظَّ لمصالح الأمة منها إلا نزراً يسيراً . !

وعند ما كنت طفلا كانت أذناى تلتقطان من شيوخ القرية أخباراً غريبة عن ضريبة يدفعها لابس الثوب الجديد مثلا ؟ وأن العمدة « التركى » جلد رجلا لوحظ أن حذاءه الجديد يحدث صوتاً فى أثناء سيره !

كانت الأناقة الملحوظة توجب الضرب !

ترى ما ذا كان يحدث لألوف الشباب الذى يفرق شعره[1] ويلمه ، لو أنه وقع تحت طائلة هذا الحاكم التركى ؟

* * *

وكما أهمل الحكام السابقون العناية بشئون الصحة والنظافة ، عطلوا قوى العمل المنتج والإحسان المنظم ، فقامت تقاليد الكرم والبر والمرحمة بأداء واجبها فى نطاق رحب شامل ، فإذا الصدقات المبذولة ، والمضايف المفتوحة تتلقفُ السائل والمحروم ، وتطعم العانى وابن السبيل .

والواقع أن المواساة الكريمة نضحت من تعاليم الإسلام على أفئدة الجماهير ؛ فنمت غوائل العيلة والضيعة ، وملأت الفراغ الناشئ عن تقصير الولاة ، وشلل الحكومات ، وحمَتْ أوطان الإسلام من المبادئ الناشئة عن تحول الجوع إلى كفر ، والقلق إلى إلحاد . وذلك ما لم يعرف لدين آخر .

وإذا كان يؤخذ على المسلمين اعتناؤهم بالإحسان الفردى ، وعزوفهم عن الإحسان الجماعى ، فسرُّ ذلك ما وقر فى بيئاتهم من عصور بعيدة ، إذ انصرفت الحكومات إلى مكاسب الحكم ، وأهملت القيام على تعاليم الإسلام فى حرب الجوع والبطالة فحمل الأفراد من تلقاء أنفسهم الواجبات

---

(١) الإسلام يستحب تجميل الشعر ، على شرط أن يفعل ذلك شباب يستكملون خلال رجولتهم أولا .

التى يقدســـونها ، بوحى من تدينهم ، واستمساكهم الشديد بهذا الإسلام الحنيف .

وقد وقف آلاف المحسنين أموالا طائلة ، وأبَّدُوا ريعها فى وجوه الخير ، واستقصَوْا آلام الناس ليمسحوها بما أفاء الله عليهم من فضل الغنى ، فماذا انتهى إليه أمر هذه الأوقاف ؟

كان الأفراد الأبرار يرصدون الصدقات الدائمة ، فيجىء الحكام الظلمة ليغتصبوها ، ويضعوا أيديهم عليها .

كما فعل محمد على باشا وغيره من السابقين واللاحقين !! فانظر ما يلقى الإسلام من حفاوة الأفراد ، وغباوة الحكام ! !

* * *

ثم يجىء ميدان العلم ! وقد أبنَّا الفجوة والجفوة التى نشأت بين الحكام والعلماء وكيف تطورت حتى جعلت الحكام ينفضون أيديهم من مظاهر الاهتمام الحق بتشجيع التعليم ، وتوسيع نطاقه .

لقد سقط المستوى الثقافى بين جماهير المسلمين سقوطا لا يعرف له نظير فى الدنيا .

وما أصاب الإسلام من كوارث الاستعمار العالمى يرجع إلى ظلمات الطيش والجهالة التى خيمت على كل مكان فى بلادنا .

وما بقى من عناصر المقاومة لهذا الغزو العنيد يرجع إلى بقايا المعاهد والمدارس التى أمسكت رَمَقَها تقاليد الخير بين العامة .

أجل ، فإن جمهور المسلمين كان يوقر العلم من أعماق قلبه ، ويُجِلُّ مَنْ له أثارةٌ من علم إجلالا غريبا ، وخصوصاً من له دراية بالقرآن والسنة .

وقد ظلت مكاتب تحفيظ القرآن الكريم متشبثة بالحياة فى أعماق القرى مندفعة بقواها الخاصة ، دون رعاية من الحكام ، حتى منتصف القرن الرابع عشر للهجرة ، إذ بدأت تندرس ، لتحل محلها المدارس المدنية !!

وفى هذه المكاتب ، التى كان يحرسها آباؤنا بما يقتطعون من أقواتهم الضئيلة بَدَأتُ تعليمى ، ثم ذهبت إلى معهد الإسكندرية .

فوجدت المسكن الذى آوِى إليه أنا ومئات من زملائى . وهو مسكن أعدّه الواقفون من أهل الخير !!

ثم وجدت إلى جانب ذلك راتباً حسنا يكفل نصف الطعام .

وبهذا التيسير الذى صنعه الأولون وحدهم ، استطعت ، واستطاع غيرى من الفقراء ، أن يواصل مراحل التعليم حتى نهايتها القصوى ، دون عناء يذكر . . . !!

وتلك من غير شك مأثرة تحفظ للإسلام ، فقد بقيت روحه العلمية تتردد فى صدور الناس ، وتدفع الرعية إلى حب التعلم ، وتوفير أسبابه ، فى الوقت الذى كان فيه جمهرة الملوك « المسلمين » فى عصور الانحلال الأخيرة ، يقيمون أسواراً بينهم وبين العلم وأهله ، بل إن تجهيل الأمة الإسلامية عامة كان بعض السياسة التى جرى عليها فريق من هؤلاء الملوك .

* * *

ذلك ، إلا أن العلم الذى اتصلت دراسته ، كان منقوص الأطراف ، معتكر الجوهر ، مشوبا بِدَخَل كثير .

فدراسة القرآن — بعد حفظنا الآلى لأحرفه — كانت إعرابا لِجُمَلِه ، وتطبيقاً لقواعد البلاغة المحدثة على أساليبه .

ودراسة السنة كانت تبركا بآثار الرسول يتناول كل شيء إلا الاتصال بالنفس الملهمة ، واقتباس الأسوة من هداها ، والحكمة فى تنزيل الأحاديث المروية على الحوادث المناسبة لها من دنيا الناس .

ودراسة الأدب العربى كانت مفقودة ، حتى أدخلت آخر الأمر فى البرنامج

ولست أدرى كيف يكون عالماً بالإسلام من ليس له ذوق أدبى ، وقدم راسخة فى فقه اللغة : شعرها ونثرها ؟

ودراسة التاريخ الإسلامى والعالمى كانت كذلك نافلة أو مسلاة ، لا يشتغل بها الفحول من العلماء !

وأحسب أن انحراف السياسة الإسلامية فى الحكم كان له أثر كبير فى الصدّ عن دراسة التاريخ ، وتمحيص الوقائع ، ونقد الرجال ، وفحص الظروف التى تحيط بأحكامهم وسِيَرِهمْ عامة

كما أن غلبة العناصر الأعجمية على السلطة ورفضها الاستعراب كانا سبباً فى غربة اللغة والأدب .

وتلك كلها سدود غلاظ دون فهم الكتاب المبين ، والأخذ الواعى عن رسوله ، والبصر المستنير بنهجه فى الحياة النفسية والاجتماعية والسياسية

وذلك كله إلى جانب جهالة مطبقة بعلوم الحياة ، وسائر المعارف الكونية التى طالما نبه القرآن إليها ، وفتح البصائر عليها ...

ويَالله للمسلمين !! ماذا يكون عليه دين تجهّم له الحكام ، وتقلص التعليم الصحيح له ؟

تصوّر الشيوعية في روسيا قد رزقت حكاماً لا يخدمونها بأمانة لا في الداخل ولا في الخارج ، أوهم أمناء مخلصون غير أنهم مسلوبو الكفاية والمقدرة !! كم يبقى عمر الشيوعية في روسيا ثم في العالم بعدها ؟ إنها ما تمكث في الأرض بضع سنين ..

وانقل الصورة نفسها إلى الولايات المتحدة مثلا ، كم يبقى فيها نظامها القائم ، لو أنها رزقت حكاما يتبرمون بالرأسمالية والديمقراطية ؟ أوهم يحترمون نظام بلادهم ، ولكنهم صِبْية ورثوا الحكم ، فلا مقدرة ، ولا تجربة هنالك ! ما أظن هذه الدولة يقدر لها البقاء عشر سنين !

بيد أن الإسلام على كيد الليالي له — بقي إلى يوم الناس هذا ! بقي برغم عوامل الفناء المسلطة عليه ! بقي لأنه دين انطبعت تعاليمه في شغاف القلوب ، وأُشْرِبَتْه الأرواح فهي إن لم تستطع صبغ الحياة الواقعية والسياسية به ، لم تتخلَّ عنه ! أوقل : هي تبقى أمينة له ولو نظرت بين يديها وخلفها فوجدت دنيا الحكم والتوجيه تندُّ عنه ، وتخرج عليه .

* * *

وقد تحدث الأستاذ حسن البنا عن ازدهار الإسلام في عصوره الأولى ، ثم عرض لعوامل التحلل التي أصابت دولته فقال :

« ومع هذه القوة البالغة ، والسلطان الواسع فإن عوامل التحلل ، قد أخذت تتسلل إلى كيان هذه الأمة القرآنية ، وتعظم وتنتشر ، وتقوى شيئاً فشيئاً ، حتى مزقت هذا الكيان ، وقضت على الدولة الإسلامية المركزية في

القرن السادس الهجرى بأيدى التتار — ثم فى القرن الرابع عشر الهجرى مرة ثانية .

وتركت وراءها فى كلتا المرتين أمماً مبعثرة ودويلات صغيرة تتوق إلى الوحدة ، وتتوثب للنهوض ، وكان أهم هذه العوامل :

(ا) الخلافات السياسية والعصبية . وتنازع الرياسة والجاه ؛ مع التحذير الشديد الذى جاء به الإسلام فى ذلك ، والتزهيد فى الإمارة . ولفت النظر إلى هذه الناحية التى هى سوس الأمم ، ومحطمة الشعوب والدول :

« ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهبَ ريحكم واصبروا ؛ إن الله مع الصابرين[1] » .

ومع الوصية البالغة بالإخلاص لله وحده فى القول والعمل والتنفير من حب الشهرة والمحمدة .

(ب) الخلافات الدينية والمذهبية ، والانصراف عن الدين كعقائد وأعمال ، إلى ألفاظ ومصطلحات ميتة لا روح فيها ولا حياة ؛ وإهمال كتاب الله وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ والجمود ، والتعصب للآراء والأقوال ؛ والولع بالجدل والمناظرات والمراء ؛ وكل ذلك مما حذر منه الإسلام ونهى عنه أشد النهى حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل[2] » . .

(حـ) الانغماس فى ألوان الترف والنعيم ؛ والإقبال على المتعة والشهوات ؛ حتى أثر عن حكام المسلمين فى كثير من العصور ما لم يؤثر عن غيرهم . مع أنهم يقرأون قول الله تبارك وتعالى :

---

(١) الأنفال : ٤٦

(٢) أبو داود .

« وإذا أردنا أن نُهلك قرية أَمَرنا مُترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمّرناها تدميراً[1] » .

(د) انتقال السلطة والرياسة إلى غير العرب من الفرس تارة ، والديلم تارة أخرى ، والمماليك والأتراك وغيرهم ، ممن لم يتذوقوا طعم الإسلام الصحيح ، ولم تشرق قلوبهم بأنوار القرآن ، لصعوبة إدراكهم لمعانيه .

(هـ) إهمال العلوم العملية ، والمعارف الكونية ، وصرف الأوقات ، وتضييع الجهود فى فلسفات نظرية عقيمة ، وعلوم خيالية سقيمة .

مع أن الإسلام يحثهم على النظر فى الكون ، واكتناه أسرار الخلق ، والسير فى الأرض ، ويأمرهم أن يتفكروا فى ملكوت الله :

« قل انظروا ماذا فى السموات والأرض[2] » . .

(و) الغرور بسلطانهم ، والانخداع بقوتهم . وإهمال النظر فى التطور الاجتماعى للأمم من غيرهم ، [illegible] سبقتهم فى الاستعداد والأهبة ، وأخذتهم على غرة ؛ [illegible] ... [illegible] وجمودهم [illegible] العقل . واعتبر العاقلين كالأنعام بل هم أضل .

« ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ؛ ولهم أعين لا يبصرون بها ؛ ولهم آذان لا يسمعون بها ؛ أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون[3] »

(ز) الانخداع بدسائس المتملقين من خصومهم . والإعجاب بأعمالهم ومظاهر حياتهم والاندفاع فى تقليدهم فيما يضر ولا ينفع ، مع النهى الشديد

---

(١) الإسراء : ١٦

(٢) يونس : ١٠١

(٣) الأعراف : ١٧٩

عن التشبه بهم . والأمر الصريح بمخالفتهم ، والمحافظة على مقومات الأمة الإسلامية خصوصاً بالنسبة لأهل الكتاب . والتحذير من مغبة هذا التقليد حتى قال القرآن الكريم :

« يأيها الذين آمنوا إن تُطيعوا من فريقاً الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين[1] » ..

وقال فى آية أخرى :

« يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين[2] » ..

* * *

(ا) أخذت هذه العوامل تعمل فى كيان الدولة الإسلامية . والأمة الإسلامية عملها ، وظنت الأمم الموتورة أن قد سنحت الفرصة لتأخذ بثأرها . وتقضى على هذه الدولة الإسلامية التى فتحت بلادها من قبل ، وغيرت معالم أوضاعها فى كل شئون الحياة

فانحدر التتار كالسيل الدافق على الدولة الإسلامية ، وأخذوا يقطعون أشلاءها جزءاً جزءا ، حتى وصلوا إلى بغداد عاصمة الخلافة العباسية ووطأوها بنعالهم فى شخص الخليفة المستعصم ؛ وبذلك تبدد شمل الدولة ، وانتثر عقد الخلافة لأول مرة ، وتفرقت الأمم إلى دويلات صغيرة ؛ فكل قبيلة فيها أمير المؤمنين ومنبر .

وتنبهت المسيحية فى أوروبا وجمعت جموعها . وقذفت الشرق المسلم فى آسيا وأفريقية بكتائبها فى تسع حملات صليبيه ، اشتملت على خير ما فيها من

(١) آل عمران : ١٠٠
(٢) « « : ١٤٩

خرسان وملوك وقتاد ؛ وتمكنت هذه القوات الزاحفة من إقامة دولة صليبية في بيت المقدس ، وتهديد أمم الإسلام في الشرق والغرب ، ومهاجمة مصر أقوى هذه الدول إذ ذاك .

(ب) انتعاش : ولكن الله تبارك وتعالى لم يأذن بعد بانتصار الباطل على الحق ، فاستطاعت مصر أن تجمع حولها فلول بعض هذه الدويلات . وتقذف بهم في بحر الصليبيين بقيادة صلاح الدين ؛ فتستعيد منهم بيت المقدس ، وتريهم كيف تكون الهزيمة في حطين ؛ ثم تقف في وجه التتار بقيادة الظاهر بيبرس ، وتردهم على أعقابهم خاسئين في عين جالوت . ثم تعيد رسم الخلافة من جديد .

ويريد الله بعد ذلك أن تقوم للإسلام دولة وارفة الظلال · قوية البأس ، شديدة المراس ، تجمع كلمة أهله ، وتضم تحت لوائها معظم أممه وشعوبه ؛ ويأبى لها علوُّ الهمة ، إلا أن تثأر لما أصاب الإسلام قديماً على أيدى الصليبية الغادرة ؛ وإلا أن تغزو المسيحية في عقر دارها ، فتفتتح القسطنطينية ، ويمتد سلطانها في قلب أوروبا ، حتى يصل إلى فينا ، تلك هي دولة الأتراك العثمانية ·

(ح) بواكير النهضة في أوروبا : اطمأنت الدولة الإسلامية تحت لواء العثمانيين إلى سلطانها ، واستنامت إليه ، وغفلت عن كل ما يدور حولها ·

ولكن أوروبا التي اتصلت بأضواء الإسلام غربا بالأندلس ، وشرقا بالحملات الصليبية لم تضع الفرصة ، ولم تغفل عن الاستفادة بهذه الدروس .

فأخذت تتقوى وتتجمع تحت لواء الفرنجة في بلاد الغال ؛ واستطاعت بعد ذلك أن تصد تيار الغزو الإسلامي العربي ؛ وأن تبث الدسائس بين صفوف مسلمي الأندلس ؛ وأن تضرب بعضهم ببعض ، إلى أن قذفت بهم أخيرا إلى ماوراء البحر ، أو إلى العدوة الإفريقية ؛ فقامت مقامهم الدولة الاسبانيولية الفتية

وما زالت أوروبا تتقوى وتتجمع ، وتفكر وتتعلم ، وتجوب البلاد ، وتكشف الأقطار ، حتى كان كشف أمريكا عملا من أعمال أسبانيا ، وكشف طريق الهند عملا من أعمال البرتغال ؛ وتوالت فيها صيحات الإصلاح ، ونبغ بها كثير من المصلحين . وأقبلت على العلم الكونى ، والمعرفة المنتجة الثمرة .

وانتهت بها هذه الثورات الإصلاحية إلى تكوين القوميات . وقيام دولة قوية جعلت هدفها جميعاً أن تمزق هذه الدولة الإسلامية التى قاسمتها أوروبا . واستأثرت دونها بأفريقيا وآسيا ؛ وتحالفت هذه الدول المتفقة على ذلك أحلافاً رقت بها إلى درجة القداسة فى كثير من الأحيان .

(د) هجوم جديد : وامتدت الأيدى الأوروبية بحكم الكشف والضرب فى الأرض ، والرحلة إلى أقصى آفاقها البعيدة ، إلى كثير من بلدان الإسلام النائية ، كالهند وبعض الولايات الإسلامية المجاورة لها

وأخذت تعمل فى جد للوصول إلى تمزيق دولة الإسلام القوية الواسعة . وأخذت تضع تلك المشروعات الكثيرة تعبر عنها أحيانا بالمسألة الشرقية . وأخرى باقتسام تركة الرجل المريض ، وأخذت كل دولة تنتهز الفرصة السانحة ، وتنتحل الأسباب الواهية وتهاجم الدولة الوادعة اللاهية . فتنتقص بعض أطرافها أو تهد جانبا من كيانها .

واستمرت هذه المهاجمة أمدا طويلا انسلخ فيه عن الدولة العثمانية كثير من الأقطار الإسلامية ؛ وقعت تحت السلطان الأوروبى ؛ واستقل فيه كثير من البلاد غير الإسلامية التى كانت تحت سلطان العثمانيين ، كاليونان ودول البلقان .

وكان الدور الختامى فى هذا الصراع الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ هـ سنة ١٩١٨ م الذى انتهى بهزيمة تركيا وحلفائها .

وبذلك سنحت الفرصة الكاملة لأقوى شعوب أوروبا (إنجلترا وفرنسا) وإلى جوارها (إيطاليا) فوضعت يدها على هذا الميراث الضخم من أمم الإسلام وشعوبه . وبسطت سلطانها عليه فى أسماء مختلفة من احتلال واستعمار ووصاية وانتداب » .

* * *

ومع اتساع الغارة على الإسلام وقوتها وشدة بطشها ، وخبث وسائلها ، ومع دهاء ساسة الغرب ، وسعة حيلتهم ، ومجيئهم إلى العالم الإسلامى فى هذه المرة وسط موكب من التفوق العلمى والاقتصادى ، ومع ضعف حواجز المقاومة فى أرجاء الرقعة الإسلامية الفسيحة ، بعد ما بلغ الفساد السياسى والثقافى فيها حداً مخزياً ، مع ذلك كله فإن المسلمين قاوموا ببسالة هذا الانسياح الذى محوا بغتة على وقع سنابكه ، وفتك مهالكه .

نعم قاوموه ، وما زالوا يقاومونه حتى كتابة هذه السطور .

وبعض الناس يحسب أن النصر فى هذا الكفاح قريب ، ولعله ينظر إلى التضحيات التى قدمها المسلمون وهم يمنعون الغزاة من القرار فى أرضهم فيحسب أن هذه التضحيات ثمن عادل للنصر المرتقب .

وعندى أن المعركة الحقيقية لم تبدأ بعد ، وأن ما قدمته الأمة الإسلامية من ضحايا لتحرير نفسها ليس إلا بعض ما يجب عليها ، بل لعل مغارمها فى هذه السبيل بعض العقوبة التى تستحقها ، لتفريطها فى جنب الله ، وذهولها عن فهم رسالتها ، وحسن أدائها . .

واللوم لا يقع على الجماهير ، فجماهير المسلمين من خيرة خلق الله استجابة للحق ، ونصرة لأصحابه ، وقد كانوا ــ وما زالوا ــ آخر الطبقات التى اعتراها الفساد بعد أن فسد الأمراء ، ثم فسد على مُكْثٍ العلماء ــ كما شرحنا آنفا ! !

ولو وضع برنامج لعودة الرسالة الإسلامية إلى سنائها القديم ، وتألقها العظيم ، ثم طهر الطريق أمام هذا البرنامج من عقابيل الاستعمار ، وعوائق الحاكين بأمرهم ، فإنه لن تمضى بضع سنين ، حتى يستعيد المسلمون أمجادهم الأولى ، ويستأنفون عملهم المبرور فى منع المظالم ، وتحرير الأرقاء ، ولفت الناس إلى ربهم ، وتمسيكهم بهدى آياته .

والحق أن القاعدة الشعبية سليمة ، وأن هذه السلامة يشوبها كدرٌ كلما اتجهنا إلى القمة ، مبتعدين من قاعدة الهرم إلى رأسه ، أو إلى ما يسمى بالدوائر العليا .

وأرى أنه من الضرورى للمحافظة على كيان الأمة الإسلامية الكبيرة ، أن تتعلم من أخطاء الماضى كيف تصون مستقبلها .

إن الظلم من شيم النفوس ، فى جميع الأجناس والأعصار والأقطار ، ولما كان إطلاق السلطة ، واتساعها ، يغريان بالاستبداد والفساد ، فإن الشعوب وضعت دساتير دقيقة للنجاة من طغيان الحكم المطلق ، وسلطاته الواسعة .

الشعوب من كل دين ، ومن كل لون فعلت ذلك ، لتأمين حياتها واستبقاء كرامتها .

ولست أدرى ما الذى يمنع المسلمين الإفادة من تجارب غيرهم فى هذا المجال ؟

إن كبوات تاريخهم العريق جاءت من انحلال عرا الحكم ، وإن توقف رسالتهم الكبرى جاء من أثقال السلاطين الذى قصموا ظهرها بشهواتهم .

فهلاَّ درسنا أخطاء ماضينا ، ودرسنا تجارب غيرنا ، وجعلنا من الدساتير الموطدة لأصول الحكم حدا حاسماً للمطامع والمظالم .

إن بعض الأقطار الإسلامية لا دستور له ، والبعض الآخر له دستور

عطلته الأهواء ، أو جعلته أثراً بعد عين ، فكيف يستقيم سير أمة فى التاريخ إذا كانت على هذا النحو عرجاء أو عمياء ؟

* * *

فى مخيّلتى صورة لا تزال كلما استحضرتها أشعر بسُخْنَةٍ ، ويغيم أمام عينىّ الأفق .

صورة ملك مسلم طفل يتلقى تعليمه فى لندن ! كان يبدو وعلى شفتيه ابتسامة بلهاء وإلى جواره قائد انجليزى كبير .

كان القائد عملاقا عريض الصدر والأكتاف تخيِّل إلىّ أنه إلى جانب صورة التلميذ الملك ، يمثل الاستعمار المصحل ، وهو يعامل الإسلام المهين الداخل.

ورأيت فى الصورة الماثلة ، أن القائد الانكليزى حضر إلى صاحب الجلالة ليهنئه بعيد ميلاده .

فقد وافى على جلالته وهو يتلقى العلم فى مدارس انجلترا ، ولما كان جلالته لا يزال عيِّلا ، فإن التقاليد توجب تقديم لعبة مناسبة ليتلهى بها هذا الملك المسلم المبّجل .

وقد وقع الاختيار على دابة لطيفة خفيفة حلوة الشكل ، حملها « الجنرال » البريطانى بين ذراعيه ، ثم انحنى فى سخرية رائعة ، وقدمها إلى صاحب الجلالة الطالب النجيب . . .

ويعود هذا الغلام وأضرابه ممن تعلموا فى انجلترا إلى الشرق الإسلامى الكئيب ، ليكونوا أصحاب الحول والطول ، وليكونوا قنطرة مشروعة يعبر عليها النفوذ الأجنبىّ بكل ما يحمل من جرائيم وجرائم ، وليكونوا كما قال رسول الله فى أشباههم ، « هلاك أمتى على يد أُغيلمة من قريش[1] » .

---

(١) البخارى .

أنترك رسالة الله ، ويترك أمر القرآن والسنة ، ويترك أمر الألوف المؤلفة من الناس ، لهذا الهزل الذى لا يشابهه هزل ؟؟؟.

إن الرجال الحراص على الإسلام حاضره ومستقبله فى سباق الآن مع الزمن لاستبقاء الأمة الكبيرة ، واستنقاذها قبل أن يبلغ الاستعمار أهدافه فيها ،

وأهداف الاستعمار الآن وأد الحريات التى تربو عليها أمتنا ، وتسترجع صحتها ، وتستعيد مكانتها . . .

وسماسرة أوربا الآن يمدون بنشاط هائل لإخماد الحركات والوطنية ، وإشاعة أقصى ما يمكن إشاعته من انحلال ، ومجون وتفرقة ، ومؤامرات ، وفتن ، حتى لا يكون دين ، ولا ينهض بيننا إسلام . . .

العقيدة صلة إلهية
ومنهج إنسانى

للقرآن الكريم أسلوب واحد فى التعريف بالله، والكشف عما ينبغى له من نعوت الكمال.

هذا الأسلوب يقوم على إيقاظ البصائر والأبصار، إلى ما فى الكون الكبير من شواهد وآثار . . .

أجل، إنه يقوم على انتزاع الأدلة الحية من صفحات هذا العالم الذى نحيا بين أرضه وسمائه، بل على انتزاع هذه الأدلة من كيان الإنسان نفسه منذ يولد إلى أن يموت !

« فلينظر الإنسانُ مِمَّ خلِقَ . خُلِقَ من ماء دافِق . يخرج مِنْ بين الصُّلبِ، والترائب، إنه على رَجْعِهِ لقادر[1] ».

« فلينظر الإنسانُ إلى طعامِهِ أنا صَببنَا الماء صَبًّا . ثم شققْنا الأرضَ شقًّا، فأنبتْنَا فيها حَبًّا . . .[2] ».

« أو لَمْ يتفكروا فى أنفسِهم ما خَلَقَ اللهُ السَّموات والأرضَ وما بينهما إلا بالحقِّ وأجل مُسَمًّى[3] . . . ».

« بل كذَّبوا بالحقِّ لما جاءهم فهم فى أمرٍ مَرِيجٍ، أفلَمْ ينظروا إلى السماء فوقهم كيْفَ بنيناها وزَيَّنَّاهَا وما لها مِنْ فروج، والأَرْضَ مَدَدْنَاها وألقَيْنَا فيها رواسِيَ وأنبتْنَا فيها من كلِّ زوج بهيجٍ، تَبْصِرةً وذِكرى لكلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ[4] ».

---

(١) الطارق : ٥ — ٨ .
(٢) عبس : ٢٤ — ٢٧ .
(٣) الروم : ٨
(٤) ق : ٥ — ٨ .

على هذا النسق المشرق ، المهتز بالندى مع الحدائق والأزهار ، السارى فى الوجود مع الأشعة والأنوار ، وفى طريق يربط النفس بالحياة المتحركة ، والفلك الدوار ويفتح العين على سير الوجود ، كلما اختلف الليل والنهار .

على هذا النسق ، وفى هذه الطريق ، يؤسس الإسلام عقائده فى القلوب ، ويقيم ركائزه بين الحنايا .

إنه ليس تفكير فيلسوف ، يحتبس فى حجرة ، ويتناول كأساً من الشاى ، أو من الخمر ، ثم يطلق العنان لأفكاره ، مثلما يطلق الشاعر العنان لخياله ، ثم يعود بعد رحلة شاقة فى أودية الوهم ، ليقول للناس كلاماً صحيحا ، أو سقيما كلا كلا .

إن البحوث النظرية ، والفروض الجدلية ، متاهات سلكها الألوف فلم يعودوا ، والذين عرفوا الحق من هذه السُّبُل ، تعسفوا فى طلبه ، وركبوا الصعب والذلول ، فجاءت تصوُّراتهم له غامضة ، وجاءت تعبيراتهم عنه معقدة ، تحس وأنت تقرؤها كأن صاحبها عانى وهو يضعها آلام المخاض .

أما القرآن ، فالبساطة المطلقة سمة ملحوظة فى العقائد التى ساقها كلها ، والأدلة التى نصبها لترشد العقل إليها أدلة يتألق السنا فى رونقها ، فلو أنها لم تكن علما مشبعا للفكر ، لكانت أدبا تربو به العاطفة ، فكيف ، وهى مؤسسة للأمرين معا ، اليقين والإقناع ؟

* * *

إن الفلسفة جهدٌ عقلىٌّ مُضْنٍ ، بيد أن حصاد هذا الجهد لا يغرس الطمأنينة ، وما يَخلص الدين إلا إذا ابتعد عنها .

وما خلصت الدنيا واستكشفت أطيب الثمرات العقلية إلا عند ما هجرت طرائق الفلاسفة ، ومشت فى منهج العلم الكونى البحت ، أى فى المنهج الذى اختطه الإيمان ، وأرشد إلى مناراته القرآن .

منهج التأمل الطويل فى صفحات الطبيعة ، والقبول العابر لما وراء الطبيعة ، ما دام الخبر به مرويا عن صدوق ! ! .

وخير درس فى تعريف الله إلى الناس ، أن ننتقل بهم إلى مشاهد الكون ، فنذهب بالطلاب إلى حديقة نضرة ، أو حقل مهتز ، ثم نلفت أنظارهم إلى ما انشقت عنه الأرض من أغراس وأعواد :

من الذى وضع السكر السائل فى هذا القصب ، وهو مروى بماء كدر ، وخارج وسط تربة منتنة ؟

من الذى وزع الألوان ، وأنواع العطور ، على هذه الورود المختلفة ، والأزهار الباسمة ؟

من الذى رص الحب فى سنابل القمح والأرز ، وغلف كل حبة فى قشرة خاصة بها ، بعد ما أودع فيها غذاء تلتقى فيه موادُّ كثيرة موزونة المقادير والنسب ؟ من ؟ . .

من الذى مدَّ رقعة هذا البحر الموّار ، وركم فيه الماء أمواجاً طامّة ، وأغوارا بعيدة ، ووصل هديره بالليل والنهار ، فما تنى لججه عن الكرِّ والفرِّ ، فى عراك دائم مع نفسها ، أو مع الشاطئ ؟ أى طاقة أودعت فى هذه الحركة الدائبة ؟

ثم من الذى رسم للأجسام الطافية عليه قانوناً دقيقاً ، يجعل الماء يغمرها بقدر ، وينحسر عنها بقدر ؟

ومن الذى زود الأحياء العائشة فى جوفه بأجهزة للتنفس ، تمكنها وحدها من استخلاص حاجتها إلى الهواء ؟

من الذى رفع هذه السماوات المبهمة ، وبث فى أنحائها الألوف المؤلفة من النجوم والكواكب ، وأشاع فى قبابها الزرق أسراراً رهيبة ، لا يزال البشر يرمقونها بتهيب ، دون أن يعرفوا شيئاً منها ، ولا مما وراءها ؟

من ؟ . من ؟ . . إنه الله ! ! ! وإلا فمن ؟ ؟ ؟

والعقائد التى أسسها الإسلام تتسم بالبساطة والوضوح والقوة ، وهى تتخذ طريقها إلى العقل والقلب ذلولا قويا

بل إن الطبيعة البشرية تقبل تعاليم الإسلام — فى مجال العقيدة وغيره — كما تقبل العلبة غطاءها المحكم ؛ الذى يركب عليها ، بعد أن هيئت له سعة وانطباقا .

وذلك يرجع إلى أن الإسلام دين الفطرة ؛ وأن ما شرحه من شعب الإيمان ومتعلقاته ، يتعانق مع آفاق العقل ، وأشواق القلب ، و[illegible] [illegible] وراحة

ولن نجد أفضل من آيات القرآن الكريم بيانا لهذه العقائد .

« اللهُ لا إله إلا هوَ الحىُّ القيومُ[1] » . .

« الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون[2] » .

« اللهُ خالقُ كلِّ شىء وهو على كل شىء وكيلٌ[3] » .

---

(١) البقرة : ٢٥٥ .
(٢) التغابن : ١٣ .
(٣) الزمر : ٦٢ .

« اللهُ لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يومِ القيامة لا ريب فيه[١] » .

« اللهُ الذى جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناءً وصوّركم فأحسَنَ صُوَرَكم[٢] » .

« فالله هو الولىُّ وهو يحيى الموتى وهو على كلِّ شىء قدير[٣] » .

« الله نَزَّلَ أحسَنَ الحديث . . . الخ[٤] » .

وفى هذا القرآن الكريم — الذى هو أحسن الحديث — تفصيل وإحصاء للعقائد التى يجب أن يمتلىء بها فؤاد المؤمن ! وأن تتخلل شغافَه كُلُّها ، لتكون محور الصلة بينه وبين الله ، ولتكون كذلك الأساس الذى يبنى عليه حياته ، ويتعامل به مع سائر الناس ...

والعقيدة ناحية إلهية ، وناحية إنسانية .

فأما الناحية الإلهية ، فقوامها حق الله تبارك وتعالى فى أن يُعْرَفَ على وجه صحيح .

فما دام واحدا ، فلماذا نفترى له شريكا ؟ .

وإذا كان قد أحاط بكل شىء علما ، فكيف نظن بعض أحوالنا يخفى عليه ؟

وما دام المصير إليه حتما ، فلماذا نجحد لقاءه ، أو نستهين بهذا اللقاء ؟

وإذا كان يُؤْوى المستجير به ، فلماذا نهجر كنفه الرحب إلى غير كنف ؟ وإلا فأين تذهبون .

---

(١) النساء : ٨٧ . (٢) غافر : ٦٤ .
(٣) الشورى : ٩ . (٤) الزمر : ٢٣ .

وما دام قد أمر ونهى ، وقضى وحكم ، فكيف ، يجحد أمره ونهيه ، وقضاؤه وحكمه ، ويلتمس بدلا من ذلك العِوَضُ الخبيث ، فيما تضع الشياطين للناس ؟

لا شك أنه من حق الله على الناس أن يؤمنوا به الإيمان الصحيح ، خصوصاً بعد ما أرشدهم إلى صراطه ، وبعث من يناديهم إليه ، ويعرّفهم عليه . !

ومن حقه جل شأنه أن يغضب على من تجنب الهدى ، وآثر الردى .

ومن حق الله على من عرفوه أن يُبَصِّروا سواهم ، وأن يكشفوا حجب الجهالة عنهم ، إذا كانوا قد وُجِدوا فى بيئات محرومة من الإيمان ، محتاجة إلى من يأخذ بيدها إلى الطريق المستقيم .

وأما الناحية الإنسانية للعقيدة ، فقوامها رفع مستوى الإنسان ، حتى يؤدى وظيفته فى الوجود ، على نحو يتفق مع شَرَفِ نَسَبِهِ ، وأصل خلقته .

فإن الإنسان رُشِّح فى هذا العالم لمنزلة ضخمة ، ودرجة سامقة .

وفى الحديث الشريف : « إن الله خلق آدم على صورته[1] » .

وهذه الصورة المنسوبة إلى الله جل جلاله ، وتعالى شأنه سرت فى كيان آدم مع النفحة المنبثقة من روح الله ، وهى النفخة التى حولته من طين خامل ، إلى إنسان سَوِىٍّ ، عالى القدر ، رفيع الشأن ، تقع الملائكة ساجدة له ! !

وما سجدت الملائكة له إلا بعد ما رأت أثراً من الصفات المقدسة ينضح على روح آدم ، ويتحول به إلى عالم مفكر ، مقتدر مريد .

---

(١) البخارى .

فليعرف الإنسان إذن ربه ، ليعرف أصل خلقته ، وعظم وظيفته ، ومعنى استخلافه فى الأرض ، وجلال الرسالة التى نيطت به !!

وعلى شعاع هادٍ من الكمالات الإلٓهية ، يسير الإنسان وراء مُثُلِهِ العليا ، ويرقى السلوك الإنسانى كله رقياً تتحقق فيه المعرفة والفضيلة ، وَيتنزَّه به عن الدنايا والرذائل ، ويبتعد به أتم البعد عن الخرافات والأباطيل ...

إن الصورة التى ينسب بها آدم إلى الله ليست صورة اللحم والدم ، ليست معالم القامة ، وملامح الوجه .

فإن الإنسان من الناحية المادية حيوان أدنى من غيره وأضعف

إن علم التشريح يجعل الصلة قريبة الشبه بين جسم الإنسان وجسم الأرنب . وصدق القائل :

لولا العقول لكان أدنى ضيغم أدنى إلى شرفٍ من الإنسان !!

هى إذن الصورة المعنوية ، والهيئة الروحية ، وما اختص به أبناء آدم من سعة الفكر والعاطفة ، وفى نطاق هذا الامتياز يستطيع بنو آدم أن يحتفظوا — بأحسن تقويم — ذرأهم الله عليه ، وفسح لهم ليبقوا دائما فى ذروته ..

* * *

والواقع أن ملكات الإنسان تبلغ تمامها — كما يلمع البدر بصحوها — فى أشعة مدفقة من معرفة الله ، ولحظ الكمالات التى تدل عليها أسماؤه الحسنى !!

ولذلك نرى كثيرا من الآيات التى تهذب السلوك الإنسانى تختم بأسماء متخيرة من أسماء الله جل شأنه ، تكون ذات صلة بموضوع النصح والتأديب مثل .

« لا يحبُّ اللهُ الجهرَ بالسوء من القولِ — إلا من ظُلِم — وكان الله

سميعاً عليما ، إن تبدُوا خيرا أو تُخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفوّاً قديراً[١] » ، ومثل :

« ومن يعملْ سوءا أو يظلمْ نفسه ، ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما . ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليما حكيما[٢] » ، ومثل :

«والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءاً بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم ، فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم[٣] » .

وقد يطوى جزاء الفعل فى درج الكلام ، ويستغنى عنه بذكر ما يدل عليه من الأسماء الإلهية ، إشارة إلى قوة الرابطة بين الأجزية وموقعها ، وبذلك يكون جواب الفعل المشروط ـ كما يعبر النحاة ـ اسما أو أكثر من أسماء الله ، وذلك كقوله

« ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب[٤] » .

« ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم »[٥] .

والقرآن ملىء بالجمل التى تختم بهذه الأسماء الدالة على صفات الله ، وفنون كماله ، وإن تنوعت الموضوعات ، وتعرضت أحيانا لمعاملات وأحكام تلوح بعيدة عن ميدان العقيدة . مثل :

« للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم . وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم[٦] » .

---

(١) النساء : ١٤٨ ، ١٤٩ .
(٢) النساء . ١١٠ ، ١١١ .
(٣) المائدة : ٣٨ ، ٣٩ .
(٤) البقرة : ٢١١ .
(٥) الانفال : ٤٩ .
(٦) البقرة : ٢٢٦ .

والحق أن اشراق العقيدة يجب ألا يغيب عن عمل ما ، وأن عروة الإيمان يجب أن تشتبك بكل تصرف ، وأن مراقبة العزيز الحكيم يجب أن تضبط كل عاطفة .

ولما كان القرآن كتاب تربية ، فهو يكرر عن عمد هذه الأسماء ليغرس أثرها فى شغاف القلوب !!

والناحية الإنسانية للعقائد جليلة الخطر . وليس يدرك مكانتها إلا حكيم معنىٌّ بالأهداف العليا للتربية الدينية .

وقد اهتم علماء الإسلام بها اهتماماً يستحق الدراسة وإن قلَّ الفاقهون لهذا المنحى من ثقافتنا الإسلامية !

والإمام أبو حامد الغزالى قِمَّةٌ فى هذا الميدان لا تُطاوَل . وكتابه « المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى » عمل رائع فى شق طريق الـكمالات الإلهية أمام الإنسان .

وطريقته تبدأ بشرح الاسم الأقدس — كعلم على ذات الله سبحانه — ثم يأخذ فى شرح ما ينبغى أن يكون حظاً للإنسان منه . وعلى هذا النسق أحصى تسعة وتسعين اسماً ، هى ما جاء فى السنة أنها أسماء الله سبحانه وتعالى.

* * *

ونحن نقتبس منه هذه النبذ .

قال بعد ما شرح اسم الرحمن :

وحظ العبد من اسم « الرحمن » أن يرحم عباد الله الغافلين ، فيصرفهم عن طريق الغفلة إلى الله بالوعظ والنصح ، بطريق اللطف ، دون العنف ؛ وأن ينظر إلى العصاة بعين الرحمة ، لا بعين الإيذاء ، وأن يرى كل معصية تجرى

فى العالم كمعصية له فى نفسه ، فلا يألو جهدا فى إزالتها بقدر وسعه ، رحمة لذلك العاصى من أن يتعرض لسخط الله تعالى ، أو يستحق البعد عن جواره .

وحظه من اسم « الرحيم » ان لا يدع فاقة لمحتاج إلا ويسدها بقدرطاقته ، ولا يترك فقيراً فى جواره ، أو فى بلده ، إلا ويقوم بتعهده ، ودفع فقره ، إما بماله ، أو جاهه ، أو بالشفاعة إلى غيره ؛ فإن عجز عن جميع ذلك فيعينه بالدعاء ، وإظهار الحزن ، رقة عليه وعطفاً ، حتى كأنه مساهم له فى ضره وحاجته .

ثم بعد أن شرح اسم « الملك » أخذ يذكر نصيب الإنسان من هذا النعت الخطير فقال :

العبد لا يتصور أن يكون ملكا مطلقا ، فإنه لا يستغنى عن كل شىء ، بل هو أبداً فقير إلى الله تعالى ، وإن استغنى عمن سواه ، ولا يتصور أن يحتاج إليه كل شىء ، بل يستغنى عنه أكثر الموجودات ، ولكن لما تصور أن يستغنى عن بعض الأشياء ، ولا يستغنى عن بعض الأشياء ، كان له شوب فى الملك .

فالملك من العباد هو الذى لا يملك إلا الله بل يستغنى عن كل شىء سوى الله ، وهو مع ذلك يملك مملكته ، بحيث يطيعه فيها جنوده ورعاياه وإنما مملكته الخاصة به قلبه وقالبه ، وجنده شهوته وغضبه وهواه ، ورعيته لسانه وعيناه ويداه وسائر أعضائه ، وإذا ملكها ولم تملكه ، وأطاعته ولم يطعها ، فقد نال درجة الملك فى عالمه .

فإن انضم إليه استغناؤه عن كل الناس ، واحتاج الناس كلهم إليه فى حياتهم العاجلة والآجلة ، فهو الملك فى العالم الأرضى ، وتلك رتبة الأنبياء عليهم السلام .

فإنهم استغنوا فى الهداية إلى الحياة الآخرة عن كل أحد ، إلا عن الله ،

واحتاج إليهم كل أحد . يليهم فى هذا الملك ، العلماء الذين هم ورثة الأنبياء ، وإنما ملكهم بقدر قدرتهم على إرشاد العباد ، واستغنائهم عن الاسترشاد .

وبهذه الصفات يقرب العبد من الملائكة فى الصفات ، ويتقرب إلى الله تعالى بها .

وهذا الملك عطية للعبد من الملك الحق الذى لا مثوبة فى ملكه .

ولقد صدق بعض العارفين لما قال له بعض الأمراء سلنى حاجتك حيث قال : أوَلى تقول ولى عبدان هما سيداك .

قال : ومن هما . قال : الحرص والهوى ؛ فقد غلبتهما وغلباك ، وملكتهما وملكاك .

وقال بعضهم لبعض الشيوخ : أوصنى ؛ فقال له : كن ملكا فى الدنيا ، ملكا فى الآخرة ؛ فقال : وكيف ؛ فقال معناه : اقطع طمعك وشهوتك عن الدنيا ، تكن ملكا فى الدنيا والآخرة ، فإن الملك فى الحرية والاستغناء .

وبعد أن شرح اسم الغفار قال :

حظ العبد من هذا الاسم ، أن يستر من غيره ما يجب أن يُستَر منه ؛ فقد قال عليه السلام .

« من ستر على مؤمن عورته ، ستر الله عورته يوم القيامة[1] » .

والمغتاب والمتجسس والمنتقم والمكافئ على الإساءة بمعزل عن هذه الوصف ، وإنما المتصف به من لا يفشِى من خَلْق الله تعالى إلا أحسن ما فيه .

ولا ينفك مخلوق عن كمال ونقص ، وعن قبح وحسن .

---

(١) مسلم .

فمن تغافل عن القبائح وتذكر المحاسن ، فهو ذو نصيب من هذا الاسم كما روى عن عيسى عليه السلام :

أنه مر مع الحواريين على كلب ميت ، قد غلب نتنه ؛ فقالوا : ما أنتن هذه الجيفة ؛ فقال عيسى عليه السلام : ما أحسن بياض أسنانه ، تنبيها على أن الذى ينبغى أن يذكر من كل شىء أحسن ما فيه . . » .

* * *

وهكذا مضى الإمام الكبير يحدو المؤمنين إلى الكمال المنشود ، ويردهم إلى أصلهم العريق ، وشرفهم الوثيق ، ويَقْسِم لهم أنصبتهم من الكمال الأعلى ، كى يتشبث كل امرىء بنصيبه حتى إذا لقى المؤمن ربّه يوم الدين ، لقيه وله به آصرةٌ تنضر وجهه ، وترشحه للرفيق الأعلى ، والجوار الكريم .

وأساس ذلك كله صدق العقيدة وسعة المعرفة . . .

ولنعرض هنا إلى شبهة أثارها بعض المستشرقين . فقد قال :

إن الصلة بين المسلمين وإلههم — كما يصورها دينهم — تشبه الصلة بين العبد القِنِّ المتوجس ، وبين السيد الجبار المتسلط ؛ وأن عمل هؤلاء العبيد لربهم يقوم على المعاوضات التجارية ؛ فالأجر على حسنة تفعل ، والعقوبة على سيئة ترتكب ، هو محور هذه العلاقة . فهى علاقة تخفض قدر الإنسان وتضع منزلته . . .

ونحن نقول :

إن العلاقة بين الإنسان وربه أزكى من هذا الفهم الضيق ، وأرقى من هذا التصوير المنحرف .

إن الله — بوصفه خالق كلّ شيء ، والقيوم على كل شيء — لا يستغرب ألبتة إسناد السيادة المطلقة له ، ووصف الناس قاطبة بأنهم عباده الخاضعون لسلطانه ، والمستكينون لجلال شأنه .

ومع ذلك ، فإن الله جعل صلته بالمؤمنين قائمة على الموالاة والمحبة والرعاية ، لا على الجبروت والقهر .

وفى تصوير هذه العلاقة من طرفها الأعلى نذكر هذه الآيات :

« اللهُ وليُّ الذين آمنوا يُخرِجُهم من الظلمات إلى النور ...[1] »

« هو الذى يصلِّى عليكم وملائكته ليخرجَكُم من الظلمات إلى النور . وكان بالمؤمنين رحيماً ، تحيَّتهُم يوم يلقَوْنَهُ سلامٌ ، وأعدَّ لهم أجراً كريماً[2] » .

« إن الذين قالوا ربُّنا الله ثم استقاموا تتنزَّلُ عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنَّة التى كنتم توعدون[3] » .

أما هذه العلاقة من طرفها الإنسانى الآخر ، فهى كما رسمها القرآن ، لا تخرج عن نطاق الود والإيثار والإعزاز لله وحده :

« إن وَلِيِّىَ اللهُ الذى نزَّل الكتابَ وهو يتولَّى الصالحين[4] »

« قل : أغيرَ الله أبغى ربًّا وهو ربُّ كل شىء . .[5] »

« قل أغيرَ الله أتّخِذ وَلِيًّا فاطر السموات والأرض وهو يُطْعِم ولا يُطْعَم ..[6] »

انظر إلى هذا التساؤل على ألسنة العباد ! علام يدل ؟

---

(١) البقرة : ٢٥٧ (٢) الأحزاب : ٤٣ ، ٤٤
(٣) فصلت : ٣٠ (٤) الأعراف : ١٩٦
(٥) الأنعام : ١٦٤ (٦) الأنعام : ١٤

يدل على عبودية ذعر وهوان ، أم يدل على عبودية رضا واقتناع ؟

إن المسلم مكلف بالخضوع لله حقاً .

لكن هذا الخضوع خضوع حب وإجلال !

خضوع مَنْ يرى ربّه أهل التقوى والمغفرة ، ومصدر الحول والطول ، وذا الجلال والإكرام .

وما فسّر علماء الإسلام العبادة إلا بهذا المعنى السمح العالى .

على أنه من الحق أن نسأل بعد ذلك : هل يقاد الناس جميعاً بزمام الرغبة والتقدير الخالص ، فليس فيهم من تحركه الرهبة وحدها ، ويدفعه إلى الواجب خوف أو قلق ؟؟

بل إننا نسأل : هل الإنسان — فى أصل خلقته — يرجو ولا يخاف ، ويحب ولا يبغض ، ويرغب ولا يرهب ، وهل صحيح أن الإطماع فى مثوبة ، والإنذار بعقوبة ، لا مكان لهما فى التربية ، ولا أثر لهما فى السلوك ؟؟

إن النعى على الإسلام لأنه جعل الجنة جائزةً يكافأ بها الأتقياء ، وجعل النار عقوبة يُرْمى بها الأشقياء ، فيه تجاهل غريب للطبيعة الإنسانية ، وذهول عن عوامل أصيلة فى سياسة الجنس البشرى .

ثم إن الإسلام لم يجعل المعاوضات أساس تكاليفه ، حتى يتهمه مستشرقٌ مُغرض بأنه دين تجارى !

فإن الإسلام يُعرِّف بالله ، وبما له من حقوق ، وبما فى شرائعه من حكمة ، وبما يترتب عليها من مصالح فى المعاش والمعاد . ويجعل مناط النجاة فى صلاح القلب الإنسانى واستنارته .

فكيف يلام بعد ذلك ، إذا وَعَد وأوعد ، وبشر وأنذر ، وأحصى على المرء حسناته وسيئاته ؟؟

ومع ذلك فإن الروح السائدة فى العبادات الإسلامية تنطوى على عواطف نضرة ، ومشاعر بلغت الأوج تجرداً ونقاء .

* * *

واستمع إلى هذا المثل من الأدعية الإسلامية

« اللهم إنا نسألك ما نسأل لا عن ثقة ببياض وجوهنا عندك ، وأفعالنا معك ، وسوالف إحساننا قِبلَك ، ولكن عن ثقة بكرمك الفائض ، وطمعاً فى رحمتك الواسعة ، نعم ، وعن توحيد لا يشوبه إشراك ، ومعرفة لا يخالطها إنكار ، وإن كانت أعمارنا قاصرة عن غايات حقائق التوحيد والمعرفة ، نسألك أن لا ترد علينا هذه الثقة بك ، فتشمت بنا من لم تكن له هذه الوسيلة إليك » .

وكذلك مثل هذه المناجاة :

حرام على قلب استنار بنور الله أن يفكر فى غير عظمة الله .

حرام على لسان تعود ذكر الله أن يذكر غير الله .

حرام على نفس طهرت من أدناس الدنيا بطاعة الله أن تدنس بشىء من مخالفة الله .

حرام على عين نظرت إلى مملكة الله أن تحدق إلى غير الله .

حرام على كبد ابتلت بالثقة بالله أن تطمئن إلى غير الله .

حرام على من لم ير الخير إلا من الله أن يجد طمعاً فى غير الله .

حرام على من شرف بخدمة الله أن يتضع بخدمة غير الله .

حرام على من ألف فِناء الله أن يعرج إلى غير الله

حرام على من تلذذ بمناجاة الله أن يناجى غير الله .

حرام على من رتع فى نعمة الله أن يعبد غير الله .

حرام على من سكن حَرَم الله أن يتعرض لحُرَم الله .

حرام على من دعا إلى الله أن يحب غير الله .

حرام على عبد الله أن يتخذ مولى سوى الله .

حرام على من أنس بالله أن يأنس بغير الله .

حرام على من عرف قدرة الله أن يتعرض لسخط الله .

وفى الأذكار والأدعية والمناجاة التى احتواها الكتاب العزيز ، أو رددها فم الرسالة الطهور أو تزلف بما يشبهها السلف الصالحون . فيها كلها بوارق تلمع فيها العاطفة المنسابة ، عاطفة المؤمن الذى يحب ربه حباً جما ، ويُهْرَع إلى ساحته بدافع من الشوق والرجاء ، قبل أن يهرع إليه بدافع من القلق والوجل .

وإذا كان على المسلمين مآخذ فى صلتهم بالله ، فهى ترجع إلى تجاوزهم حدّ الاعتدال فى حسن الظن بالله ، تجاوزاً جعلهم يكثرون الطلب ، ويهملون السبب ، ويسرفون فى الآمال ، ويقللون من الأعمال ...

وهذا الخطأ — من المسلمين لا من الإسلام — لا يمكن تفسيره أبداً بما ذهب إليه هذا النفر من المستشرقين المغرضين ، لأنه يدل على عكس قضيتهم !!

وسرّ التهمة المردودة تعصب المستشرقين لما ورثوا من دين ، فهم

يقولون : إن تحوُّل الله إلى بشر رفع من قدر الإنسان ! ! ! أما الإسلام فقد وضع من قدر أتباعه ، وأساء تصوير الصلة بين الله وخلقه ، لما رفض قضية التثليث ، واتحاد اللاهوت بالناسوت !!!

ونحن نعرف الوظيفة الخسيسة التى يؤديها الاستشراق ، ونؤكد أن القوة مهما ساندت الخرافة ، فلن تحولها إلى حق ولن تحولنا عن الإسلام !!

* * *

وتعليم العقائد مرّ بأطوار مؤسفة . فقد انقضى العصر الأول ، وجمهور المسلمين تشغلهم خدمة الإسلام فى ميادين الحياة العامة عن الخوض فى الأغلوطات ، والتقعُّر فى الغيْبِيّات ، والبحث الفاشل فيما وراء المادة .

ولو أن المسلمين كرّسوا قواهم الذهنية والمدنية لأداء الرسالة التى ناطها القدر بهم ، لاتخذ تاريخهم مجرى آخر .

بيد أن الأمم التى دخلت فى الإسلام ، والمعارف الكثيرة التى سبقت هذا الدين ، وصبغت أفكار الناس ومشاعرهم بألوان شتى ، كل ذلك كان له تأثير غريب على طريقة تعليم العقائد ، وأسلوب عرضها ، والاستدلال عليها ، وتشقيق النظر فيها ، والمواءمة بينها وبين ما يُعْجِب من الآراء الدخيلة .!!

وقد تأثر علم الكلام — علم العقائد الإسلامية — تأثراً خطيراً بالفلسفة الإغريقية واشتبكت مسائله بمسائلها اشتباكا كان وخيم العاقبة على الثقافة الإسلامية ، والجماعة الإسلامية ..

وإذا الناحية الإنسانية للعقيدة تذبل وتنكمش ، ثم تستخفى .

وإذا الناحية الإلهية تتعقّد بعد بساطة ، وتتوعر بعد سهولة ، وتصاغ فى قوالب من منطق أرسطو ، بعد ما انضاف إلى مادتها الأصيلة خلط كثير

من الفروض المتمحّلَة ، والأنظار الرديئة جعلت موضوع العقيدة أقرب إلى العنوان الذى اصطلح الأقدمون على تسمية علمها به ، أى : الـكلام !!

وكأن الأقدار أجرت هذا الاصطلاح على ألسنة القوم ، ليـكون رمزاً ساخراً على ما آل إليه تدريس العقائد ، وإرساء دعائمها فى القلوب !!

لقد صار الأمر كلُّه كلاما فى كلام ، أو أحلاماً يتنقل فى أوديتها النيام . .

وجمهور المحققين يرى أن هذا العلم بصورته الأخيرة ، وكتبه القائمة ، أبعد شئ عن تعليم الإيمان ، وشرح الأفئدة ببشاشته ، وربما أفاد المشتغلين به مهارة فى الجـــدل ، وبسطة فى النقاش ، ودُرْبَة على ترتيب المقدمات ، واستخلاص النتائج .

بيد أن دراسة الإيمان ومتعلقاته لا تتحمل الشقشقة ، وتقليب الأنظار ، فى مباحث أدنى إلى الوهم منها إلى الحق .

وقد خامرنى الأسى — من بضع سنين — وأنا ألمح بين العوام بقايا الانحرافات الذهنية فى تصور العقائد ، وتلقى معارفها .

فقد اشتبك بعض البوابين والبقالين فى أحد مجالس العلم حول تفسير استواء الرحمن على عرشه ! وبذلت جهدى فى إطفاء هذا الحوار السخيف ، وطالبت الحاضرين ألا يقفوا عند هذه الآيات وأشباهها وقفة استقصاء وتعمّق ، فذلك ما لا طائل تحته

وإلى هنا والمأساة يمكن ابتلاعها على غصّة ! غير أننى فوجئت بأحد أبطال المعركة الـكلامية يسألنى : عن الرأى فى قصته ؟

وقصته أنه خادم ، أو طباخ فى بيت أجنبى ! وأنه وهو مسلم (!) يُكلَّف يحمل الخمور لسادته ! فهل عليه وزر حامل الخمر ؟ ونظرت إلى هذا الشخص الباحث فيما وراء المادة ، المحامى فى قضية استواء الرحمن على عرشه ، وأحسست تياراً بارداً من الخزى لأمَّتنا ، وعامتنا ، وخاصتنا !!

لله ، ما أقصى الشقة بين الإسلام وأهله ، لقد غَبَرُوا قرونا ما يتعلمون إلا الجهل ، وهاهم أولاء يجنون الثمر المر ، أمسَوْا خدماً للسكارى !!

وحملقت فى الرجل ثم قلت له : ما أدرى لفتواك جوابا !! وكل ما أقوله : أسأل الله لك ولأمثالك العافية ..

وقد كنت حريصاً على إصلاح علم الكلام ، حتى يمكن الانتفاع به فى تربية الأمة على الإيمان .

إذ لا يمكن إصلاح جماعة خرّب الإلحاد جوانبها الروحية ، ولكن يظهر أن الغزو الثقافى كان أسرع منى فى صرف الأجيال الناشئة عن هذا الميراث المهلهل ، ولقد صرفها إلى الفراغ الذى خلقه ، بل إلى الشكوك التى بثها فى كل مكان ، وهزّ بها حقائق الإيمان ..!

وحدة الجماعة الإسلامية

ولم تنجُ العقائد من عقبى الاضطراب الذى أصاب سياسة الحكم .

ذلك أن شهوات الاستعلاء والاستئثار أقحمت فيها ما ليس منها ، فإذا المسلمون قسمان كبيران : شيعة ، وسنة .

مع أن الفريقين يؤمنان بالله وحده ، وبرسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا يزيد أحدهما على الآخر فى استجماع عناصر الاعتقاد التى يصح بها الدين ، وتلتمس النجاة .

وقد يختلف المسلمون فى تقدير الرجال ، ووزن كفايتهم ، واعتبار المؤهلات التى ترشحهم للحكم ، لكن هذا الاختلاف غريب كل الغربة عن أصل الإيمان ، وتآخى المسلمين طرًّا فيه ، وتوحُّد جماعتهم الكبرى عليه .

ومع أنى أذهب فى كثير من أحكامى على الأمور مذاهب غير ما يرى « الشيعة » فلست أعدُّ رأيى دينا يأثم المخالف له ، وكذلك موقفى بالنسبة إلى بعض الآراء الفقهية الشائعة بين « السنة » ..

خذ مثلا القول باختيار الخليفة .

إن أخواننا « الشيعة » يرون : ضرورة انتخابه من بيت النبوة .

ويرى إخواننا « السنة » : أنه يكون من قريش .

والرأى عندى : أن رئيس المسلمين لا ينميه بيت معين ، ولا قبيلة معينة ، وأن أكفأ الناس أحق بقيادتهم من غيره ، دون نظر إلى نسب ، أو جنس ، لكن ما قيمة هذا الخلاف ؟

هب أن حزبى انجلترا — العمال والمحافظين — اختلفت أنظارهم فى طريقة إدارة الحكم ؛ فهل يعنى ذلك انقسام الإنجليز إلى طائفتين متنابزتين متباغضتين ؟

إن ذلك لم يحدث ، لا لشىء إلا لأن القوم أعقل من أن يضخموا التوافه ، أو يدعوها تخدش المصلحة العليا لوطنهم ..

أما نحن ، فإن أضغان الأسر الحاكمة والأسر المحرومة على مر القرون ، هوّرت الجراحات ، وورثت الثارات ، وكانت خاتمة المطاف أن جُعِل الشقاق بين الشيعة والسنة متصلا بأصول العقيدة ! ليتمزق الدين الواحد مزقين ، وتنشعب الأمة الواحدة شعبتين ، كلاهما يتربص بالآخر الدوائر ، بل يتربص به ريب المنون !

إن كل امرىء يعين على هذه الفرقة بكلمة فهو ممن تتناولهم الآية .

« إن الذين فَرَّقُوا دينهم وكانوا شيعاً لستَ منهم فى شىء إنما أَمْرُهم إلى الله ثم يُنَبِّئُهُم بما كانوا يفعلون[1] »

وأعرف أن المسارعة بالتكفير ميسورة فى باب الجدل ، وأن إلزام الخصم بالكفر نتيجة رأى يقول به ، أمر سهل فى حُمَّى النقاش .

غير أننى أسأل : أهذه خطة إصلاح أو خطة صلاح ؟ ؟

هناك مئات بل ألوف من العوام يتعلقون عندنا بقبور الأولياء ، ومن الممكن عدُّهم مشركين بهذا التصرف الغبي وهذه وسيلة سريعة لهدم الأمة .

أما ابن غيرتى فى الفناء والإرشاد فيذودون الجُهَّال عن هذه الضلالات ، ويردونهم إلى التوحيد الخالص بأسلوب أجدى على الناس ، وأتقى لله .

وقد تجد فى عوام الشيعة من يخوض فى سير السلف الصالحين بحُمْق بين ، والتذرع بهذا إلى استبقاء الفرقة ، وتمكين صفو الأمة ، ليس منهجا

---

(١) الأنعام : ١٥٩

راشدا لمن يجمعون شمل الإسلام وأهله ، بعد ما قطّعه الأعداء الخبثاء ، والأصدقاء الجهلاء . . . ! ! !

* * *

ويسرنى أن تقوم «إدارة الثقافة بوزارة الأوقاف المصرية » بعمل نبيل أرجو أن يكون له أثره البعيد فى رأب الصدع التاريخى الذى أصاب أمتنا الإسلامية

ذلك أنها شرعت فى طبع كتاب « المختصر النافع » وهو كتاب فقهى يضم أحكام العبادات على مذهب الشيعة الإمامية .

وصدور هذا المؤلف من إدارة يقوم عليها علماء أزهريون ، ويشرف على توجيهها وزير سُنّى أمر له دلالته الطيبة ، وهى خطوة لها قيمتها فى جعل الأخوة الإسلامية الدعامة الفذة لما بين المسلمين جميعاً من صلات .

ونقتطف هنا جملا من مقدمة هذا الكتاب :

قضية السنة والشيعة . هى فى نظرى قضية إيمان وعلم معاً .

فإذا رأينا أن نحل مشكلاتها على ضوء من صدق الإيمان ، وسعة العلم فلن تستعصى علينا عقدة ، ولن يقف أمامنا عائق .

أما إذا تركنا للمعرفة القاصرة ، واليقين الواهى ، أمر النظر فى هذه القضية ، والبت فى مصيرها ، فلن يقع إلا الشر .

وهذا الشر الواقع إذا جاز له أن ينتمى إلى نسب ، أو يعتمد على سبب ، فليبحث عن كل نسب فى الدنيا ، وعن كل سبب فى الحياة ، إلا نسبا إلى الإيمان الصحيح ، أو سبباً إلى المعرفة .

نعم قضية علم وإيمان . .

فأما أنها قضية علم ؛ فإن الفريقين يقيمان صلتهما بالإسلام على الإيمان بكتاب الله وسنة رسوله ، ويتفقان اتفاقاً مطلقاً على الأصول الجامعة فى هذا الدين ؛ فإن اشتجرت الآراء بعد ذلك فى الفروع الفقهية والتشريعية ، فإن مذاهب المسلمين كلها سواء فى أن للمجتهد أجره ، أخطأ ، أم أصاب .

وثبوت الأجر له قاطع بداهة فى إبعاد الظنة عنه ، ونفى الريبة أن تناله من قرب أو بعد .

على أن الخطأ العلمى — وتلك سماحة الإسلام فى تقديره — ليس حكراً على مذهب بعينه ، ومن الشطط القول بذلك .

وعند ما ندخل مجال الفقه المقارن ، ونقيس الشقة التى يحدثها الخلاف العلمى بين رأى ورأى ، أو بين تصحيح حديث وتضعيفه ، نجد أن المدى بين الشيعة والسنة . كالمدى بين المذهب الفقهى لأبى حنيفة ، والمذهب الفقهى لمالك ، أو الشافعى ...

ونحن نرى الجميع سواء فى نشدان الحقيقة ، وإن اختلفت الأساليب .

ونرى الحصيلة العلمية لهذا الجهد الفقهى جديرة بالحفاوة ، وإدمان النظر وإحسان الدراسة فهى تراث علمى مقدور مشكور . .

وأما أنها قضية إيمان فإنى لا أحسب ضمير مسلم يرضى بافتعال الخلاف ، وتسعير البغضاء بين أبناء أمة واحدة ، ولو كان ذلك لعلة قائمة ؛ فكيف لو لم تكن هناك علة قط ؟

إن تحطيم الجماعة الكبرى جريمة قد نقبل — منعاً لارتكابها — بعض الهنات ، وقد نتجاوز فى سبيل ذلك عن الكثير والقليل . فكيف يرضى

مؤمن صادق الصلة بالله ؛ أن تختلق الأسباب اختلاقا لإفساد ما بين الإخوة ، وإقامة علاقتهم على اصطياد الشبه ؛ وتجسيم التوافه ؛ وإطلاق الدعايات الماكرة ، والتغرير بالسذج والهمل .

وهب ذلك يقع فيه امرؤ تعوزه التجربة ، وتنقصه الخبرة ؛ فكيف تقع فيه أمة ذاقت الويلات من شؤم الخلاف ، ولم يجد عدوها ثغرة للنفاذ إلى صميمها إلا من هذا الخلل المصطنع عن خطأ أو عن تهوُّر .. ؟

* * *

ولقد رأيت أن أقوم بعمل إيجابى حاسم سدًّا لهذه الفجوة التى صنعتها الأوهام ، بل إنهاء لهذه الجفوة التى خلقتها الأهواء . فرأيت أن تتولى وزارة الأوقاف ضم المذهب الفقهى للشيعة الإمامية ، إلى فقه المذاهب الأربعة المدروسة فى مصر .

وستتولى إدارة الثقافة تقديم أبواب العبادات والمعاملات فى هذا الفقه الإسلامى للمجتهدين من إخواننا الشيعة .

وسيرى أولوا الألباب — عند مطالعة هذه الجهود العلمية — إن الشبه قريب بين ما ألفنا من قراءات فقهية ، وبين ماباعدتنا عنه الأحداث السيئة .

* * *

وليس أحب إلى نفسى من أن يكون هذا العمل فاتحة موفقة لتصفية شامله تُنَقى تراثنا الثقافى والتاريخى من أدران علقت به وليست منه .

وأحسب أن كل بذل فى هدا السبيل مضاعف الأجر ، مذخور عند الله جل شأنه .

وأن الثمرات المرتقبة منه فى عاجل أمرنا وآجله ، تغرى بالمزيد من العناية ، والمزيد من التحمل والمصابرة .

على أنه لن ينجح فى هذا المجال إلا من استجمع خلتين اثنتين : سعة العلم ، وصدق الإيمان .

* * *

وقد اعترض سير العقيدة فى بلادنا شىء آخر ! ، شىء استحدثته الغارة الصليبية علينا فى العصور المتأخرة ! !

والصليبيون الجدد امتازوا عن أسلافهم بتفوّق عسكرى ومدنى ظاهر . وقد رسموا سياسة مُتَأَنِّيَة حذرة لسحق الإسلام ، وخلع جذوره من التربة التى تشبث بها دهراً .

وأغراهم بهذا الأمل أن المسلمين داخوا فى أقطارهم المترامية بعد فساد الحكم ، وقصور العلم على ما أوضحنا آنفا — وأن مظاهر الإعياء ، ودلائل الجهالة العامة ، كانت تنطق بالفرق الشاسع بين أحوالهم ، وأحوال الأمم الغالبة عليهم — وهى أمم كافرة فى نظرهم — أفليس من الممكن استغلال هذا التفاوت للنيل من قيمة الإسلام والحط من شأنه ؟ ؟

إن ذلك ما وقع فعلا ، وقد استطاع الإنجليز بعد ما كسروا المسلمين فى الهند ، وبعد ما أقصوهم عن مراكز السلطة فى بلاد تشيع فيها الوثنية ، وتُقَدَّسُ الأبقار استطاع هؤلاء الإنجليز خلق دين استعمارى جديد ، اسمه القاديانية ، فتنوا به طائفة من المسلمين الهنود ، وشغلوا بهذه المحنة مئات العلماء الذين هبُّوا يكذبون النبوة الجديدة ، ويسفهون صاحبها . والإنكليز ينظرون باسمين إلى نتيجة هذا الصراع .

وماذا فى الدين الاستعمارى الجديد ؟

إنه ينسخ ركن الجهاد فى الإسلام ! وذلك بيت القصيد كما يقولون .

فإن الاستعمار الصليبي يحس أن السدود التى تعوق السياحة فى الأرض تقوم على طبيعة الكفاح فى الإسلام .

فالإسلام دين يأمر ببذل الدم حماية للحق ، ويأمر بالتمرد الدائم على الطغاة ، حتى لا يهدأ لهم بال إذا أتيح لهم انتصار .

والجهاد فى الإسلام كان حركة التحول فى تاريخ الحضارة الإنسانية إبان العصور الوسطى ، فلولاه لظل الرومان باسم المسيحية الكاثوليكية يكبِّلون العالم بقيود من الخرافة والذل ، ولولا ركن الجهاد هذا لنام الاستعمار الغربى الحديث فى فراش وثير ، تجبى إليه ثمرات كلِّ شىء ، وليس له من وظيفة فى العالم إلا أن يصنع الأثرة والبغى ، وتفريق البشر ألواناً ودماء ، تتمادى بالباطل ، وتتنافس على الحطام الزائل وحده . .

فلا غرو إذا بذل الإنجليز وغيرهم جهودا جبارة ، ليخلقوا من أفاك هندى نبياً ، يضع عن المسلمين ركن الجهاد ، ويحط عن كواهلهم أعباء الكفاح ، لتحمل — بدلا عنها — أعباء الضَّمار والمسكنة .

وما دام الطريق قد انفتح لنبي جديد ، فسينفتح الباب على مصراعيه لعشرات الدجالين ، الذين يزعمون النبوة ، ويعطون أنفسهم حق النسخ لكتاب الله العزيز ! !

* * *

ومثل القاديانية البهائية !

وهى أيضاً ديانة حنا عليها الاستعمار ، ومكّن لأتباعها .

وصاحب هذه النحلة كان أجرأ من زميله الهندى فى هدم تعاليم الإسلام ، ونقض أركانه .

فقد نسخ الصلاة ، والصيام ، والزكاة ، والحج ، والجهاد ، واستطاعت الدسائس الاستعمارية أن تحتضن أتباع هذا الدجال الإيرانى ، وأن تحافظ على بقائهم .

وعند ماغاص الرمح اليهودى فى إحشاء العرب بفلسطين — ويد الاستعمار الصليبي هى التى تحركه — ظل البهائيون فى عكا يوالون السلطة الجديدة ، ويشتغلون لحسابها .

ولعل الأوامر كانت تصدر إليهم من محفلهم الأكبر « بنيويورك » .

وأمريكا — إلى اليوم — زعيمة الجبهة الغربية ، التى ترعى الصهيونية ، وتحرسها ، وتسوق لها الأنصار والأموال .

والاستعمار الصليبي دائب على زلزلة العقائد ، وفصل الإيمان عن العمل الشخصى والجماعى

والصحافيون الذين يعملون له ناشطون إلى أداء هذه الرسالة الوضيعة .

فهم يصرفون الشباب عن الصلاة والعفاف ، ويُجَهِّلونهم عن عمد فى حقوق الله ، ويُذْهِلونهم إذهالا عن اليوم الآخر .

أى أن العقيدة — بشقّيْها : الإلهى ، والإنسانى — تعرضت لهجوم شامل ، نظمه الاستعمار الغربى فى خبث ودهاء ! ! والهدف من هذا الهجوم القضاء التام على الإسلام ، والخلاص منه فى كل ميدان .

ونحن نهيب بالمسلمين أن يستيقظوا لإنقاذ أصل الإيمان ، وإنعاش القلوب الميتة بروح العقيدة الصحيحة ، كما جاءت فى القرآن والسنة .

إن حضارة الإسلام نهضت على مهاد من الإيمان الوثيق بالله وباليوم الآخر .

والعقائد الإسلامية هى التى صنعت أجيالا من الناس أوتيت القدرة على تغيير الحياة الإنسانية وترقيتها . وهذه العقائد هى التى تصنع الأخلاق المتينة ، وتبنى الرجولات المحكمة ، وتقهر الأزمات العاتية ، وتجوز العقبات الشداد .

وإذا أفلح الغزو الثقافى فى زحزحة المسلمين عن عقائدهم ، فقد أصابه دينهم فى صميمه ، وماذا يبقى لجسم فقد قلبه ودماغه .

إننا — بتصحيح العقيدة ، والثبات عليها — نصل حبلنا بالله ، ونستوثق من رضاه ، ونعمل وفى أفئدتنا برد اليقين أن العناية العليا ترعانا .

وليس استرضاء الله نافلة يزهد فيها الزاهدون ! ! إننا نريد أن نعمل فى ضمان السماء ، وأن نسير على ظهر الأرض ، وأنفسنا متطلعة إلى رب العالمين .

ويستحيل أن ندع مواريث الحق التى تلقيناها ثم نرتقب خيرا فى عاجل أمرنا أو آجله ! !

إن الحضارة الغربية قد لا تكترث بشئون الإيمان ، أو قد تكتفى بصور باهتة منه تقدمها الكنيسة ، ثم تتكاتف أطماع هذه الحضارة ، وأحقاد الصليبية القديمة على تدويخ المسلمين والإتيان على عقائدهم جملة وتفصيلا . وتلك هى الطامة الكبرى

فإن زوال عقيدة التوحيد ، وما رتبه الإسلام عليها من تعاليم وشرائع ، خسارة ماحقة للإنسانية ، ولأسمى ما فيها من قيم .

لأن تكسف الشمس والقمر ، وتزول السماء والأرض ، أهون من شيوع الشرك ، واستقرار الإلحاد !!!

عمد التربية الصحيحة

لا توجد لدينا سياسة واضحة ولا غامضة للتربية الدينية العامة ، كل ما هنالك بعض المعارف الإسلامية المصحبحة ، أو المشوهة ، أو المختلقة تتنقل بين الناس كيفما اتّفق ، عن طريق درس عابر ، أو قراءة مسلية .

ومن عشرات السنين عزل التعليم العام عن أية ثقافة دينية محترمة ، ثم استُدرك الأمر أخيراً ، فنظمت حصص دينية لتلامذة المرحلة الأولى ، وهذا اتجاه محمود .

وإن كان سوق بعض المعلومات الدينية شيئاً غير التربية الدقيقة ، التى تهيمن على السلوك ، وتصوغ المثل العليا ، وتغرس فى الدم عواطف معينة ؛ تجعل المرء يقرأ تاريخه فى الماضى ، ويعرف رسالته فى الحياة ، وكأنه يتحسس طريقه هو للمستقبل ، ويتعرف الهدف الذى يكرس له وجوده وجهوده !!

إن اليهودية تفعل ذلك ببنيها ، وكذلك الصليبية ، بينما حُرِم الإسلام — بعد ما سقطت دُوَلُه فى براثن الاستعمار — هذه الوسيلة ، لامتداد حياته ، وحفظ كيانه ...

وقد كان المسلمون — أيام ضعفهم — متشبثين بضروب من التربية ، كان لها أثر قوى فى المحافظة على حياة الإسلام ، برغم العلل المميتة التى اكتنفت مسيره السياسى فى الداخل والخارج .

ومع أن هذه التربية تسربت إليها أغلاط خطيرة ، إلا أنها على كل حال تلقَّفَتْ واجباً كاد يسقط على الثرى ، فأدته فى حدود ما تعى وتملك .

ولرجال التصوف باع طويل فى هذا المضمار ، وعندما نضع جانباً ، البدع والخرافات التى روّجوها ، نجدهم أفلحوا فى تكوين أجيال على قدر ملحوظ من دماثة الخلق ، وحسن السيرة ، وتقوى الله ، وعلى قدر ملحوظ أيضاً من

إعزاز الإسلام ، والدفاع عنه ، والاستشهاد فى سبيله . وإن كانت عواطفهم تلك لم يصحبها بصرٌ نافذٌ إلى الوسائل الصحيحة ، والخطوات الراشدة .

***

ذلك ولكى نصل إلى مستوى عال للتربية المنشودة يجب أن نصون أولا العقائد ، ونستبقى لها قداستها .

فإن الإيمان بالله واليوم الآخر ، والطمأنينة المطلقة إلى ما جاء عن الله ورسوله ، أسس مكينة للتربية الكاملة ، بل إن أنواع السلوك ترتبط بالعقيدة كما ترتبط العربات بالقاطرة الدافعة .

فإذا لم يكن هناك إيمان يشد إليه حركات المرء وسكناته ، فإن المكان سيخلو لسائر الموجهات والمحركات الأخرى ، أى أن المجال سينفسح للشهوات والأهواء ، أو للغرائز والحاجات .

وعند ما أستعرض الحاضر الإسلامى فى البيئات التى خَبَرْتُها ، أجد ثماراً مريرة ، نتجت عن خلوّ البيئات من غراس الإيمان الراق ، وترك الأرض الفضاء تنمو فيها الطفيليات ، والأعشاب السامّة . . !

عند ما يُزْرَع الإيمان فى القلوب ، تجد الجنى متشابهاً فى السلوك العام ، لاتحاد البذور ، واتحاد الجو الذى تصح فيه وتترعرع .

أما إذا أُقْصِىَ الإيمان ، عن ميدان التربية ، فإن السلوك يتفاوت تفاوتاً كبيراً حسب المؤثرات الآتية :

(ا) اختلاف معادن الناس .

(ب) الغنى المطغى .

(حـ) الفقر المنسى .

(د) الامتياز العلمى .

(هـ) الوضع السياسى

وفى الأعصار الأخيرة ، لما خفّت قبضة الإيمان على زمام السلوك ، ومبادئ التربية ، شرع كل امرئ يتصرف فى حياته الخاصة ، ومع غيره ، بدافع من طبيعته ، ومن الظروف المحيطة به ؛ ونشأ عن ذلك انحدار مخوف فى المستوى الخلقى للجماعة الإسلامية .

وإننى لأنظر إلى الأحداث الجارية فى المدن والقرى ، فأرى ما يضيق به الضمير الحىّ ، وما يقشعِرّ له البدن الرقيق ..!

ولئن كان إفلاس المربّين المسلمين سبب خذلان كبير لأمتنا ؛ إن الهجوم الغربىّ على بلادنا زادها بلبلة وَضَيْمَةً ، لأنه هجوم يعمل فى دأب وعناد على تشتيت قوى الإيمان كلما تجمعت ، وعلى غمْر الأرجاء بصنوف الفساد والإغراء ، حتى تَخْرُجَ أجيال تستحلى اللذة فى ظل العبودية الأجنبية ، أو تتقبل الإلحاد ، باسم الحرية العقلية ...

* * *

ولن أتحرج من أن أذكر هنا صوراً للخلل النفسانى الذى نشأ عن عدم وجود تربية حقيقية فى بلادنا .

والآفة الملحوظة فى شتى الصور هى : الأثرة ، واحتباس الفرد داخل إحساسه بنفسه وحدها ، وهو إحساس تحُدُّه من جهاته الأربع المطالب الدنيا ، وهذا الإحساس يمتدُّ رَغَبًا أو ينكمش رهَبا وفق ظروف خارجة عن الإرادة .

إذ أن السلبية شيمة الجماعات المتخلفة ، فهى تسكن ، أو تضطرب مع صحو الجو ، أو غيمه دون أن يكون لها أثر ما فى « تكييف » الجو الذى تحيا به .

فى الأرياف كنت أرى الناس يعيشون فى قاقم من القصور والبلاهة ، يصحبهما عمق — ولا أقول ذكاء — فى طلب ما يحتاجون ؛ والرجال والنساء يجمعهم خطأ التصوّر لمعنى الحيـاة ، ولديهم مجموعات من الأحكام الخاطئة فى شئون الدين والدنيا ..

والنفس الإنسانية لا تحسن إدراك ما حولها إلا بعلوم ومعارف كثيرة ، تجيئها من خارج ، وهى — دون عون خارجى — تعرف كيف تطلب الأكل وكيف تسعى إلى الجنس الآخر ، وكيف تصون وجودها الحيوانى ، بل كيف تشبع أحياناً كثيرة غريزة الاستعلاء والظهور !!

وفى البيئات المتخلفة ، يدور جُلُّ النشاط الإنسانى على هذه المشاعر البدائية ، دون هيمنة لدين ، وإن وجد الدين !!

ولن يخطئنا — للنظرة الأولى — أن نرى جماهير الفلاحين والأعراب ، يديرون مجتمعاتهم على هذا المحور التافه ، وليس الصراع على ضرورات العيش هو الذى يصبغ علاقاتهم — مع الضنك الواقع بهم — وإنما هو الصراع على ما يسميه علماء النفس « الشعور الإيجابى بالذات » .

فالغيبة التى تفشو فى مجالسهم ، والخصومات التى تُرخِصُ دماءهم ، والعادات التى ترهق أعصابهم ، وتريق أموالهم ، تلك جميعاً مظاهر لعلة واحدة ؛ رغبة النفس فى إثبات وجودها فى نطاق الأساليب التى يمليها ضعف المعرفة ، وخطأ الحـكم ...

وبدهى أن ذلك لن يتجاوز نطاق الأثرة المضروبة على سائر التصرفات الشخصية !! ..

وإنك لترى المرأة فى الريف تربى ولدها اليتيم ، وتظل السنين الطويلة

تعلمه من قتل أباه ، وتلهب جذوة الحقد فى فؤاده ، ليستطيع يوماً أن يثأر لزوجها الذاهب .

وإن جسمها ليرتعش للذكرى ، وإن صوتها لينطلق بزغاريد الفرح ، يوم يجيئها النبأ : أن ابنها انتقم لدم أبيه ، وإنها لتشيع ولدها إلى السجن بعد ذلك ، وكأنها تشيعه لميادين البطولة !!

وهذه المأساة من ألفها إلى يائها تقع والبلاد محتلة بالأجانب المعتدين ، قتلة الوطن وأعداء الدين ، وما يشعر الوالد ولا الولد ببعض هذه العاطفة المتقدة ضد من استباحوا البلاد والعباد .. !!

ومثل هذه الأحوال يستحيل أن تسود أمة ارتفع مستواها العقلى ، ونضج فيها الوعى الجماعى ، وقبل ذلك نقول : يستحيل أن تسود أمة ، درست القرآن الكريم ، وفقهت السنة المطهرة ، وأشربت حياتها ضياء الإسلام !!

إن هذه طباع الجاهلية مع فرق يذكر هو أن الجاهلية الأولى — وإن ضمت أعرابا كالإبل الشاردة — كانت أرجح فكراً ، وأحمى أنفاً ، من جاهلية ألوف المسلمين اليوم !!

* * *

وتدع الريف إلى المدن ، خصوصا بعد أن غلبت عليها قشور المدنية الغربية ، فماذا ترى ؟

الانزواء النفسانى الضيق ، والأثرة عينها ، وانشغال كل امرئ بقضيته الخاصة ،

أما مظاهر الحضارة التى ترى فى الأزياء والأحياء ، فهى مجلوبة فى غير موضعها كما تجلبُ باب قصر شاهق إلى خص مبنى بالقش والجص .

أؤم الجماعات فى المساجد أحيانا ، فأرى وراء الصفوف أشخاصا منعزلين ، يقفون فرادى فى منظر يدل على التقطع والشذوذ ، فأناشدهم أن ينضموا إلى إخوانهم ! وكان ينبغى أن تكون نية العبادة ، ورتبة الإمامة ، وروح الصلاة ، أسبابا تجعل هؤلاء يسرعون بالاستجابة ! ! وهيهات ! !

إنها تعجز عن أى تغيير فى طبيعة البلادة التى تقيد حركاتهم ، وتجعل النصح كأنه موجه إلى غيرهم ! ! ! فإذا لمحت الصفوف نفسها وجدت أقلها مرصوصاً مستقيما ، وأكثرها معوجًّا مضطربا ، وذلك برغم الالحاح فى ضرورة النظام والتكتل ! !

فإذا علمت أن رسول الله يقول : « استقيموا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم [١] » علمت أن السر فى تفكك الأواصر الاجتماعية يعود إلى هذه المشاعر المنعزلة الباردة ، وعلمت كذلك السر فى أن الجماهير التى تركب العربات والسيارات لا تحترم نظام الصف ، ولا تحرص على أخذ دورها فيه ؛ كلٌّ لا تهمُّه إلا نفسه ، ولا يتعلق إلا بمصلحته ، ثم هو من قبل وبعد مذهول عن مصالح الآخرين ، وما لهم من حقوق ! !

* * *

وعاطفة الجوار بين سكان البيت الواحد معدومة . والبيوت الآن تضم أسرا كثيرة ، ولو أن روح التعاون والألفة سادتهم ، لحققت لهم خيرا كبيرا فى معايشهم بله ثواب الله ! !

لكن الجيران فى المدن بعداء عن هذا المعنى النبيل ، وأفضل أحوالهم الغربة التى تجعل كل بيت يتقى شر الآخر ، أو المجاملة السطحية ! !

---

(١) المنذرى .

أما التعاطف الإيجابى ، والتكافل الحقيق ، فهو ما لا تفكير فيه ، ولا إقبال عليه .

والغريب أن الإسلام يجعل الجوار عاطفة مشتبكة مع عاطفة القرابة والرحم ، ويقول الرسول :

« مازال جبريل يُوصينى بالجار حتى ظننتُ أنه سيورِّثه [(١)] »

وليس الجار الحقيق بالتواصل والمودة هو المسلم وحده ، بل اليهودى والنصرانى ؛ وقد كان عبد الله بن عمر يبعث بهداياه لجار له يهودى .

ولما كنت أسكن شارع الأزهر « الشريف » ، فإن عينى كانت تقع على كلمات يكتبها أصحاب شركات النقل على سياراتهم ، وقد هززت رأسى عجبا وأنا أقرأ على إحدى العربات كلمة « كيداهم » !! فيم الكيد أيها المالك الأحمق ؟

أهكذا تنفسح الشقة بين الشرق والغرب ؟

العقل الغربى يخترع هذه الآلة ، والمصانع الغربية تخرجها قوية لامعة ، ثم تجىء أنت فتلطخها بهذا الهزل ؟

ومَن تكيد عربتك ؟ منافسا يكدح معك على لقمة الخبز . فإذا نالها ، فمن فضلات الأجانب المالكين لناصية الثروات ؟

وقد تجد آخر يكتب كلمة أرق مثل « توكلت على الله » أو « فى رعاية الله » وهى كلمات لا تساوى فى نظرى شيئاً ، إلا وزن دريهمات من الطلاء نقشت على لوح جامد .

إن الإيمان ليس خطا جميلا تزخرف به وجوه المحال ، بل هو جذور

---

(١) البخارى .

تتغلغل فى القلب ، وتمتد فروعها فى السلوك ، وتبدو ثمراتها فى الأخلاق والمعاملات ، وهو ما نفقده فى مجالات التربية عندنا ، وفى صميم الحياة العامة .

وطقوس العبادات يمكن استصحابها مع أسوأ ما فى النفس الإنسانية من أطماع ورذائل ، بيد أن هذه الطقوس لا قيمة لها عند الله ! !

* * *

إن الدين إعلاء حقيق لطائفة من الغرائز الإنسانية ، وتَسامٍ بالنزعة السلوكية فيها ، مع استبقاء أصلها ، إذا كان لابد منه فى تصحيح الحياة . وهو إلى جانب ذلك بتر ، أو كبت لكل طباع الأثرة الغبية الطامسة ، التى تظهر أو تكمن فى شتى الصلات ، وأنواع المعاملات . . .

وقد كان رسول الله يوصى بأن يقبل المؤمن بعض الهضم لحقه الشخصى فى سبيل المصلحة العليا للجماعة ، ففى البيعة المأخوذة من الأنصار . أن يَرْضَوْا ولو وجدوا « أثرة عليهم » .

فما تكون حال جماعة تُطبِقُ على جعل الأثرة الخاصة قاعدة عملها ؟ ؟ ؟

وأرجو إذا وضعت سياسة رتيبة لتربية الجماهير ، أن تراعى فيها الحقائق التالية .

(١) تحسين الحسن وتقبيح القبيح وهذه خاصة لزمت الدعوة الإسلامية عند انطلاقها وامتدادها القديم .

إن من أعظم مواهب الله للإنسان أن يُرْزَق بصيرة تعرف المعروف وتنكر المنكر . ومن أثمن آلائه على أمة أن تؤتى فكراً ثاقباً ، يُحِقُّ الحقّ ويبطل الباطل ذلك أن الطباع إذا فسدت فسد تصورها للأشياء ، وفسدت أحكامها عليها . كالمرآة التى غاض ماؤها ، وانطفأ رواؤها ،

وتساقطت القطع من سطحها وأطرافها ، لا يمكن أن تثبت صورة صحيحة لما يواجهها .

وقد قال الله عز وجل :

« قل : هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا ، الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا . أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا[١] » .

وأغلب النفوس الحائرة ، والجماعات الجائرة ، لها وجهة نظر تستسيغ بها أبشع الأفعال ، فإن الهوى نسج على بصرها حجابا أبعدها عن رؤية الواقع ، وأغراها بالجدل الباطل عما تتوهمه وجعل مذاق الحق فى حلقها مرا ! !

ومن يك ذا فم مر مريض   يجد مرا به الماء الزلالا !!

ولذلك تظل على شرودها ، وعلى أنها منها للإيمان فما تستفيق منهما إلا على صاعقة ،

قال جل شأنه : « ولايزال الذين كفروا فى مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم[٢] »

وحاضر العالم الإسلامى تسود تربيته من هذا القبيل ضلالات شتى ، بعضها انحدر إلينا مع مواريث الانحلال الذى اعترى التربية الإسلامية منذ عدة قرون — وهذا مايجب الاعتراف به .

فكم من جهل سمى علما ، ومن بدعة سميت سنة ، ومن انحراف سمى استقامة ، ومن شهوة سميت دينا ، وهكذا انتشرت بيننا عناوين مزيفة ، ومفاهيم مشوهة ، جعلت المنكر معروفا ، المعروف منكرا

وأمة تخبط فى حياتها على هذا النحو تحرم من التوفيق لا محالة . ! ! !

* * *

---

(١) الكهف : ١٠٣ ، ١٠٤   (٢) الحج : ٥٥

وإلى جانب هذه الموروثات تسربت مع حضارة الغرب المقتحم الفاتح ضلالات أخرى ، زادت الأمة العليلة مرضا .

فالفوضى تسمى حرية .

والعلاقات الجنسية المنكورة تسمى حباً ، أو صداقة .

والكفر بالله يسمى تقدمية .

وإقرار الدنايا فى الخلق والسلوك يسمى واقعية . . . ! ! !

وتضطرب موازين الأمور بين التيارين .

فسجن المرأة من المهد إلى اللحد دين ، وحشرها فى كل ميدان مع الرجل حضارة ، وكلا الأمرين فى نظرنا كذب على الدين ، وكذب على الحضارة .

التعليم الدينى كما يُعْهَد فى الأزهر دين ، والتعليم المدنى كما يُعرف فى المدارس الأخرى حضارة . وكلا الأمرين كذبٌ على الدين ، وكذب على الحضارة .

إن التربية الصحيحة الجدية أكبر شأناً من أن تُحْصَر بين تقاليد الأقدمين المخرفين ، وبين مزاعم المحْدَثين المأخوذين ببريق الفتح ، وانتصار الفرنجة على بلادنا .

وتحسين الحسن ، وتقبيح القبيح ، يتطلب تفجير أنهار من المعرفة ، تروى ظمأ الناس إلى ما يذهب جهالتهم .

ويؤسفنى أن أقول : إن بلاد الإسلام تعرضت لقحط علمىّ مروّع فى مئات السنين الأخيرة .

إن كتل العوام كانت تولد فى الجهل ، وتموت عليه .

أتظن أن جُهْداً كبيراً أو صغيراً بُذِل فى إخصاب الصحراء الكبرى أو استثارة ما فيها من كنوز ؟ إن الشعوب الغفيرة فى بلادنا لقيت أسوأ من هذا الإهمال ، فى رَىِّ نفوسها ، وتحويلها إلى مصادر للخير والخصوبة والفلاح . وفى هذه الجواء القفرة يموت الإسلام حتما . . ! ! !

والتربية الناجحة تعتمد على حقائق مقررة ، ومُسَلَّمات لا تقبل جدلا ، فإذا ساءت البيئة ، وسادت أجواءها الشكوك ، ثم علقت التُّهَمُ بما نزل من السماء ، أو خرج من الأرض ، فهيهات أن تنشأ اجيال يوثق بأدبها وعفافها وعدالتها .

والأرض الإسلامية اليوم فى أمس الحاجة إلى قواعد من التربية تنهض على أصول دينية ثابتة وتشد النفوس إلى عرا الإيمان الراسخ ، كما تُشَد السفن فى موانيها إلى صخور لا تتزحزح .

ومعنى ذلك أن تعود للدين قداسته التى أبعدت عنه عمدا ، فلا يُسْمَح لمرضى القلوب ، أن ينشطوا بين الحين والحين ، لينشروا رِيَباً مفتعلة حول وجود الله ، وبالتالى حول سائر التعاليم الدينية من صلاة وصيام وزكاة ، ومن خلق فاضل ، وتعاون على البرِّ والتقوى ، وتواصٍ بالحق والصبر . . .

إن الأجيال الناشئة ، والشباب المراهق ، والطبقات العاملة ، لا يجوز أبداً تعريضها لهذه الأرياح المنتنة ، فإن استواءها فى منابتها يفسد مع لفح هذه السّموم .

ويمكن فى معاهد خاصة ، ودراسات محدودة ، عرض جميع الشبه التى تفتقت عنها أذهان الملحدين ، وتفنيدها واحدة بعد أخرى .

أما الهجوم على الأطفال والصبية بمفتريات تخلخل يقينهم ، فهذه جريمة ،

وكذلك الخروج على الرأى العام بأفكار تثير فى جوانبه الفوضى ، وتغرى بالتحلل من كل قيد ، والانفلات من كل ربقة ! !

يجب أن تعود للإيمان بالله قداسته ، ولأوامر الله وحدوده قداستها ، وأن نتعهد سلوك الأفراد لنطمئن أبداً إلى قيامهم بفرائضهم الدينية ؛ فلا نأذن بإهدار صلاة موقوتة ، ولا نسمح بتهوين واجب مطلوب . .

كما أن أبصارنا لابد أن تتفتح لمراقبة الطرق التى يسير فيها الشباب ، فكل ما يخدش حياءهم وعفافهم أقصيناه ، ولنُعلِّمْهم فى حزم أن الرذيلة قذارة ، وأن المعصية إخلال بالشرف ، وإساءة إلى الله . . .

* * *

إن لكل مجتمع معالم يقف عندها ، وشعائر يكلف بتوقيرها ، وفى بعض الأقطار التى سادها الإلحاد ، تواضع القوم على أمور يترابطون بها ، ويتلاقون على معانيها ، وينظمون حياتهم بوحيها ومنطقها ، وقبائل العرب فى جاهليتها الاولى كانت كذلك .

ونحن المسلمين لا نبنى حياتنا إلا على اليقين بإله واحد ، ولا نرسم خطوط مجتمعنا وآفاق أنفسنا إلا وفق هدايات هذا الإله الكبير ، كما بلغها رسله الأكرمون ، وكما أوضحها وفصلها كبير هؤلاء المرسلين ، وهو محمد بن عبد الله ! ! !

ومن ثم فلن نقبل ألبتة إشاعة الإلحاد والفاحشة فى حياتنا .

ولن نقبل ألبتة حذف الصلاة والزكاة والصيام من أعمالنا .

ولن نقبل ألبتة إهدار أحكام الله فى مختلف قضايانا ، وسائر شئوننا .

ولن نقبل أبداً أى سياسة تربوية ، أو اجتماعية تخفف من قبضة

الجماهير على دينها ، أو تهوّن عليهم استخفاء متعلقات الإيمان من أرجاء الحياة العامة . . . ! ! !

ونحن نعرف أن الاستعمار دائب على هدم الإسلام بكل وسيلة ممكنة ، وقد سخّر ألوفاً من الناس لتخريج أجيال مزعزعة الإيمـان ، أو لا إيمان لها أصلا .

وما التقت الشيوعية والرأسمالية على شيء التقاءها على تضليل المجتمع الإسلامى ، واجتثاث جذور العقيدة منه ، حتى لا تصح فيه تربية ، ولا تنجح له نهضة ، وبذلك تنهار عناصر المقاومة الجماعية ، أمام المطامع والأحقاد الأجنبية .

* * *

وننقل هنا مثلين اثنين لهذا الكفاح الاستعمارى المستميت .

أحدهما مما تنشره دار روزا ليوسف وهى : يسارية النزعة

والآخر مما تنشره دار أخبار اليوم وهى : رأسمالية النزعة .

الدار الأولى تدعو إلى الكفر بالله .

والدار الأخرى تتم الرسالة فتدعو إلى الكفر باليوم الآخر ! ! !

أما ما نشرته روزا ليوسف ماإليك بعضه :

« هل رأيت الخوف والذهول فى عين الكلب وهو يتأمل ورقة طائرة فى الهواء . . . إنه لا يرى الهواء . . . وأراهن أنه ينظر إلى الورقة كما ينظر إلى مخلوق حى . . . ويظن أن بها روحا تحركها . . . أنه كلب متدين . . (!)

وفى الماضى كان الإنسان أحمق مثل هذا الكلب . . كان يتلفت حوله فى

ذعر ودهشة . . . ويتخيل الأرواح تسكن كل شىء . . . تسكن الصخر . . والبحر . . والحقل . . والجبل . . !! »

ثم يريد الكاتب إغراءنا نحن المسلمين كى نكفر بالله ورسوله ، لماذا ؟ لأن الفرنسيين طلقوا النصرانية ، وكفروا بها فيجب أن نقتدى بهم فى تطليق ديننا . . !!! قال :

« وفى الإحصاءات الأخيرة ... تتكلم الأرقام بأخص مما يتكلم التاريخ .. فبين سكان باريس الذين يبلغون أكثر من اثنين مليون كاثوليكى . . . مائة ألف فقط يؤدون صلاة الفصح ... و بين ٣٤ مليون كاثوليكى فى فرنسا لا يتقدم للاعتراف إلا ٢ مليون فقط . . .

وفى استفتاء قامت به جريدة ديلى نيوز فى لندن اتضح أن ١٣ ٪ من القراء ملحدون وأن ١٥ ٪ ينكرون ألوهية المسيح وأن ٦٠ ٪ ينكرون الصحة التاريخية لسفر التكوين . . . ومن بين عشرة آلاف قارىء لم يؤكد صحة الأسفار الخمسة إلا ٨٨ فقط ! . . .

إن الأديان تمر بمرحلة انهيار تشبه المرحلة التى مرت بها ديانة الإغريق

ثم يقول : « إن كل ما تبقى من الأديان هى الأيام المقدسة التى تحولت الآن إلى أجازات وأيام راحة . . .

إن الله فكرة . . . إنه فكرة فى تطور مستمر كما تدل على ذلك قصة الأديان . . .

الله فى العقل الحديث . . . معناه الطاقة الخام التى فى داخلنا . . .

الله هو الحركة التى كشفها العلم فى الذرة ، وفى البروتوبلازم ، وفى الأفلاك هو الحيوية الخالقة فى كل شىء . . . أو بعبارة القديس توماس ، الفعل

الخالص الذى ظل يتحول فى المكروب حتى أصبح إنسانا . . . وما زال يتحول . . . وسيظل يتحول إلى مالا نهاية . . .

أى أن الألوهية وهم . . . »

ونحو هذا الهدف السافر الكافر تجر الدار « اليسارية النزعة » قراءها ، وتحدو بالحاح ودأب كل ما يمكن أن يبقى فى النفوس من تطلع إلى إيمان ، أو تمسك بإسلام . . .

* * *

ثم تجىء دار أخبار اليوم «اليمينية النزعة» لتخلع هى الأخرى أى تهيب يكون فى القلوب نحو يوم آخر ، ولتقول للناس : افعلوا ما شئتم ، فالحساب الأخروى خرافة ! ! فتنشر تحت عنوان « بعد الموت »

« هل هناك بقاء بعد الموت ؟ أجاب الفيلسوف الانجليزى « برتراند رسل » فى مجلة « يورويك » قائلا : إ إ نحن استبعدنا العصاب الساطى ، فإنى لا أرى أى دليل علمى على البقاء بعد الموت ، فالبقاء بعد الموت ليس له أدنى أساس علمى . وخوفنا من الموت هو الذى جعلنا نقر فكرة البقاء بعد الموت إذ عندما يموت إنسان عزيز علينا ، فقد يكون [illegible] لنا ، أن [illegible] مرة أخرى فى السماء ولكن [illegible] أى [illegible] معقول لأن تهم السموات والسحب ولأن [illegible] كلها [illegible] وآمالنا ورغباتنا . وليس [illegible]

[illegible] شيئا منها ولبس من [illegible] [illegible]

ولا أدرى [illegible] حكمة [illegible] الدس مثل هذه الأفكار .

[illegible] على صدقها .

[illegible]

هذا الهراء الذى يسمى علما ، وهذا الكاتب الذى يسمى فيلسوفا ، هل زاد حرفا أو نقص عما كان يردده صعاليك العرب فى الجاهلية الأولى من عشرات القرون عندما كانوا يقولون : ماهى إلا أرحام تدفع ، وأرض تبلع ، وما يهلكنا إلا الدهر ؟

أو ليس هذا الهذيان التافه هو الذى تناوله القرآن فى معرض الرد والإبطال فى هذا التصوير الدقيق :

«وقالوا : ماهى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يُهلكنا إلا الدهرُ وما لهم بذلك من علمٍ إن هم إلا يظنون . وإذا تُتلَى عليهم آياتنا بيِّناتٍ ما كان حُجَّتَهم إلا أن قالوا : ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين . قل : اللهُ يُحييكم ثم يُميتكم ثم يَجْمَعُكُمْ إلى يومِ القيامةِ لا ريبَ فيه ولكنَّ أكثرَ الناس لا يعلمون . ولله مُلكُ السموات والأرض ويوم تقومُ الساعةُ يومئذ يَخْسَرُ المبطلون . وترى كلَّ أمة جاثية كلُّ أُمَّة تُدعَى إلى كتابها اليومَ تُجزَوْنَ ما كنتم تعملون [1] » . !

بيد أن الرحى تدور بعنف لتطحن بين شقيها هذا الدين ! الشق الأمريكى ، والشق الروسى معا :

وهكذا يتعرض حاضر العالم الإسلامى لحرب ضروس كى لا تقوم فيه قائمة مسلمة ، بعد زعزعة أركان الإسلام كلها بهذا الأسلوب المحقور . !

* * *

إن بعد الماجن أو المفلس ليس موضع طمأنينة عند الكاتب الذى يقول لك :

---

(١) الجاثية : ٢٤ — ٢٨ .

غداً أعطيك ألفاً فإذا نظرت إليه اليوم ، وجدته يعطى الألوف دون اكتراث ، لن تدركك ريبة فى صدقه !

والله — تبارك وتعالى — عند ما يخبر الناس : أنه سوف يحييهم بعد مماتهم . يقول ذلك وهو يريهم فى كل طرفة عين شواهد على قدرته ، وسهولة ما وعد به .

إن الإحصاءات تنطق بأنه فى كل لحظة تدفع فروج الأمهات بعشرات الأولاد . قد سُوِّيَتْ فيهم الأسماع والأبصار ، والأفئدة والملامح ، والأعصاب وسائر الأجهزة الأخرى .

فمَنْ صنع ذلك كله ؟

الآباء أم الأمهات ؟

أم متطفل يهوى إنشاء الأحياء ثم يتوارى على استحياء ؟

إن الغدد التناسلية فى الجسم تفرز السوائل الحية دون وعى منا أو إرادة . فهل نحن الذين خلقنا فيها جرثومة الوجود ؟ :

« أفرأيتم ما تُمْنُونَ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أم نَحْنُ الخالقُونَ . نحن قَدَّرْنا بينكُم الموتَ وما نحن بمسبوقين . على أن نُبَدِّلَ أمثالكم ونُنْشِئَكُمْ فيما لا تعلمون[1] » .

سألنى أحد العامة فى مساجد القاهرة عن الحياة بعد الموت ؟

فقلت له : أتعرف مزرعة الجبل الأصفر ؟

قال : نعم !

---

(١) الواقعة : ٥٨ — ٦١ .

قلت : إن مجارى العاصمة تصب فيها حاملة أقذار وفضلات ٣,٠٠٠,٠٠٠ من النفوس ! إن هذه المزرعة بقدرة واحد ما تتحول إلى جنات تُمِدُّ القاهرة بالقناطير المقنطرة من الفواكه والموالح ، والأغذية والمرفهات !! من الذى وزع الطعوم والألوان والروائح الحلوة ، بل من الذى استخلص أصلها من وسط هذا الحمأ المسنون ؟

إن الحياة بعد الموت أمر عادي جداً بالنسبة إلى الله الذى يحيي ويميت أمام أعيننا بين دقيقة وأخرى ! فما معنى استبعاد ما يقع نظيره كل ساعة ؟ :

« أو لم يَرَوْا كيفَ يُبْدِئُ اللهُ الخلقَ ثم يُعِيدُهُ ، إن ذلك على اللهِ يسيرٌ . قل : سيروا فى الأرضِ فانظروا كيف بَدَأَ الخلْقَ ثم اللهُ يُنْشِئُ النَّشأَةَ الآخرةَ إن اللهَ على كلِّ شىء قديرٌ [١] » .

* * *

والتربية الإسلامية لا تقوم على التعاريف النظرية للفضائل ، أو تحديد الصور الذهنية لمفاهيمها .

والاشتغال بهذا الضرب من الدراسات قد يغذى الفكر ببعض المعارف ، بيد أنه لن يرق ضميراً ، ولن يرفع سلوكا .

وقد شرحنا « علم الأخلاق » فى المرحلة الثانوية ثم فى المرحلة العالية ، واستوعبنا آراء الفلاسفة فى أنواع المقاييس الخلقية ، واستطاع كثيرون أن ينجحوا فى امتحاناتها الصعبة ، دون أن يكون لذلك كله أثر ما فى تهذيب أنفسهم !! .

---

(١) العنكبوت : ١٩ ، ٢٠ .

ولست أوصى بترك هذه الدراسات ، ففى الإلمام بها فائدة أقلها تَتَبُّعُ العقل الإنسانى المجرد ، وهو يبحث — وحده — عن مثل أعلى ، وعن معيار مضبوط للكمال والفضيلة ! .

غير أن هذه الدراسات تشبه التنقيب عن البترول فى منطقة خالية منه ، أو تحتوى على القليل . تحفر الآبار إلى أعماق هائلة ، وتضيع فيها النفقات الباهظة ، وقد نعثر أو لا نعثر على شئ بعد هذا الجهد المضنى .

وجماهير البشر لا تصلح إلا بالطريقة العملية التى اتبعها نبى الإسلام فى غرس الفضائل ، واستئصال الرذائل ، وهى طريقة بعيدة عن المنهج النظرى الخيالى ، وعن البحث الفلسفى الآلى .

إنها طريقة تتجه إلى العلة مباشرة لتحسمها ، وتأخذ السبيل إلى النفس من أقصر طريق ، ومن أحسن ما كُتِبَ فى شرح هذه الخطة هذا المثال للأستاذ « البهى الخولى » .

* * *

(١) [illegible] . (٢) الخير والشر .

(٣) الحق والباطل . (٤) الحسن والقبيح .

(٥) الحلال والحرام .

[illegible] وجود [illegible] لا [illegible] الإنسان [illegible] وتسمع بالأذن [illegible] الأول [illegible] ؟

عليك أن تتجنب تحليل هذه المعنويات ، والتكلم عن معانيها التجريدية وفلسفتها النظرية ، وأن تكف عن الجرى وراء الفروض والتخمين ، وأن تكتفى بتناول صورها ، وآثارها العملية . فذلك هو الذى يراه الناس ويعقلونه ويتأثرون به وهو الذى تتقرر به عواقبهم فى دنياهم وأخراهم .

ونحن نتعلم هذا من القرآن الكريم ، فانظر مثلا حين أراد الله عز وجل أن يتحدث عن صفات فاضلة تخلق بها قوم فاستحقوا رضاه ، لم يذكر أصلها وفصلها [illegible] تذكر كتب الأخلاق ، بل سن لنا ذلك السنن الواضح الذى يفهمه كافة الناس [illegible] يظهرها لهم فى صورة [illegible] واضحة فقال : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما . . . والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما [illegible] ساءت مستقرا ومقاما والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا [illegible] آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق أثاما . . . [illegible] ذكروا [illegible] واجعلنا للمتقين [illegible] يجزون [illegible] (١) » .

[illegible]
يورث [illegible] بل تراه كثير [illegible] شديد الظهور [illegible]

---

(١) [illegible] : ٦٣ : ٧٦

يزاحم الشمس فى الوضوح والجلاء ، حتى ليخيل للجاهل أنه ليس شيئا لقربه من البديهة ، وهو فى الحقيقة كل شىء فى بابه .

ولست أريد أن أحلل هنا هذا السياق الجيل ، الذى تجلت فيه هذه الفضائل تجلياعملياً فى مشية أصحابها ، وكلامهم ، وصلاتهم فى ليلهم ومناجاتهم لربهم ، والقصد فى معيشتهم ، والكف عن العدوان والشهوات المحرمة .. الخ ولكنى أريد أن أنص على أن هذا السياق ، له من قوة التأثير ما ينهض الإنسان ، ويحمله على الاقتداء بهذه المثل العملية الفاضلة . . وذلك من أسرار الإعجاز ؛ التى لا طاقة للعقول بالتحقيق فى آفاقها ؛ وفضلا عن سبر أغوارها وأعماقها .

* * *

ومن الطبيعى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أشرب هذا التعليم الحكيم ؛ وطبع على هذا المنهج القويم ؛ فلم يعمد فى تعليم أصحابه إلى الفروض والتخمين بل سار على النهج العملى الذى سنه الله تعالى . ومن طرقه عليه الصلاة والسلام فى هذا :

١ — أن يشير إلى الهيئة الظاهرة للعيان ؛ أو يقف عليها ويستنبط منها ما يريد .

ومن أمثلة ذلك أنه كان يكرر فى أحاديثه المعنى السامى ، الذى يدور حول تقدير الرجال بقيمهم النفسية لا بصورهم الظاهرية ، وكان يقرر هذا تقريراً عمليا يبلغ به قرارة اليقين ، ويطيب له خاطر الفقير والمسكين . . مر به يوما رجل ، فقال لرجل عنده جالس معه : ما رأيك فى هذا ؟ فقال : هذا رجل من أشراف الناس ، هذا والله حرى إن خطب أن يزوج ، وإن شفع أن يشفع .

فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم مر رجل آخر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مارأيك فى هذا ؟ فقال : يارسول الله ، هذا رجل من فقراء المسلمين ، هذا والله حرى إن خطب ألا يزوج ، وإن شفع ألا يشفع ، وإن قال ألا يسمع لقوله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هذا خير من ملء الأرض من مثل هذا (١) » .

ونلاحظ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يختر للمقارنة رجلين متماثلين فى المظهر فقراً أو غنى ، ولو أنه فعل وقارن بين فقيرين ، ثم حكم بأفضلية أحدهما على الآخر ، لكانت المقارنة كافية لتثبيت المعنى ، وكذلك لو قارن بين غنيين ، ولكنه عليه الصلاة والسلام قارن بين غنى خبث باطنه وحسن ظاهره ، وبين فقير طاب باطنه وهان مظهره ، وتلك من اللفتات النبوية الدقيقة ، التى من شأنها أن تظهر لك المفارقة الشاسعة بين هذين الطرفين .

وقال فى هذا المعنى يوماً لأبى ذر أترى كثرة المال هو الغنى ؟ قلت : نعم يا رسول الله .

قال : فترى قلة المال هو الفقر ؟ قلت : نعم يا رسول الله .

قال : إنما الغنى غنى القلب ، والفقر فقر القلب .

فهذه أسئلة ألقاها الرسول على أحد تلاميذه ، وقد أجاب التلميذ على قدر ما يعرف ، فذكر له المعلم الأعظم — صلوات الله عليه — الحكم الصحيح فى الغنى والفقر ، ولكن أتراه اكتفى بهذا ؟ لا ، إنه مضى فى أسئلته الحكيمة المثيرة لرواكد النفس . . قال أبو ذر : فسألنى عن رجل من قريش : هل تعرف فلانا ؟ قلت : نعم يا رسول الله ، قال فكيف تراه ؟ قلت : إذا سأل أعطى ، وإذا حضر أدخل ، قال : ثم سألنى عن رجل من

---

(١) البخارى .

أهل الصفة . فقال : هل تعرف فلانا ؟ قلت : لا والله ، فما زال يحليه وينعته حتى عرفته ، قال : فكيف تراه ؟ قلت : هو رجل مسكين من أهل الصفة .

قال : « فهو خير من طلاع الأرض من الآخر » .

وفى كتب السنة ما يفيد أن هذه المقارنة تكررت بصور مختلفة لتقرير هذا المعنى نفسه

ومما نمثل به لما نحن بصدده ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بالسوق يوماً — والسوق هو الدنيا مصغرة — فأراد عليه السلام أن يبين لهم قدر الدنيا التى أقبلوا عليها هذا الإقبال ، وكانوا قد علموا من قبل أن متاع الدنيا قليل ، وأنها لا تزن عند الله جناح بعوضة ، ولكنه عِلْمٌ يقرر القواعد والأحكام العامة تقريراً تجريدياً ، فأحب عليه السلام أن يقرره اليوم لهم عمليا ، وهم فى زحمة الدنيا ، ووسائل الإيضاح بين أيديهم .

مر عليه السلام وهو بالسوق بجدى أسك[1] ميت ، فقال لمن حوله : أيكم يحب أن هذا له بدرهم ؟ فقالوا : ما نحب أنه لنا بشىء ! وما نصنع به ؟

قال : أتحبون أنه لكم ؟ قالوا : والله لو كان حيا لكان عيبا فيه أنه أسك ، فكيف وهو ميت ؟

فقال : « والله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم[2] »

وكما قرر رسول الله صلى الله عليه وسلم المعنى السابق فى أساليب متعددة من المقارنة العملية ، قرر هذا المعنى بالوقوف مرات متعددة على مثل هذه المناظر التى تعافها النفس .

---

(١) السكك : صغر الأذن ولزوقها بالرأس (قاموس) . (٢) المنذرى .

٢ — ومن طرقه عليه السلام فى تجلية المعانى الدقيقة الخفية ، أن يلفت النظر إلى ما لهذه المعانى من آثار محسوسة فى القلب ، لا تخفى على الإنسان .

سئل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ما الإثم ؟ وما الإيمان ؟ وما البر ؟ . هذه أسئلة عن معان دقيقة خفية ، يطلب بها أصحابها تعريفاً وافياً عن حقيقة ما يريدون ، فبماذا أجاب الرسول عليه الصلاة والسلام ؟ .

ترى لو سئل عن ذلك أحد الفلاسفة ، أو أحد حملة الإجازات العليا من الجامعات الكبرى ، فبأى شىء كانوا يجيبون ؟ .. أما حامل الإجازات العلمية فكان يذهب إلى بطون الكتب ، ليستخرج منها أقوال العلماء ، ويقارن بينها ويفاضل ، ثم يخرج لك ببحث يظنه يرضى ويشفى ، وأما الفيلسوف فيعرفه لك تعريفاً تجريدياً ، يزيد الأمر غموضاً عليك ، وقد يتفضل فيملأ الأفق من حولك تحليلات وتعديلات ، وفروضاً وتخمينات ، مما تخرج منه وأنت تشعر كأنك لم تتصل بشىء مما سألت عنه ، بل وأنت نادم على أنك سألت ! . ولكن انظر يا أخى إلى إجابة سيد العارفين ، وقدوة العلمين — صلى الله عليه وسلم — :

الإثم : إذا حاك فى نفسك شىء ... فدعه ... الإثم ما حاك فى صدرك ، وكرهت أن يطلع عليه الناس .

الإيمان : إذا ساءتك سيئتك ، وسرتك حسنتك ، فأنت مؤمن .

قال وابصة بن معبد : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنا لا أريد أن أدع شيئاً من البر إلا سألت عنه ، فقال لى : أدن يا وابصة ، فدنوت منه حتى مست ركبتى ركبتيه ، فقال لى يا وابصة ، أخبرك عما جئت تسأل عنه ؟ قلت يا رسول الله أخبرنى ؟ قال : جئت تسأل عن البر والإثم قلت : نعم ؛ فجمع أصابعه الثلاث وجعل ينكت بها فى صدرى ، ويقول : يا وابصة ، استفت

قلبك ! البر ما اطمأنت إليه النفس ، واطمأن إليه القلب ؛ والإثم ما حاك في القلب وتردد في الصدر ، وإن أفتاك الناس وأفتوك[1] » .

وما أحب أن أعلق هنا بشيء ، لأني أريد أن تسائل نفسك عن مبلغ رضاك واطمئنانك إلى سداد هذه الإجابة ، التي تصل بينك وبين هذه المعاني بصلات قلبية وثيقة .. فعليك يا أخي بهذا النهج الفطري والعملي ، فإنه نهج يعرض عن كل مالا تأثير له في الموضوع ، ويتناول ألوان الأحاسيس التي هي ثمر ذلك كله والتي يبعث الإنسان بقوتها إلى البر أو الإثم .

وقال عليه الصلاة والسلام : « في القلب لمتان : لمة من الملك ، إيعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله سبحانه ، وليحمد الله ، ولمة من العدو ، إيعاد بالشر وتكذيب بالحق ونهي عن الخير ، فمن وجد ذلك فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم ، ثم تلا قوله تعالى : « الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا ، والله واسع عليم[2] » .

جزى الله عنا مولانا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ما هو أهل له ، بل ما الله أهل له !.. أي نفس هذه يا أخي !! اقرأ هذا الحديث ، بل اقرأ كل ما سبق من أحاديث ، ثم خبرني : ما ذا أراد لنفسه منا ؟ إنها كلها لنا ، فقد وقف حياته يعلمنا ويطهرنا ، ويذود الشيطان عنا ، ويحرص على سعادتنا ، ويقول في صدق وحنان : « إنما أنا منكم كالوالد من ولده » .. ما ذا أخذ رسول الله لنفسه ؟.. لقد خرج من الدنيا ودرعه العزيزة مرهونة عند يهودي على حفنات من شعير ..!

أي نفس هذه ..! إنك تراه يا أخي يعلم هذا التعليم العجيب ، وهو يحرص

---

(١) مسلم .
(٢) البقرة : ٢٨٦

أشد الحرص على تحذيرنا وتنبيهنا . . فللقلب جانبان ، فى كل جانب لمة — واللمة : الشعر الذى يجاوز شحمة الأذن مسترسلاً إلى المنكب — إحدى اللمتين بيد الملك والأخرى بيد الشيطان فهما يتجاذبان القلب من هاتين اللمتين ولكل جذبة منهما خواطر فى الصدر ، فجذبة الملك تبعث خطرات الخير وتصديق الحق بإذن الله ، وجذبة الشيطان تبعث خواطر الشر وتكذيب الحق والشك فيه .

أرأيت يا أخى هذا التنبيه العجيب وهذا التعليم السديد ، الذى يحيلك إلى أعماق نفسك ، ويلفتك إلى الانتفاع بتحليل خواطرك ؟ فمن وجد خواطر الخير فليعلم أنه من الله سبحانه وليحمد الله عليه ، ومن وجد خواطر الشر فليفر إلى الله مستعيذا به من الشيطان الرجيم : « الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا ، والله واسع عليم[1] ».

وإننى ياأخى أدعوك معى إلى الاستغراق فى الإعجاب التام بجمال التعليم ، وبجمال الرحمة فى قلب النبى — صلى الله عليه وسلم — فرحم الله عبداً أدام الإصغاء إلى هواتف قلبه ، فما كان من هواتف الخير استجاب له وأمضاه ، وما كان من هواتف الشر قمعه بالمجاهدة والتطهير والفرار إلى الله سبحانه وتعالى .

٣ — وصف هذه المعانى الفطرية بأقرب اوصافها العملية ؛ التى تبين أو تمثل حقيقتها ؛ على أن يكون هذا الوصف مرغباً أو منفراً . . .

فالذى يسأل الناس مثلا إنما يذهب بهاء وجهه ؛ وأكرم شىء على الإنسان وجهه ، فانظر كيف يصور رسول الله صلى الله عليه وسلم المسألة تصويراً يصد عنها وينفر منها . . . قال عليه الصلاة والسلام : « لاتزال المسألة بأحدكم حتى يلقى

---

(١) البقرة : ٢٦٨

الله تعالى ؛ وليس فى وجهه مزعة لحم[١] » . وقال : « إنما المسائل كُدوح يكدح بها الرجل وجهه ؛ فمن شاء أبقى على وجهه ومن شاء ترك[٢] » .

وقال على كرم الله وجهه : قلت للعباس : سل النبي يستعملك على الصدقة ، — أى يكون من الأمراء الذين يشرفون على جبايتها ويأخذون أجراً عليها — فسأله ، فقال عليه الصلاة و السلام : « ما كنت لأستعملك على غسالة ذنوب الناس[٣] » .

وهذا الوصف حق ؛ لاحظ فيه النبي عليه السلام ؛ معنى قوله عز وجل : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها[٤] » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « الجمعة — أى صلاتها — حج المساكين » . وهو وصف صادق يلم بحقيقة الجمعة من هذا الوجه خير إلمام ، فالمساجد بيوت الله ، والكعبة المشرفة بيته عز وجل ، ولكنها تمتاز بأنها أعظم البيوت قدراً وبركة . . . فالحج إلى المساجد يوم الجمعة لزيارة الله ، كالحج إلى زيارته عز وجل فى بيته المعظم ، مع مراعاة أن الفرق بين حج المساجد وحج البيت الأكبر ، هو كالفرق الشاسع بين حرمة المساجد العادية وحرمة بيت الله الحرام . . . لكن الله عز وجل بفضله وكرمه يطلع على المساكين من عباده ، الذين تقعد بهم حالهم عن الحج الأكبر ، فيكتب لهم عن كل جمعة يؤدونها ثواب حجة كاملة ، فطوبى للمساكين ، عيال الله فى الأرض ، وأولى الناس برعايته وحمايته ! فاللهم ارحمنا برحمتك إياهم ، واجعلنا منهم واحشرنا فى زمرتهم ، تحت لواء رسولك الكريم .

ويقول عليه السلام : « إن المؤمن ينضى لله شيطانه كما ينضى أحدكم بعيره فى السفر » .

---

(١) الترمذى .
(٢) أبو داود .
(٣) تيسير الوصول .
(٤) التوبة : ١٠٣

وما نرى وصفاً أصدق ولا أبين من هذا الوصف ، الذى يشرح اجتهاد المؤمن فى سفره إلى الله عز وجل ، فإنه سفر يبادر فيه بالطاعات والباقيات الصالحات ، ويتحصن فيه بدوام الذكر ، فلا يجد شيطانه فرصة للقبض على عنانه وتحويله عن غايته . . .

ولكل إنسان شيطان يلزمه من مولده إلى مماته ، كما يقول عليه السلام ، وشيطان المؤمن الجاد فى سيره يلهث من وراء صاحبه حتى يلحقه الضنى والهزال ، وليس أطيب لقلب المؤمن من هذا الوصف ، ولا أبعث منه على مضاعفة الجد والحذر .

هذه أحاديث تتناول وصف بعض الرذائل ، ووصف بعض الفضائل سقناها على سبيل التمثيل لأسلوب الدعوة إلى الله ، وهى أوصاف تمتاز بميزتين أصليتين : الصدق التام فى بيان الحقيقة ، وإثارة شعور البغض أو شعور الرضى إثارة قوية تنفر من الرذيلة ، أو تستحث الهمة إلى الفضيلة .

وحذار أن تظن أن هذه أوصاف وضعت كيفما اتفق وبقصد الترهيب والترغيب فقط ، هيهات هيهات ! إن هذا شأن البشر العادى ، أما رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ، فانه لا ينطق عن الهوى ، ولا يحدث إلا بميزان ، فهو الوصف الصادق الذى يقتنص الحقيقة ويضعها بين يديك . .

أقول هذا ، حتى لا يترك أحدنا لنفسه الحبل على الغارب ، فيصف الفضائل بما يشاء من الأوصاف الحسية التى تحلو فى بيانه الصناعى ، ويصف القبائح بما يرضاه الفن الدارج . . . لا ، إننا نصف الحق ، فعلينا أن نستق هذه الصفات من المصدر الذى تعلمنا منه . . الكتاب والسنة ، فإذا عدوتهما لحقك الخطأ ، وظهر التناقض فى كلامك بعد قليل . . هذا شأن الورعين فعليك به ، والتزم منهاجهم فى كل وصف تريد أن تقرب به حقيقة من الحقائق إلى أفهام الناس وقلوبهم .

ولنضرب لك مثلا من كلام السلف تنسج على منواله إن شاء الله ، فتلا يقول عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : شيطان المؤمن مهزول . وهو وصف يأخذ من معين الحديث الذى سقناه منذ قريب . . . ويقول فى هذا المعنى نفسه قيس بن الحجاج : قال لى شيطانى : « دخلت فيك وأنا مثل الجزور . فصرت الآن مثل العصفور ، قلت : ولم ذاك ؟ قال تذيبنى بذكر الله » . .

فهى محاورة تصور ما بين المؤمن وشيطانه ، بحيث لا تعدو ما أوضح رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك .

وهاك مثلا آخر ، وهو يأخذ من معنى الحديث الذى يصف الصدقات بأنها غسالة ذنوب الناس : قال أسلمُ ، مولى عمر بن الخطاب رضى الله عنهما : قال لى عبد الله بن الأرقم : دلنى على بعير من العطايا ، أستحمل عليه أمير المؤمنين — أى يطلبه من أمير المؤمنين ليحمل عليه أثقاله ويقضى مآربه — قال أسلم : فقلت له : نعم ، هذا بعير من إبل الصدقة فخذه . . وهنا قبض عبد الله بن الأرقم عضلات وجهه مستنكفاً لأنه كان يرجو جملا من الغنائم . أو مما شرى أو حبس للمصالح العامة ، فقال لأسلم يصور له إعراضه عن جمل الصدقة : أتحب لو أن رجلا بادناً فى يوم حار ، غسل ما تحت إزاره ورفغيه (إبطيه) ثم أعطاكه فشربته ، قال أسلم : فغضبت ، وقلت : يغفر الله لك ، لم تقول لى مثل هذا ؟ قال : فإنما الصدقة أوساخ الناس يغسلونها عنهم .

هؤلاء يا أخى كانوا ينظرون إلى كلام رسول الله بالمنظار المكبر ، أستغفر الله ، بل بالمنظار الذى يرى المعانى على حقيقتها كبيرة عظيمة ، منظار القلب المتدبر الواعى ، ثم يأخذون من قلوبهم ما يشاءون ، فيتصرفون فيه على ما رأيت .

جمعنا الله وإياك على الحق الذى اجتمعوا عليه ، وهدانا سواء السبيل إنه قريب مجيب !

التجديد والاجتهاد

القرآن الكريم هو الدستور الأول للإسلام ، ومحمد — الذى وصل لنا هذا الكتاب — هو الفقيه الأول فيه ، والمفسر الأول له ، والمنفذ الأول لكل ما حوى من تعاليم !!

ومن ثم فإن قوله وعمله ، وتقريره وحكمه ضميمة تؤخذ مع هذا الكتاب ، وتعد مصدرا ثانيا للإسلام .

فإذا اختلف علينا الفهم ، وتشابهت أمامنا الطرق ، فالمرجع الفذ لتحديد المعنى ، وتوضيح المنهج ، هو قول الله تبارك وتعالى ، ثم سنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم .

ومحمد فى أمر الدين لا يجىء بشىء من عند نفسه .

إنه رسولٌ سامق المكانة ، أُلهِمَ الحقَّ ، ورزق العصمة ، وجُنِّب الخطأ فما يميل مع الهوى فى دعوة ، ولا تجور به الطريق فى سيرة .

ويستحيل أن يتقوَّل على الله ما لم يقل ، أو يلزم الأمة بتكاليف لم يسندها الوحى الأعلى :

« ولو تقوَّل علينا بعضَ الأقاويل ، لَأَخَذْنَا منه باليمين ، ثم لقطعنَا منه الوتينَ ، فما منكم منْ أحدٍ عنه حاجزين ، وإنه لتذكِرَةٌ للمتقين[1] » .

والقارئُ لأصول الإسلام يعلم بسهولة : أن الإسلام كتبت لأحكامه الخلود ، وأن الله تأذَّن أن يكون قرآنه هذا آخر وحى ينزل من السماء ، وأن يكون محمد هذا مسك الختام فى سلسلة الأنبياء . . .

وبذلك لن تتغير آية ، ولن ينسخ نص ، ولن يبدل حكم ، ولا يؤذن لبشر فرد ، ولا لجمع من الناس أن يتدخل فى وحى الله بزيادة أو نقص .

---

(١) الحاقة : ٤٤ — ٤٨ .

لقد انتهى كل شيء :

« وتمَّتْ كلماتُ[١] ربّك صِدْقاً وعَدْلاً ، لا مُبَدِّلَ لكلماته ، وهو السميعُ العليمُ[٢] » .

العقائد والعبادات ، والأخلاق والأحكام ، والحدود التى استبانت معالمها فى الكتاب والسنة هى هداية الله لخلقه ، وكل محاولة للبتر ، أو الإضافة ، أو التحوير فهى خروج على الإسلام ، وافتراء على الله ، وافتيات على الناس ، وتهجم على الحق بغير علم .

وليس يقبل من أحد بَتَّةً أن يقول : هذا نص فات أوانه ، أو هذا حكم انقضت أيامه . أو أن الحياة بلغت طورا يقضى بترك كذا من الأحكام أو التجاوز عن كذا من الشرائع . فهذه كلها محاولات لهدم الإسلام ، وإعادة الجاهلية . . . !

وقد وردت عن الرسول آثار تفيد : أن الله يوفق لهذه الأمة من يجدد لها دينها .

فلنعلم أن تجديد الدين لا يعنى ارتكاب شيء من هذه المحاولات المنكورة.

بل تجديد الدين يعنى توضيح ما أبهم الجهل من تعاليمه ، وتمكين ما زحزح التهاون من أمره . وحسن الربط بين أحكامه وبين ما تُحدِثُ الدنيا من أقضية ، وتنزيل أحوال الحياة المتغايرة على مقتضيات القواعد العامة ، والمصالح المرسلة . .

ولم يفهم أحد من العلماء الأولين أو الآخرين أن تجديد الدين يعنى تسويغ البدع ، ومطاوعة الرغبات ، وإتاحة العبث بالنصوص والأصول لكل متهجم.

---

(١) على قراءة .
(٢) الأنعام : ١١٥

غير أن عصابة من الناس درجت فى هذه الأيام على إثارة لغط غريب حول إمكان ما يسمونه « تطوير » الدين ، وجعل أحكامه ملائمة للعصر الحديث ! !

ومن المدهشات أن عالماً أزهرياً كتب للسيد سلامة موسى كلاماً فى هذا الموضوع جاء فيه :

* * *

« قلتم فى ختام التعقيب على كلمتى يوم الأحد الماضى : ومن هنا نفهم قول برناردشو : إن الدين يحتاج إلى التنقيح مرة كل مائة سنة على الأقل حتى يجارى التطور . . أى حتى يتطور » .

وهذه الكلمة التى قالها برناردشو ذكرتنى بحديث شريف قاله رسول الإسلام محمد بن عبد الله منذ مئات الأعوام ونصه كما روى الإمام أحمد :

« إن الله عز وجل يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة رجلا يقيم أمر دينها » وفى بعض الروايات « يجدد أمر دينها » .

وعجيب ذلك التوافق بين الحديث المحمدى وكلمة برناردشو فى تقدير المدة بمائة سنة ، حيث تمس الحاجة إلى التجديد والتنقيح مجاراة للتطور .. !!

وبهذه المناسبة أقول إن بعض الباحثين المعاصرين فى « نشأة الأديان » قسموها قسمين :

أولها : قسم الأديان المحدودة الأفق التى لا مصدر لها إلا الخوف والتنازع على البقاء ، وهذه أديان لا يرجى لها تطور ، ومن هنا انقرضت أو كادت تنقرض ، وقد وصفها « برجسن » فى أحد مؤلفاته بأنها : أديان خامدة . .

وثانيهما : قسم الأديان الواسعة الأفق ، التى تصدر عن أسمى عواطف المحبة والإنسانية ، وأعنى بها اليهودية والنصرانية والإسلام .

وهذه أديان قابلة للتطور والتجدد ، بما فيها عن عناصر البقاء ، ومقومات الحياة .

وطبيعى أننا نعنى بالدين هنا ناحيته التشريعية المرنة السمحة ، لا ناحيته التعبدية الصرفة ، وقد قرر المؤتمر الدولى للقوانين فى لاهاى بهولندة عام ١٩٣٧ أن :

« الشريعة الإسلامية تحمل العناصر الكافية التى تجعلها صالحة للتطور مع حاجات الزمن والمدنية » .

والزمن وحده كفيل بتطور كافة الأديان والشرائع ، وتطوير نظرات الناس إليها وإلى ما يصدر عن ممثليها من قرارات أو أحكام أو فتاوى . .

فقرار الحرمان الذى أصدره البابا فى يونيه سنة ١٩٥٥ ضد الجنرال بيرون الرئيس السابق للأرجنتين تناولته معظم الصحف فى العالم بالسخرية المرة . والتهكم اللاذع . .

أما قرارات الحرمان منذ مائة سنة تقريباً فكانت لا تقابل إلا بالتقديس والإجلال ، ولا سيما من الكاثوليك والأرثوذكس ، على الرغم من أن « قرارات الحرمان » ترجع فى أصلها إلى بعض التقاليد اليهودية القديمة . . !

وما أكثر ما عاناه « تولستوى » من الناس عقب القرار الذى أصدرته الكنيسة الأرثوذكية بحرمانه ، لأنه لم يؤمن بألوهية المسيح . . . !

وما أكثر ما عاناه « أرنست رينان » أيضاً عقب حرمان الكنيسة الكاثوليكية له ، لأنه أخرج عن المسيح كتاباً وصفه فيه بأنه إنسان عظيم .

« وقرار الحرمان » الذى أصدرته « هيئة كبار العلماء » بالأزهر

الشريف ضد الشيخ على عبد الرازق فى قضية « الإسلام وأصول الحكم » فى ١٢ من أغسطس سنة ١٩٢٥ ، قابله الجمهور فى ذلك الحين بالتبريك والتأمين .

حتى لقد سارع أحد الأثرياء من المسلمين بطبع هذا « القرار » على نفقته الخاصة ، وكتب على الغلاف العبارة الآتية : هذه هى هدية مجانية لوجه الله تعالى ، من أحد المسلمين لإخوانه فى جميع الأقطار . . .

ولو أن مشيخة الأزهر اليوم جرؤت على إصدار مثل هذا القرار ضد أى مسلم ، فضلا عن أى عالم أزهرى ، لما قوبلت الا بالاستياء والاستنكار من الجميع ، وما ذلك إلا لأن الزمان اليوم غير الزمان الأمس ، ولن يرجع عقرب الساعة إلى الوراء ، لأن التطور له حكمه القهار حتى على الصخور — كما قرر علماء الجيولوجيا — بل حتى على الطباع — كما قرر علماء الاجتماع — وما أروع آية التطور القرآنية التى لا تعترف بالبقاء إلا للأصلح :

« فأما الزبدُ فيذهب جُفاءً ، وأما ماينفع الناسَ فيمكث فى الأرض[1] ».

* * *

وهذا الكلام يضم فى طياته جملة من الأغلاط العلمية والتاريخية ، يكتشفها أهل العلم للنظرة الأولى .

ولولا أن الغزو الثقافى جعل له رواجاً ، وسخر له أتباعاً ، ما عنينا بإثباته والرد عليه !

وما العمل إذا كانت مزالق الإنسانية الكبرى لا تجيء إلا من الأغلاط الصغيرة ؟ .

---

(١) الرعد : ١٧

أتظن عبادة البشر ، وتقديس الأوثان ، أموراً غامضة البطلان ، أو قائمة الشبهة ، حتى يتملق بها الألوف ، ويدافعون عنها بالدماء ؟

كم من كلام مدخول وَجَد من ينشره ، ومن يريد حمل الناس عليه ! ومع ذلك فلن نسأم من إحقاق الحق ، وإبطال الباطل ! !

إن شريعة الله ليست مُسوَّدَةً ، تحتاج — على ضوء التجارب المستفادة — إلى نفر من الناس قل أو كثر يقوم على تنقيحها !!

والإسلام كلمة الله الأخيرة إلى عباده أجمعين ، ولا مجال ألبتة لأى إنسان ، كى ينقح شيئاً ما فى رسالته ، لا فى كتابه ، ولا فى سنته .

والتنقيح شيء يغاير التجديد الذى جاء فى الحديث . ولا وجه للشبه بين كلام الكاتب الإنجليزى شو ، وبين المروىِّ عن صاحب الرسالة العظمى!

ثم إن التقسيم المذكور للأديان ليس صحيحاً من وجهة النظر الإسلامية .

فإن المجوسية والبرهمية والبوذية وما إليها أفكار أو فلسفات أرضية ، قد يزعمها أصحابها ديانات ، ونحن لا ننازعهم فيما اصطلحوا عليه .

ولكننا نعرف أن هناك أديانا سماوية ، لها كتب ذكرها القرآن العزيز ، ولها أنبياء سماهم .

وقد عرفنا من هذا القرآن — وهو أصدق كتاب إلهى حفظته العصور : أن اليهود والنصارى أهانوا أنبياءهم ، وحرفوا كتبهم ، وتمردوا على وصاياهم .

وأن الإسلام أعاد إلى الوجود التعاليم الصحيحة التى سبق بها موسى وعيسى ، وتنزل بها الوحى فى التوراة والإنجيل ، وبذلك انتفت عن دين الله تخليطات الأجيال ، ومزاعم الأحبار والرهبان .

وأصبح الدين الجديد الذى بُعِثَ به محمد هو الحقيقة العليا التى لا ريب فيها ، فلو بعث موسى أو عيسى ما وسعهما إلا أن يعملا به ، ويدعوَا إليه . . . ؟ ؟ ؟

* * *

ومن هنا ، فكل تسوية بين صليبية اليوم ، وفطرة الإسلام ، فهى جراءة باطلة ، ومجازفة جاهلة ، وإن وقعت من « أزهرى » مسكين ، يحاول أن يكون « عصرياً » . .

والقول : بأن الزمن كفيل بتطوير جميع الأديان والشرائع لغو فارغ ، وإن احتاط الزاعم ، فجعل ذلك مقصوراً على الناحية التشريعية المرنة السمحة . . .

إذ أن الناحية التشريعية فى الإسلام يستحيل أن يُقْبَل فيها رأى يعزل الدولة عن الدين ، ويجعل الأحكام ، وأنواع الحدود والقصاص ، وسياسة الدعوة والجهاد ، من شئون الدنيا التى تتغير أوصافها وقوانينها بتغير العصور .

وقد كتب عالمان من علماء الأزهر هذه الآراء ، فاستنكرت فى حينها ، ولم يقبلها من جماهير العلماء والمسلمين أحد ، وإن هشَّ لها صرعى الغزو الثقافى الحديث ، وروجها بحماس شديد عملاء أوربا الذين يكافحون سراً وعلنا حتى لا تقوم للإسلام دولة . .

والتنديد بمسلك الأزهر ضد هؤلاء العلماء ، وتسمية عمله «قرار حرمان» هزل نلقاه بالأسف . . .

فإن هيئة ما ، من يوم قام الإسلام إلى يوم الناس هذا ، لم تمط نفسها ، ولم يمنحها أحد القدرة على إصدار « قرار حرمان » . . .

غاية ما حدث أن جامعة علمية ، حكمت بتجهيل رجل ينتسب إليها ،

بعدما ارتكب حماقة علمية سيئة ، كما تعاقب نقابة الأطباء أو المحامين عضواً فيها على مسلك لا يليق به ، ولا يشرف الطائفة كلها . . .

والفرق بين عمل الأزهر وعمل غيره من النقابات الأخرى ، أن الأزهر أرغم على التراجع فيما صنع ، حتى يجرؤ على تضليل المسلمين من يشاء ، باسم الإسلام . .

أما قرار الحرمان الذى أصدره « بابا روما » من سنة ، فإن أحداً لم يسخر منه كما يزعم الكاتب ، بل صدر القرار ضد رئيس دولة مادت من تحته الأرض ، ثم لم ير مناصا من الفرار ، بعد ثورة نصرانية طوّحت به .

إن تهوين الإسلام وحده ، وإضفاء حصانة منيعة على الخارجين عليه سياسة مرسومة ، وهى تلبس اليوم ثوب تجديد الإسلام . . وحرية الأخذ والرد لنصوصه . . والترحيب بما نشتهى ، والتجبيه لما نكره . .

وتسأل : من الذى يصنع هذا التجديد المنشود ؟

لقد كان سلامه موسى الملحد أبصر بالحقيقة المرة من الأزهرى الذى كتب له ؛ إذ قال تعقيباً على رسالته الآنفة :

لكننى أذكر أن أحد وزرائنا السابقين صرح بأن « فاروق » هو الذى اصطفاه الله ليجدد الدين وفق حديث الإمام أحمد .

فهل مثل فاروق جدير بتجديد الأديان ؟

وهل تحتاج كل مائة سنة إلى مُثل فاروق ؟ أدعو الله أن يبعد عنا هذا الحظ . . .

هكذا فهم الرجل الذى يكره الإسلام ؛ وهو محق ؛ فإن البحث فى

رسالات الله ؛ وتجديد شبابها ؛ ليس صناعة أفاكين ؛ ولا عبث جُهّال أو محتالين . . .

إن خدمة الإيمان ليس معناها تملّق النسوان بتحريف نص فى القرآن أو تعطيله ، لتتم التسوية المالية والاجتماعية بين الجنسين فى كل شيء . فيقال :

إن نصيب الرجل فى الميراث هو ونصيب المرأة سواء .

أو ، لو جاز للرجل أن يعدد الزوجات لجاز للمرأة أن تعدد الأزواج ! !

هل مسخ التعاليم الإسلامية لتقبل هذا السخف هو تجديد الإسلام ؟

فما يكون إفساد الإسلام إذن ؟ بل ما يكون الإلحاد ؟

إن هناك صحافيين لا يؤمّنون على تسمير الطماطم ، يريدون أن نسمع لهم وهم يتكلمون فى حقائق الإسلام ! !

و الأنكى من ذلك أن بعض الذين منحهم الأزهرشهادات مزوّرة: بأنهم علماء ، يريدون تملق هؤلاء الصحافيين المرتزقة .

فيم يتملقونهم ؟ بتجديد الإسلام ، على نحو يفصله عن الدولة والمجتمع والحياه العامة ، أى بالتمهيد لإدباره ، والتعفية على آثاره ! ! !

* * *

وتجديد الإسلام — كما قلنا — هو إحياء علومه ، والكشف عن جوهره كما نزل من عند الله .

وتجديد الإسلام ، هو هداية الفِطَر أن تلمح بريقه ، وتأخذ طريقه ، وتصون حقوقه بدافع من الحب والرضا والاقتناع .

وتجديد الإسلام ، هو إحكام الصلة بينه وبين قافلة الحياة ، لا ليلاحق

سيرها فحسب ، بل ليشرف على هذا السير ، ويهيمن على اتجاهاته ، وبذلك يكون الزمام لهدايات الرحمن ، لا لهمزات الشيطان .

وتجديد الإسلام هو حفز الهمم لرد العوادى عنه ، وتجلية صور القوة فيه ، وإثارة غرائز الحياة فى بنيه ، حتى لا يهونوا ، وتهون معهم حقائق الوحى الأعلى .

وتجديد الإسلام ليس نقل الدين من مكانه إلى حيث يهوى الناس ، بل نقل الناس من نطاق أهوائهم إلى حيث يرضى الله . .

وقد شغل رجالات الإسلام بهذا التجديد على مر العصور ، كما شغلنا نحن به فى هذه الأيام العجاف ، وعَنانا من أمره ما عناهم ، واسترعى انتباهنا هنا ما جَدّ بعدهم من أحداث ، كان لها أثر كبير فى تقريب الناس أو إبعادهم عن الإسلام .

وللبعد عن الإسلام صور شتى ليست سواء فى فداحة الضرر وسوء العقبى !

فالمعصية — أيا كانت — بُعْدٌ عن الإسلام .

ولكن المعصية فى السر غيرها فى العلن ، وهى من الأفراد غيرها من الجماعات . !

المعصية فى السر يصاحبها شعور بالرهبة من قانون قائم وعقاب مُرْصَد .

وهذا الشعور دليل على أن للدين سلطاناً يُحذر ، ودليل أظهر على أن له معالم لا تحتمل الريبة والتأويل . . .

والمعصية من الفرد خطأ محدود الدائرة ، ومهما كانت جريمة الفرد وسط مجتمع فاضل نقىّ فإن أثرها لا يلبث أن يتلاشى ، ثم يمضى المجتمع على نهجه القديم الموطّد ، كأن لم يعكره شىء .

أما الجريمة التى تواقعها الدولة ، وترتضيها أو تسكت عنها الجماعة

فلها شأن آخر ، شأن يصرخ بأن معالم الحق نفسه قد تشوّهت ، وأذواق العامة قد فسدت .

وأول ما ينتظر لهذا التطور هو اتهام المبدأ الذى تقوم عليه الدولة ، لا اتهام الدولة بأنها خرجت على مبدئها ، خصوصاً إذا كانت هذه الدولة تزعم أن عملها صورة طبق الأصل لدعوتها ، وأن مسلكها ترجمة صحيحة لمبدئها الذى نهضت عليه وتدعو إليه . . . ! ! !

والأمة الإسلامية فى تاريخها الطويل قد اقترفت أخطاء اجتماعية وسياسية ، خرجت بها على نصوص الكتاب والسنة .

وهذه الأخطاء لم تحسب على أنها سياسة ملوك جوَرة ؛ بل حسبت على أنها هدى الإسلام نفسه .

وذاك مثار سخطنا ! نحن الذين نعرف الإسلام من أصوله القائمة لا من أعمال الذين انتسبوا إليه وجاروا عليه .

والحقيقة التى نصحت بها أقوال الأئمة الراسخين فى العلم ؛ أن الطريقة التى سار عليها جمهرة ملوك بنى أمية والعباس وعثمان لم تكن تعبيراً دقيقاً ولا أميناً عن الحكم الإسلامى لا فى الداخل ولا فى الخارج . . .

وأن هذه الطريقة اختلط فيها الحق بالباطل والهوى بالإخلاص والنصح بالغش على نِسَبٍ متفاوتة أشد التفاوت . . . ! ! !

كان العلم بالإسلام والعمل له يبلغ ١٠٠٪ على عهد الخلافة الراشدة .

ثم أخذت هذه النسبة تنحدر وتهوى حتى حكمت باسم الإسلام دول لا تكاد تعلمه أو تعمل به ، ثم هى مع هذه الجهالة الطامسة حريصة على القول بأنها تمثله أصدق تمثيل .

ومن ثم انصرفت شعوب كثيفة عن التفكير فى الإسلام .

ولها العذر فى الصدِّ عنه .

فمن الغباوة تكليف عباقرة الأرض أن يتبعوا الأُمِّيِّين ، أو تكليف الجادِّين المسعودين أن يتبعوا العاطلين المظلومين . . .

إن ابتعاد المسلمين عن الإسلام شمل — على مر العصور — كثيراً من نواحيهم الاجتماعية والسياسية — بل الخلقية — فلا جرم أن يصيروا بعد هذا الابتعاد المستمر إلى حال من الفوضى يضار منها دينهم ، كما تضار منها دنياهم .

* * *

وهذا الابتعاد كما يبدو فى ترك ما أمر الله به ، وفعل ما نهى عنه ، يبدو كذلك فى فعل أمور يُظَنُّ أنها ترضى الله ، وترك أخرى يُظَنُّ أنها تغضبه .

وهذا التديُّن المختلق كان أشد نكاية بالإسلام الصحيح من العصيان الصريح

والفقهاء الناقدون يعرفون أن فى حياة الأمة الإسلامية الآن ركاماً من البدع والأهواء والخرافات قد تحول إلى دين ، وما هو من دين الله فى قليل ولا كثير ! !

ويعرفون كذلك أن هناك طائفة ضخمة من آراء الرجال وأفكارهم ومذاهبهم قد جُمِّدت وأريد لها أن تخلد مع كتاب الله وسنة رسوله على أنها الدين أو التفسير الفذّ له — خصوصاً بعد ما أغلق باب الاجتهاد أوائل القرن الخامس —

وهذه الآراء والمذاهب تجمع بين الخطأ والصواب .

وإلزام المسلمين بها لا أصل له .

ووقوف الفكر عندها وحدها قصور ما أنزل الله به من سلطان .

والفقهاء الناقدون يعلمون أن الشلل الجزئى الذى أصاب العقل الإسلامى فى سياسته التشريعية قد تطوّر إلى شلل عام فى نشاطه الفكرىِّ كله ، وأننا

حصدنا ثمار هذا الموت الأدبىّ هزائم كاسحة اجتاحت بلاد الإسلام من أقصاها إلى أقصاها .

إن القلب ليجِفُ وهو يرمق الآفاق الداكنة فلا يرى هنا وهناك إلا نذر التدمير والإفناء . . . !!!

وقد أجمع العلماء الناصحون للأمة على ضرورة تجريد الإسلام من الأوهام التى لابسته ، والتى أدخلت عليه بحسن نية أو بسوء نية . . !!

حتى إذا صفا الحق وذهب عنه ما شانه وجب الاستمساك به والنزول على حكمه دون تفريط فى ذرّة منه .

هذا وحده طريق الهدى والخير .

* * *

وأحب هنا أن ألفت الأنظار إلى حقيقة هامة ، فقد رأيت بعض علماء الإسلام يتوجس الشر من الحضارات التى نبتت فى أوربا وأمريكا ؛ وكأنه يتهمها جملة وتفصيلا ؛ ويريد أن يقطع كل صلة بين نهضة المسلمين من كبوتهم وبين الإفادة من بعض العناصر الفكرية والعاطفية فى هذه المدنية الجديدة .

وهو يرى أن العودة إلى الإسلام ؛ وتجديد مفاهيمه الدارسة يناقض أى نقل أو اقتباس من الأنظمة الشيوعية أوالاشتراكية أو الرأسمالية .

بل إن هذا الفريق من العلماء المخلصين لدينهم قد تدفعهم الحماسة إلى اتهام إخوانهم الذين لايرَوْن حرجاً من مدّ العين إلى مظاهر التقدم الإنسانى فى هذه الميادين البعيدة . . . ؟!!

وعندى أن الأمر يفتقر إلى بيان وتوضيح .

خذ مثلا قول رسول الله : « كل المسلم على المسلم حرام ، دمه وماله وعرضه[١] » .

إننا إنفاذاً لتعاليم الإسلام نستطيع أن نشرع قوانين جمّة لحماية حقوق الإنسان من هذه النواحى جميعاً ، ولعقاب المتعرضين لها حكاماً كانوا أم محكومين.

لكن الحفاظ على الدم والمال والعرض ليس اختراعاً إسلامياً ، بل هو مبدأ إنسانى عام ، تتواصى به الأجناس والأجيال ! !

فإذا وجدنا قبيلا من الأرض : أيا كان لونه ودينه ، علمته آلام الطغاة أن يُحكم السدود أمام مظالمهم ، وأن يضاعف الحيطة ضد عدوانهم ، وأن يبتكر لذلك من القوانين ، ويصوغ من المواد ما يوفر بين الناس مزيداً من الأمن والعدالة ، فأى حرج فى أن ننقل أو نقتبس بعض أو كل هذه الوسائل التى نراها أجدى فى تحقيق غايات جاء بها ديننا ووصانا بها نبينا ؟ ؟

إن الظلم من شيم النفوس .

وهو فى سياسة الحكم والمال آفة البشر منذ درجوا على ظهر الأرض .

ومهما بلغت زواجر الدين فهى لا تحمى الشعوب نزوات الجبابرة إذا خلالهم الجو ومالت بهم نشوة السلطة . .

وقد تعلمت الأمم أن تضع دساتير دقيقة للموازنة بين السلطات العليا ولضبط العلائق بين الحاكم والمحكوم فى شئون الحياة الثابتة والمتجددة .

فأى حرج فى الإفادة من تجارب الإنسانية طوال بضعة عشر قرناً ربحت فيها ما ربحت وخسرت ما خسرت ؟

---

(١) مسلم .

ومن الذى يقول إن الإسلام يمنع ذلك ؟

إنه بعد مضى نصف قرن على وفاة رسول الله جرؤ حاكم — يتسمّى أمير المؤمنين — على استباحة المدينة المنورة ، ومات على فراشه لم يمسسه سوء !

فإذا كان الإنجليز والفرنسيون قد شنقوا أمثال هذا الحاكم ؛ ثم اتخذوا من الضمانات التشريعية ما يَغُلّ يد الملوك والرؤساء عن فعل هذه الآثام ؛ وسمّوا هذه الضمانات نظاماً ديمقراطياً ؛ فهل الإسلام هو الذى يتنكر لهذه الديمقراطيات ويحجز أتباعه عن تطبيقها ؟ ؟

* * *

وكما عانت الأمم قديماً وحديثاً من استبداد الحكام عانت من سوء توزيع المال ومن أثرة الأقوياء فى حيازته وإنفاقه ؛ ومن تجاهلهم لحاجة البائسين ؛ وقساوتهم على الضعاف وجحدهم للعاملين المرهقين .

وقد ارتقى الحسّ الإنسانى وباع مدى بعيداً فى احترام كيان الفرد وصيانة مستواه المادىّ . وسجل ذلك فى قوانين وتقاليد صارمة .

فمن الذى يصدّنا عن اجتلاب هذه القوانين ، لتمهيد العدالة الإسلامية إلى صحراء الجزيرة ، وإلى جنبات الأمة الممتدة من أندونسيا إلى السنغال ؟

إن الإسلام استهدف العدالة السياسية والاجتماعية يقيناً ، وترك وسائل تحقيق هذه العدالة وفق أطوار الزمان ومصالح الناس .

وإنه لمن معصية الله أن نغلق باب الاجتهاد منذ عشرة قرون وإذا صحونا بعد رقاد مشئوم حسبنا أن العالم نام كما نمنا ، وسدّ منافذ الاجتهاد كما سددنا ثم قررنا أن نستأنف السير عند ما وقفنا . . . أى من ألف عام ! !

دون اكتراث لآثار اليقظة الفكرية والاجتماعية التى شملت الدنيا كلها فى هذه السنين الألف . . ! !

إن الصراط المستقيم الذى ضمن الله عز وجل للسائرين فيه ألا يضلّوا ولا يشقَوْا تتضح معالمه من مُوجِّهين متمايزين .

أولهما إرشاد الوحى الأعلى — وهو ما انفردنا نحن المسلمين بنصوصه فى الكتاب الكريم والسنة المطهرة .

وتوجيهات السماء هذه لها مجالها الذى لا يزاحمها عليه شىء .

ونحن مقيدون بهذه التوجيهات لانستبدل بها غيرها ولانزهد فى أثرمنها .

بيد أن هذا الإرشاد السماوى كما أسلفنا إذا كان قد عنى بالدقيق والجليل فى شئون العبادات فهو فى شئون المعاملات يهتم بالأصول وينيط أمور الناس — بعد — بالمصلحة العامة . . .

وهنا يجىء دور الموجِّه الآخر . هذا الذى يتحرّى الخير لعباد الله فى سياسة المعاش وشئون الدنيا وتحقيق الأصول المجمع على صدقها وسدادها .

ونحن المسلمين لا نفضل أحداً من أهل الأرض بميزة خاصة فى هذا المضمار ، إلا أن نُجهد عقولنا أكثر مما يجهدون ، ونبحث عن الصواب أكثر مما يبحثون . . ! !

فإذا كسلنا ونشطوا ، وتراخينا وجدّوا فهم أولى بالحق منا وأجدر بالتمكين فى الدنيا من أناس جهلوا كيف تساس الدنيا وكيف تدبر مصالحها المرسلة . . .

ولا أدرى لماذا يكره بعض الدعاة هذا الإنتاج الإنسانى الرائع ، وأكثره وليد تجربة صادقة وخبرة طويلة وفطرة أقرب إلى السلامة ؟

* * *

هذا وقد قرأت بعد ذلك للأستاذ « محمد المدنى » بحثا نفيسا جاء فيه :

« أن هدايات الله أفادت أنه لا يسوغ التحريم إلا من الشارع ، وأن ما سكت عنه الشارع فهو عفو لا يجوز الحكم فيه بتحريم ، فإذا وجدنا معاملة من المعاملات ، أو عقداً من العقود ، أو شرطاً من الشروط ، ليس للشرع حكم فيه بالنهى والتحريم نصاً ، وليس فى قواعد الشريعة المحكمة تعرض له بالإبطال ، فإننا نحكم بصحته اعتماداً على أنه مما عفا الله عنه بالسكوت ، وعلى أنه لو كان حراماً أو باطلا لأعلمنا بتحريمه بنص مباشر ، أو بقاعدة تؤخذ من نص ، : « وما كان ربك نَسِيا[1] » .

وهذا المبدأ هو ما عليه جمهور الفقهاء ، وقد خالف فيه بعض المتأخرين ، وجعلوا الأصل فى ذلك البطلان إذا لم يقم عندهم دليل على الصحة ، فأفسدوا بذلك كثيراً من عقود الناس ومعاملاتهم وشروطهم بلا برهان من الشرع .

وقد جاء الإسلام وللناس عقود ومعاملات وشروط ، فأبقى منها ما أبقاه ، وحذف ما حذف ، وعدل ما عدل ، فلم يقل إن الحلال فى المعاملات والشروط ما شرعته وأنشأته ، ولكن قال إن ما لم أعرض له من معاملاتكم وعقودكم وشروطكم ، فإنما تركته وجعلته عفواً ، إقراراً لتعاملكم به ، وإباحة له .

وهذا شأن غير شأن العبادات ، فإن الأصل فيها عدم المشروعية حتى يتبين أنها مشروعة ، فلا يجوز لنا أن نعبد الله بعبادة ، أو أن نتقرب إليه بقربة ، إلا إذا علمنا مشروعية هذه العبادة وهذه القربة ، وفى هذا وذاك يقول العلامة ابن القيم الجوزية فى كتابه : « أعلام الموقعين — ص ٣٤ من الجزء الثانى » ما نصه :

---

(١) مريم : ٦٤

« الأصل فى العبادات البطلان ، حتى يقوم دليل على الأمر ، والأصل فى العقود والمعاملات الصحة ؛ حتى يقوم دليل على البطلان والتحريم » .

والفرق بينهما ، أن الله سبحانه لا يعبد إلا بما شرعه على ألسنة رسله ؛ فإن العبادة حقه على عباده ، وحقه الذى أحقه هو ورضى به وشرعه .

وأما العقود والشروط والمعاملات فهى عفو حتى يحرمها ، ولهذا نعى الله سبحانه على المشركين مخالفة هذين الأصلين ، وهو تحريم مالم يحرمه ، والتقرب إليه بما لم يشرعه .

وهو سبحانه لو سكت عن إباحة ذلك وتحريمه ؛ لكان ذلك عفواً لا يجوز الحكم بتحريمه وإبطاله ، فإن الحلال ما أحله الله ، والحرام ماحرمه ، وما سكت عنه فهو عفو .

فكل شرط وعقد ومعاملة سكت عنها ، فإنه لا يجوز القول بتحريمها ، فإنه سكت عنها رحمة منه من غير نسيان وإهمال .

وقد فند هذا الإمام العلامة حجة القائلين بخلاف هذا القول » .

* * *

من عشر سنين كان فى مصر دستور[1] حسن تأملت فى نصوصه ثم قلت : إنها — على الجملة — إسلامية بعد اطراح النظام الملكى منها .

وهنا تصدّى نفر من الدعاة يجادلنى فى حرارة ، ويتكلم عن أهل الحل والعقد وأسلوب الإسلام فى الشورى . ويتخيل صوراً — لو صحت — لوجب أن تمر فى فترة اختبار أخرى تستغرق القرون لا السنين ! حتى تثبت صلاحيتها .

---

(١) لعب الملك المخلوع بنصوصه حتى جعلها حبراً على ورق .

لمَ هذا الغض من قيمة الثمار التي وصل إليها غيرنا في أفق المصالح المرسلة ؟ وما معنى الركون إلى آبائنا وحدهم إذا كانوا قد قصروا في ناحية فاقهم فيها غيرهم ؟ ؟

قال أبو حامد الغزالي — يرد على بعض معترضيه — : « لعلك تقول إن كلامك في هذا الكتاب انقسم إلى مايطابق مذهب الصوفية ، وإلى ما يطابق مذهب الأشعرية وبعض المتكلمين ، ولا يفهم الكلام إلا على مذهب واحد . فما الحق من المذاهب ؟ »

ثم قال : « اطرح هذه المذاهب فليس مع واحد منها معجزة يترجَّحُ بها جانبه ، واطلب الحق بطريق النظر ، لتكون أنت صاحب مذهب ! ولاتكن أعمى مقلداً بل خذ الحق أينما وجدته وفي أي ناحية كان .

اطلب الحق بالنظر لا بالتقليد ، فالحكمة ضالة المؤمن يلتقطها أينما وجدها » .

والغزالي بهذا الكلام يترجم عن وجهة النظر الصحيحة للإسلام .

إن تفاوت الأحكام في غيبة النصوص — أو في وجوه فهمها إن وجدت — أمر لا ينبغي أن نفزع منه ، ومن حقنا أن نستمد منه حرية عقلية مطلقة .

خذ مثلا حالة القتل بالإكراه في فقهنا الإسلاميّ .

بعض العلماء يرى قتل المكرِه .

وبعض يرى قتل المكرَه .

وبعض يرى قتلهما معاً .

وبعض يرى عدم قتلهما .

ما هذا الاختلاف ؟ ألا تراه استوعب الفروض العقلية كلها ؟ إن العقل التشريعى التمس فيه كلّ وجهة ، ثم رجح كلٌّ الناحية التى آثرها ! .

هذا التفكير المطلق والمدى الذى يعمل فيه هو نفسه المجال الذى سيعمل فيه القانون الوضعى ، فى أرجاء الأرض التى لم يصلها إسلام ؟ .

إن النص لا مكان معه لحرية الأخذ والرد ، وهذا ما نؤكده مرة ومرة ، أما مضمار الاستصلاح ونشدان النفع المطلق فى الميادين السياسية والاقتصادية وأنواع المعاملات الأخرى فإن العقل الإنسانى قد أسهم ولا يزال يسهم فيه بحظ وافر وعلينا نحن المسلمين أن نحصد مع الحاصدين أينع ما أثمره الاجتهاد الحرّ فى هذه الحقول كلها . .

* * *

ثم إن حضارة الغرب لم تكن جهد أهله وحدهم فلولا ما قدمته حضارة الإسلام لأوربا ما انتعشت أوربا ولا سادت .

فلماذا يعز علينا أن نستردّ بعض ما وهبنا ؟

أحسب أن إهمال النشاط الإنسانى فى الميدان العقلى بُعْدٌ عن الإسلام يضارع الابتداع فى ميدان العبادات . .

إن الغُلُوّ بالزيادة فى المنقول كالغلو بالنقص من المعقول ؛ كلاهما شطط عن الحق ، وجور عن الصراط . . ؟ ؟

والرجل الذى يعبد الله بما لم يشرعه ضالّ ، والذى يعبده بالتوقُّف حيث لا حدّ ، والتوجُّس حيث لا حظر ضال كذلك . . ؟ ؟

وإنى لأدعو إلى الانتفاع من الغرب لا فى شئون الصناعة والزراعة فحسب ،

بل فى ميدان العلائق والمعاملات الإنسانية التى وكل الله إلى الناس تنظيمها وتحسينها وناط بعقولهم اختيار الوسائل الناجعة فيها .

فإن الحق فى هذا الميدان ليس حكراً على أحد .

وقد استغربت من بعض الدعاة الإسلاميين تبرُّمهم بهذه الحقيقة ، وإساءة الظن بمن يعتنقونها ، واتهامهم بالانطواء فى تيار الغرب .

قال الشيخ تقى الدين النبهانى[1] : « جمهرة الناس كانت تحمل فكرة التوفيق بين الإسلام ، وبين الثقافة والعلوم والحضارة والمدنية التى يحملها الغرب . فقد سادت فى أواخر الدولة العثمانية فكرة مؤداها أن الغرب أخذ حضارته من الإسلام وأن الإسلام لا يمنع أخذ ما يوافقه والعمل بما لا يخالفه » .

وقال « . . . وقد نجح الغرب فى نشر هذه الفكرة حتى ذاعت بين الجماهير لا سيما المتعلمين — وفيهم كثير من الفقهاء — وكان هؤلاء يُسمَّوْن علماء عصريين ، وأُطلِق عليهم أنهم مصلحون » .

ثم قال : « . . ونظراً للتناقض الحقيق بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية ، وللتباين الواضح بين الثقافة الغربية ووجهة نظرها فى الحياة ؛ والثقافة الإسلامية وما ترسمه من طرائق للحياة — نظراً لهذا التناقض لم يمكن التوفيق بين ما فى الإسلام ، وبين هذه الأفكار . . الخ » .

ونقول نحن : إن التوفيق بين ما فى الإسلام من عقائد وعبادات ، وبين ما فى أوربا من تثليث ، وطقوس كنسية وجاهلية جنسية مستحيل !

ومحاولة ذلك عبث لم يخطر ببال أحد .

أما الذى نراه ممكنا بل واجباً ، فهو التوفيق بين مبدأ الشورى عندنا وبين الأنظمة البرلمانية الناضجة عند القوم .

---

(١) فى كتابه الدولة الإسلامية ، وهو بحث حسن نافع وإن لم نوافق المؤلف على بعض نتائجه .

بين مبادئ العدالة الاجتماعية عندنا وبين الأجهزة الإدارية والمالية الرائعة التى تفتقت عنها الاشتراكية الحديثة .

قد تقول : وما الدافع إلى ذلك ؟

والجواب ننقله من كلام الشيخ تقىّ الدين نفسه « إن القرن التاسع عشر — الميلاد — شاهد انقلاباً خطيراً فى الأفكار الأوربية على أثر الجهود العظيمة التى بذلها الكتاب والفلاسفة والتغيير الشامل الذى صاحب حركة إحياء الشعوب . . »

قال : « ومن أهم ما وقع تعديل الأنظمة السياسية والتشريعية وسائر شئون الحياة . فقد زالت الملكيات المستبدة وحلت مكانها حكومات نيابية تمثل سيادة الأمة ، كان لها أثر كبير فى توجيه النهضة .

هذا إلى جانب التفوّق الصناعى وظهور الاختراعات المديدة . . »

قد تقول : وما حالتنا يومئذ ؟ والجواب أن الشرق الإسلامى كان يترنّح كالمخمور الذى أمرط فى الشراب .

ويبدو أن ما تجرعه على مر القرون من غصص جعل المحاولات الواهنة لإيقاظه تذهب سدى ، فما لبث أن سقط فى الوحل بين ألوف الذئاب المتربصة . .

إن الاستبداد السياسى والظلم الاجتماعى وبراكين الجهالة التى تفجرت بين العرب والترك والفرس والبربر والهنود وغيرهم من أبناء الأمة الإسلامية ، كل ذلك ترك فى كياننا عللا دفينة وفتوقاً غائرة .

وبدهى أن العودة إلى الإسلام هى — ولا شىء غيرها — رأس الشفاء .

ونحن لانعدو هذا الغرض عندما نقول : إن القواعد التى حواها ديننا قد أحسنت بعض الأمم فهمها وتطبيقها .

ويجب أن ندرس مسلكها فى ذلك لننتفع به ، إن ظهر منه نفع . . .

إن ذلك يجب علينا حتى لو كنا أوفياء للتراث الذى آل إلينا من كتاب كريم وسنة مطهرة ، فكيف ، وأساليب الحكم عندنا شردت عن صراط الله المستقيم منذ مئات السنين . . . ؟ ؟

إن تعليم الإسلام والدعوة إليه يتطلبان فقهاً واسعاً فى الحياة وبصراً ثاقباً بصنوف الناس وألوان الحضارات وأطوار التاريخ وخصائص الأمم وسير العمران فى البر و البحر .

ونحن — إنصافا للإسلام — يجب أن نعرضه وحياً خالصاً وسنة مجردة ، وأن نباعد بين حقيقته العليا وبين مالابس تطبيقه من خطايا الملوك وأخطاء المتكلمين ، ومن طباع بعض الأجناس التى حملته فكانت حدة مزاجها — مثلا — سببا فى الظِّنَّة به والريبة فيه .

وقد شاب سير الإسلام فى الحياة كدرٌ ؛ توفر الأئمة على كشفه ، إنصافا للاسلام ، و إبانة عن تعاليمه الخالصة .

وذلك هو التجديد الذى نرحب به ونتعاون مع غيرنا عليه .

* * *

والكلام فى تجديد الإسلام ، يستتبع الكلام فى الاجتهاد !

وقبل أن نبحث فى شروطه وبقائه وأهله نحب أن نقول :

إن الله عز وجل لم يحوج عباده إلى كدّ الأذهان ، بحثاً عن الحق فى شئون الدين المهمة ، ومسائله الكبرى ، ولم يكلفهم أن يتحسَّسُوا الخطَى فى طرق مبهمة ، ليتعرفوا ما الذى يرضى الله فيفعلوه ، وما الذى يغضبه فيتركوه ، كلا .

ففى ميدان العقيدة والخلق ، والعبادة وأصول المعاملات والأحكام فرق الله عز وجل بين الكفر والإيمان ، والحلال والحرام ، والخير والشر ، ووضع عباده على محجة بيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك .. ! !

وتوجد بعد أركان الإيمان ، وأصول العبادة ، وأنواع الفرائض ، أمور أخرى ، نصبت لها أدلة متفاوتة القوة ، متفاوتة الوضوح ، تختلف الأنظار فيها ، وتصدر أحكام العلماء تبعاً لذلك متغايرة عليها ، وليس لهذا الاختلاف من أثر يذكر .

إن عربات الترام تسير فى أحياء القاهرة يجرها تيار واحد وتجرى على قضبان واحدة . واختلاف شكلها أو مقاعدها أو أبوابها لا يمكن أن يكون شيئاً ذا بال !

ومن هنا رأى العلماء : أن تباين وجهات النظر فى الفروع لا يحمل فى طياته ما يريب ، وأنها كلها حق !

وقالوا : كل مجتهد مصيب ، وحكم الله فى الحادثة الواحدة يتعدد .

ورأى علماء آخرون أن حكم الله فى الحادثة الواحدة لا يتعدد ، وأن الصواب واحد ، يوفق إليه البعض ، ويفوت غيرهم .

على أن هذا الخلاف لا يترتب عليه شىء طائل .

فعلى الرأى الأول الجميع مأجورون فيما قالوه من أحكام ، وأجورهم عند الله متساوية .

وعلى الرأى الثانى للمخطئ أجر ، وللمصيب أجران ، والله وحده هو الذى يمنح هذه الأجور المتفاوتة .

والذى يعنينا أن معالم الصراط المستقيم واضحة لا خلاف بين المسلمين فيها ، وأن ما اختلفت فيه الآراء ، لا يتحمل نزاعا ولا جفاء ! !

طمئنِّى أولا على معاقد الشريعة ؛ وأصول الإسلام ، وعراه الوثقى فلن أبالى بعدها على أى صورة تجىء التكاليف الفرعية ، مادامت هذه الصورة تعتمد على فهم ما لدليل صحيح .

وقد فصل الشيخ « عيسى منون » — من جماعة كبار العلماء — هذا الموضوع فقال :

* * *

« نصب الشارع على هذه الأحكام أدلة ، منها الواضح الجلى ، ومنها الدقيق الخفى ، لذلك تنوعت هذه الأحكام إلى ثلاثة أنواع :

النوع الأول : أحكام يقينية قطعية ، نقلت إلينا بالتواتر القطعى ، بنقل الخلف عن السلف ، جيلا بعد جيل ، من عهد النبوة إلى الآن . فلم يختص بعلمها الخاصة ، بل اشترك فى العلم بها العامة والخاصة ، فكان العلم بأنها من الإسلام علما ضروريا لا يختلف فيه اثنان .

وذلك كفرض الصلوات الخمس ، وصوم رمضان ، والزكاة ، وحج بيت الله الحرام ، وحرمة الزنا ، وقتل النفس بغير حق ، وشرب الخمر ، والربا ، وغيرذلك مماهو معروف وهذا النوع من الأحكام يختص بأمرين

أولهما : أن من أنكر أو جحد من المسلمين شيئا منه ، يكفر ويرتد عن دين الإسلام ، لأنه — بجحده هذا الحكم المعلوم قطعا أنه جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فقد كذب الرسول عليه الصلاة والسلام . . ومن كذب الرسول كفر ، فمقتضى الإيمان هو التصديق بما علم ضرورة أنه من دين محمد صلى الله عليه وسلم .

ثانيهما : أن هذا النوع من الأحكام لامجال للاجتهاد فيه ولايتصور ، لأن الاجتهاد : استفراغ الوسع فى استنباط حكم شرعى غير معلوم — وهذه معلومة بداهة — !

النوع الثانى : أحكام شرعية أجمع عليها أئمة المسلمين ، لم يخالف فيها أحد ، لكن اختص بالعلم بها الخاصة دون العامة ، ومن أمثلتها : استحقاق بنت الابن السدس مع البنت — فى الميراث — وهذا النوع من الأحكام لا يجوز لمجتهد — يأتى بعد الإجماع — مخالفته ، لأن خرق الإجماع حرام ، إلا أنهم لم يتفقوا على تكفير المنكر لحكم من هذا النوع ، والصحيح أنه لا يكفر ، وإنما يؤثم ويفسّق إن علم به . . ولايجوز العمل بخلافه .

النوع الثالث : أحكام شرعية دقت أدلتها وخفيت ، ولذلك اختلفت أنظار الأئمة المجتهدين فى استنباطها وتنوعت المذاهب . .

وليس فى الاختلاف فى هذا النوع من الأحكام من حرج ، كما أنه ليس من الاختلاف المذموم المنهى عنه .

(أولا) لأنه وقع فى زمن الرسول بين الصحابة وأقرهم عليه .

(وثانياً) لأنه ضرورى لا يمكن التغاضى عنه ، فالمجتهد إذا أفرغ وسعه ، واستنبط الحكم من الأدلة ، واطمأنت نفسه إليه ، لا يجوز له مخالفته إتباعاً لغيره .

(وثالثاً) لأنه لا ضرر فيه ، وإنما فيه فسحة وتيسير على العباد .

* * *

بيد أن دراسة التكاليف الفرعية أخذت من المسلمين جهوداً غريبة ؛ واستنفدت أوقاتاً ضخمة وهى لا تستحق هذا العناء كله .

والأدهى من ذلك أن هذه الدراسة سارت فى طريق معوجة ، فكل يوم يطيل أمدها يبعدها عن الحق خطوة .

وذلك أن المفروض كان عرض النص الذى يراد أخذ الجماهير به ، ثم تذكر وجهات النظر فى فهمه .

لكن الذى حدث هو انفصال الأفهام المختلفة عن أدلتها الأولى من الكتاب والسنة ، ثم تسجيلها على حدة .

فدونت أقوال العلماء وشروحهم على أنها الدين نفسه ، وتنقلت بين الأجيال المتأخرة مقطوعة عن أصلها من الكتاب والسنة وعذرها الذى تسير به بين الناس : أنها لم تخرج عن واحد منها ، وأن العلماء الذين كتبوا هذه الشروح يسروا على العامة تناول أحكام الله دون عناء ، وأنهم — بالنسبة إلى صاحب الرسالة — كما قيل :

وكلهم من رسول الله ملتمس رشفا من البحر أو غرفا من الدِّيَم

ومع تقديرنا للنيات والجهود التى بذلها أبو حنيفة ، ومالك ، والشافعى وابن حنبل ، وغيرهم من فقهاء الأمصار فى عصور الإسلام الزاهرة . فنحن نعتقد أنهم لو بعثوا اليوم أحياء ، ورأوا ما صنع الأخلاف بتراثهم الفقهى ، لكانوا أول الثائرين عليه . . .

إننى أعرف أن قول رجل من المسلمين : أنا حنفى ؛ معناه أنا اتبع فهم أبى حنيفة لقول رسول الله .

ومع ذلك فإننى أرفض أن يبقى تدريس الفروع الفقهية على النحو المذهبى الضيق الذى ينتشر فى أكثر بلاد الإسلام .

وأرفض أى شارة تقسم المسلمين جماعات قد سجنت كل واحدة منها نفسها ، وراء رجل من كبار الفقهاء أو صغارهم .

وأرى أن يدرس الدين نفسه أى الكتاب الكريم والسنة المطهرة ، ثم تساق جميع الأفهام التى عنّت للعلماء المتقدمين ، أو تعنُّ للعلماء المتأخرين بعد هذه النصوص الشرعية ، مع تبيين أن هذه الأفهام لا يتعينُ اتباع واحد منها على مسلم . . .

إن هجر الأصول علّق الأمة بآراء الرجال الكبار ، ثم تعلقت بعد ذلك بآراء الفقهاء الصغار ، ثم جاءت أيام أصبحت فيه السنن مستغربة ، والنصوص مبهمة ، ومنابع الإسلام مهجورة .

ثم وقعت الأضحوكة الكبرى إذ أصبح أتباع المذاهب الفقهية يتعصبون لأئمتهم تعصبا أعمى ، ويحتبسون فى عبارات كتب لا قيمة لها .

وعند ما التحقنا بالأزهر ، أريد لبعضنا أن يكون حنفيا ، والآخر أن يكون مالكيا . . الخ .

كأن هذه النسبة العلمية بعض شعائر الإسلام ! وإلى عهد قريب كانت الجماعة تتعدد فى المسجد الواحد على المذاهب الأربعة ! !

* * *

ثم انحدرت الخلافات المذهبية من سنين طويلة إلى هاوية أعمق ، إذ تحولت إلى عصبيات طائفية متحاقدة ؛ يصحبها قدر كبير من جمود الذهن ؛ وبلادة العاطفة ، وسوء العشرة .

ولا عجب ! فهل ينتظر من الذهول عن قول الله ورسوله إلا هذا التقطع ؟

وهل ينتظر من العكوف على آراء الرجال إلا هذا الانقطاع ؟

ومرة أخرى نسأل : لم هذا القتال فى غير عدو ؟ ولم هذا النشاط فى غير ميدان ؟ ولم هذا الإدمان والتقعُّر فى المباحث الفرعية للفقه الإسلامى ، خصوصاً العبادات ؟

لو أن نصف هذا الجهد بذل فى دراسة الأصول ، أو فى أخذ العامة بآداب الإسلام وفضائله ، لكانت حال المسلمين اليوم أنضر وأزهر ! !

لقد علبنى الوجوم وأنا أقرأ فى كتاب « جزيرة العرب » تتهم حكامها ، كيف أن الخلاف المذهبى فى هـــذه الأقطار قطع مسلميها أمماً ، ومزقهم إرباً[1] .

والتعصب المذهبى فى أغلب أحواله يقوم على النفاق العلمى ، أعنى على تسخير العلم فى خدمة الأهواء .

إذ ليس من المعقول أن يتمادى المسلمون الأتقياء على مسائل فرعية فى دينهم ، فذلك ينافى الإسلام ، وينافى التقوى ، وينافى طبيعة العلم ذاته .

ولكن الشهوات الدنيا إذا استبدت بالنفوس لم تبال بامتداد ضرامها إلى الأصول والفروع معاً ، فهى تديرها جميعاً فى مجالها ، وتحولها عن الصراط المستقيم . . .

والباحث المحايد — ولو لم يدن بالإسلام — يدهشه هـذا الوَلَع بالاختلاف على الصغائر ، وهذا التطرف فى إعطائها فوق ما تستحق من اهتمام ، وهذا التهوُّر فى تحقير شخص أو تفنيد رأى ! مع اتفاق الجميع على أن أركان الإيمان فوق هذا الجدل كله ، وأن المسلم يبقى له أصل دينه ، وتسلم له جميع حرماته ، مهما اعتنق من مذاهب الفقه والسياسة ! ! !

وقد خمدت فى بلادنا ريح الخلاف المذهبى فى فروع الفقه لا لأن الألباب استنارت بسعة العلم وبعد النظر ، بل لأن التيار الغربى زلزل الثقة فى قيمة التراث الدينى على العموم .

---

(١) نقلت ما قاله المؤلف فى كتابى « الإسلام والأوضاع الاقتصادية » .

ونحن إذ نعيد بناء أمتنا نقسم جهدنا قسمين :

قسما نردُّ به معاول الاستعمار عن نقض ما نؤسس لهذا الإسلام الحنيف .

وقسما نزيح به عقابيل الماضى عن طريق المستقبل ، ونكنس الأوهام والخرافات التى أفسدت الأجيال المتأخرة ، وهى أمور ما أنزل الله بها من سلطان ، وإن لبست رداء العلم والدين .

* * *

وهنا نتساءل : هل باب الاجتهاد فى فروع الفقه الإسلامى أغلق حقا ؟

ويؤسفنى أن أقول : إن باب الاجتهاد أغلق يوما ؛ ولست أتبين الظروف الدقيقة التى أغلق فيها ، ولا الأحوال التى أغرت علماء المسلمين بهذا المسلك .

وأظن الأمر بحاجة إلى استبانة شاملة .

فإن حرية الفكر العلمى وصلت فى بلاد الإسلام إلى حد مثير .

وأحسب أن إغلاق باب الاجتهاد قد اكتنفته ظروف يستحق بعضها — على الأقل — تقدير المنصفين .

الاجتهاد لتعرف أحكام الله فى فروع العبادات حقٌّ ، وقد باشرته الأمة الإسلامية بأسلوب بلغت الحرية فيه حد السرف .

وعندى أن القول بوقف الاجتهاد فى هذا النوع سائغ ! لأمور تستحق النظر والوزن :

الأول : أن ثمرات هذا الاجتهاد لن تأتى بجديد فوق ما وصل إليه الأولون ، فإن نشاطهم القديم كاد يستنفد جميع الاحتمالات الممكنة ، ووجهات النظر المحترمة .

الثانى : أن ما يجوز استدراكه على المجتهدين القدامى لا جدوى منه . نعم قد يكون حكما جديدا لم يدركوه ، وصحيحاً لا غبار عليه ، ولكن ما قيمته إذا كان غيره يغنى عنه ، وهو — خطأ كان أم صوابا — موضع قبول من الله ؟

إن تكثير الأحكام فى هذا المجال كتكثير المترادفات فى اللغة ، يحسبه قوم دلالة غنى فى اللغة نفسها ، ولا أراه كذلك .

ماذا يعود على الناس أو على اللغة إذا كان للأسد مائة اسم ، بدل أن يكون له اسم أو اسمان .

وأخيراً ، إن بذل أى جهد عقلى فى هذه الناحية سيكون على حساب نواح أخرى أجدر بالعناية ، وأولى بإدمان النظر والتأمل .

وإننى لآسى إذ أرى أئمة المساجد يقضون الشهور والسنين فى دراسة فروع الفقه المختلفة ، بينما جماهير العامة بحاجة إلى من يبصرهم بآداب الإسلام ، وأنواع الفضائل لا بالدراسة النظرية ، بل بالتعهد والموالاة ، كما يتعهد الفلاح زرعه ! !

وليس معنى وقف الاجتهاد الذى أميل إليه فى فروع العبادات أن تبقى دراسة كتب الفقهاء ، وأصحاب المتون والشروح مصدر العلم العام للتكاليف الفرعية كلا كلا .

بل لا بد من دراسة النصوص الأصلية ، وإعادتها للتداول بين العامة والخاصة على سواء . . .

* * *

والموقف على العكس تماماً بالنسبة للاجتهاد فى أبواب المعاملات ، فإن

القول بانتهاء عهده جريمة ، والزعم بأن الأولين بلغوا حدّه الأقصى زعم بأن الحياة توقفت ، وأقضيتها تناهت ، ونشاطها العمرانى مشل ، وهذا زعم لا يقوم إلا فى أذهان البله .

وقد توقف الاجتهاد فى شرائع المعاملات وأنحاء الحياة المدنية توقفاً جر على الإسلام كوارث مهولة ، وأظن ذلك الجمود نشأ عن الانفصال بين العلم والحكم ، عن الفجوة الرهيبة بين الدولة الإسلامية ، والأمة الإسلامية .

فقد سارت نظم الدولة فى طريق متعثرة ، تدفعها الأهواء ، وتسخرها الأسر التى تتوارث الحكم ، على حين ظلت الأمة نفسها تستمسك بما تبقى لها من دين مبتور ، وتعاليم منقوصة ، ومجتمع يفقد الإدارة الموجهة باسم الله ؛ وباسم دينه الخالص ..

فجمود الفقه نتيجة ولدها هذا التفاوت ، أى أن انغلاق باب الاجتهاد جاء حركة سلبية لضعف الحياة العلمية ، واضطرابها ، بإزاء الفساد السياسى ؛ وليس حركة إيجابية قام بها علماء لهم وعى أو أسستها مجامع متعاونة ، تفقه طبيعة الإسلام ، وحاجات العصور ، وأحوال أهله فى حاضر أمرهم ومستقبله ، ثم تصدر قرارها بعد ذلك على بصر تام ، وفى حرية مطلقة . . !!

* * *

أيًّا ما كان الأمر ، فإن الباب المغلق قد انكسر فى هذا العصر ، وطُرِد من حوله البوابون والحراس ، وانفسح طريق الدخول للإنسان والماعز جميعاً !

الماعز ؟

نعم ، وليس فى التعبير خطأ .

فما تقول فى رجل تقف خطيباً بين الناس ، متحدثاً عن الإسلام ، ومفسراً أحكامه فيقول :

إن حديث : بُنى الإسلام على خمس ، من وضع المستعمرين !!

ويستطرد هذا المجتهد — وله منصبه الكبير — ليسوغ رأيه فى الحديث فيقول:
لأن الجهاد لم يرد ذكره بين تلك الأركان الخمسة !!

ويجىء آخر فيقول : إن القرآن لم يبح تعدد الزوجات إلا لأولياء اليتامى ، إذا خافوا الجور على فتياتهم ، وذلك هو نص الآية « وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مَثْنى وثُلاث ورُباع[1] » .

ولما سمعت هذا الاجتهاد تحيرت ، كيف أفسر للرجل الخطير علاقة الشرط بالجزاء ، لأنه لا يعرف هذا النوع من علوم اللغة العربية .. فلم أر إلا تقريب الأمر لذهنه بذكر آية : « وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرِهانٌ مَقْبوضة[2] » .

وقلت : أترى الرهن لا يصح ديناً ، إلا إذا كان المرء مسافراً ، وليس هناك كاتب ؟

ومن غرائب الاجتهاد ، أن رجلا من خريجى جامعات الغرب ، أراد إباحة لحم الخنزير ، لأن التحريم الوارد فى القرآن كان لخنازير سيئة التغذية ، عليلة الجسم ، أما التى تربَّى فى كفالة الأطباء فلا حرمة فى لحمها ..

ونشر زميل له آخر : أن الحكم كذلك بالنسبة إلى نصيب النسوان فى الميراث ، كان على النصْف يوم كانت نصف الرجل فى المجتمع ، أما وقد طفرت حتى سادت الرجل فى كل شىء ، فيجب أن تماثله ديناً .

---

(١) النساء : ٣
(٢) البقرة : ٢٨٣

وتمضى آفة الاجتهاد الحديث على هذا النحو لتمسخ الإسلام كله ولتسلط الجهل على أحكامه ؛ ينقضها حكما حكما . . .

ألم أقل إن باب الاجتهاد — الذى أوصد أمام العلماء — قد انفتح للماعز ؟

* * *

إن الاجتهاد حق ، بيد أن إهانة الإسلام بإتاحة اللغو فيه لكل متجرئ أمر لا يليق .

إن السماح لكاتب محام بتشريع مبادئ قانونية لمحكمة النقض والإبرام أهون من هذا العبث .

والسماح لحلاق صحة بمناقشة النظريات الطبية المستحدثة ، وإلقاء محاضرة عنها فى نقابة الأطباء ، أهون من هذا العبث .

ونحن — حماية للحقيقة العلمية ، وحفاظاً على كرامة الدين — نريد أن نعيد التذكير بالشروط التى وضعها الأئمة لمن ينصب نفسه مجتهداً فى الإسلام ، وهاديا للأنام .

١ — لابد أن يكون حافظا للقرآن الكريم ، ضابطا لترتيب الآيات ، وفق تاريخ نزولها ، عارفا بأسباب النزول .

٢ — ولابد أن يكون محيطا بسنة رسول الله ، بصيرا بقيمة المروى عنه من ناحيتى الصحة والضعف ، وعارفاً بمواقع الكلام النبوى وملابساته .

٣ — والمهارةُ فى قواعد اللغة العربية ، وفنون البلاغة ، وذوق الأساليب الفصيحة فى الشعر والنثر ، والبصر بما تتضمنه التراكيب العربية من دلالات شتى ، كل ذلك يجب توفره فيمن يتعرض للاجتهاد . .

٤ — كذلك أدب النفس ، وتقوى الله ، والحنوُّ على المسلمين ، وتقدير مصالحهم .

٥ — وشرط آخر — يجب فى نظرى استكماله — المعرفة الجيدة بتاريخ الإسلام العلمى والسياسى ، ونشأة الفرق المختلفة فيه ، والصراع الطويل بين هذا الدين ، وبقايا الديانات القديمة ، من سماوية ، أو وثنية . . .

* * *

قال الشيخ عيسى منون :

« ثم من مارس الفقه وأصوله اتضح له أن بيان الأحكام الشرعية التى رويت ، وإفتاء الناس بها ليس من حق كل أحد ، لأنه لا يستطيعه على وجهه الصحيح إلا من تلق علوم الشريعة أصولا وفروعا ووسائلها باستيعاب ، وراجعها المرة بعد المرة بتدريس أو نحوه حتى أحاط بدقائقها ، وألم بظاهرها وخفيها ، ووقف على مداركها وأدلتها .

وإلا لم يأمن من الوقوع فى الزلل ، والإفتاء بالخطأ ، فيضل ويضل غيره ، وقد قال الله تعالى :

« ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ، إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله مالا تعلمون [1] » .

أى يأمركم الشيطان أن تقولوا هذا حلال وهذا حرام من غير علم » .

وذكر سبحانه وتعالى : أن تقولوا على الله ما لا تعلمون ، بعد ذكر الفحشاء مع أنه من جملتها ، لأنه أعظم أنواعها » .

فالتهجم على الفتوى أمر عظيم الخطورة .

(١) البقرة : ١٦٨ ، ١٦٩

وكان الواجب أن يصون القانون العام للدولة الشريعة الإسلامية ويحميها من عبث العابثين ، كما صان صناعة الطب ، فإن الخطر على الأديان كالخطر على الأبدان أو أشد » .

ثم استطرد فقال :

«أما قولهم لا كهنوتية فى الإسلام ، فإن أرادوا بالكهنوتية : وجود رؤساء دين ، يحللون ويحرمون ، ويؤثمون ويعاقبون ، أو يعفون ويغفرون بآرائهم وأهوائهم ، من غير استناد إلى الشريعة ، فهؤلاء لايوجدون فى الإسلام قطعاً .

وإن أرادوا وجود علماء يعرفون الأحكام التى شرعها الله ، وهم مكلفون ببيانها للناس على الوجه الصحيح ، وأنهم مع أولياء أمور المسلمين يحرسون الإسلام من عبث العابثين ، ويقيمون الحدود على المخالفين ، ويؤدبون المعتدين على الإسلام وعلى أحكامه ، فهذا موجود فى الإسلام ومشروع ؛ وفقدهم وانقراضهم إيذان بقرب الساعة .

أما مسألة حرية الرأى ؛ أو الحجر على الأفكار ؛ فليست مما نحن فيه ؛لأنى لاأظن أحداً يعقل أن تعدى الحدود المقررة شرعا أوقانونا يدخل فى نطاق حرية الرأى ، وأن زجر المعتدين وتبيين خطئهم داخل فى نطاق الحجر على الأفكار وإلا لجاز أن يقول كل واحد ما شاء فيما شاء ، ولا شك أن هذه هى الفوضى بعينها » .

فى دائرة السنة . . .

سبق أن شرحت الطريقة المثلى فى فهم السنن الواردة عن رسول الله[1]، وبسطت القواعد والحدود التى رسمها العلماء فى هذا المنهج ، وما أثبته هنا مزيد من التفصيل والتمثيل قد يصحبه استدراك قليل . . .

لا شك أن المروى عن رسول الله ليس سواء فى قوته ، منه القوى الذى يتلقاه العلماء بالقبول ثم يوزعونه على الأحوال المناسبة له .

ومنه الضعيف الذى يتريثون طويلا فى وزنه ، ومقارنته بغيره ، وطريقة الإفادة منه ...

قد تقول : ولم الحفاوة بهذه الآثار الضعيفة ؟

والجواب : أن العاطفة الأولى تتجه إلى الإعزاز لكل ما فيه رائحة النبوة ، أو لكل ما تتوهم فيه هذه الرائحة ! !

ومن علماء المسلمين من نفض يديه ابتداء من هذه الأحاديث الضعاف ، ورفض الأخذ بها فى أى شأن ، وله فى ذلك وجهة نظره المقدورة ...

على أن العلماء الذين أعملوا الأحاديث الضعيفة ، رسموا حدودا حسنة لقبولها :
ألا تكون شديدة الضعف .

وألا تتصل بالعقائد والأحكام .

وألا تخرج عن الأصول الكلية المقررة .

الصدق مثلا فضيلة ثابتة بالعقل والنقل ؛ فإذا ورد حديث ضعيف بتشنيع الكذب ، أو تزكية الدقة فى الأخبار ، فلا بأس من قبول هذا الحديث ؛ إنه لن يجىء بجديد فى الحقيقة .

---

(١) « فقه السيرة » و « ليس من الإسلام »

وماذا لو قبلنا شاهدا متهما ، فى قضية توفرت فيها شهادات العدول الموثقين ؟ إن قوله لم يُسمَعْ إلا لأن الأقوال الأخرى توافقه . ! ! !

وعلى هذا الأساس اتسعت صدور العلماء للروايات الضعيفة ، وجعلوها ملحقة بالأمور التى ثبت أصلها مثل فضائل الأعمال . . .

وهذا الموقف اللين يتطلب من أصحابه معرفة واعية بقواعد الدين ، ومقاصده العامة ، وآثاره الصحيحة .

فإذا استوعب المرء ذلك كله أمكنه أولا أن يرسم صورة متقنة للإسلام الحق صورة مأخوذة من نصوصه التى لاريب فيها ، ومتفقة مع قواعده المكينة ، ومقاصده المقررة ، وأهدافه العليا فى المعاش والمعاد .

فإذا تمت هذه الصورة مكوّنة من تلك المواد وحدها ، جاز بعد ذلك إجالة البصر فى صنوف المرويات الأخرى ، لأخذ مايرى أخذه منها ، والانتفاع به فى توضيح لون ، أوتوكيد اتجاه . . .

* * *

والواقع أن الأحاديث الضعيفة مبتوتة الصلة بشئون الحياة العملية ، أوذاك مايجب أن يفهم فيها .

وما تداولها العلماء بينهم ، وذكّروا العامة بها إلا فى مجال الدعوة والإرشاد .

فإن طرق الوعظ والتذكير قد تتناول إيقاظ العواطف بالكلمات الحكيمة أيا كان قائلها ، وبالأقاصيص اللطيفة ولوكانت مخترعة ، وإذا جاز تحريك القلوب بهذا الأسلوب ، جاز سوق الكلمات المنسوبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحدود التى بيناها .

وعند ما اشتغلت بوعظ الجماهير كنت أجتهد فى تأسيس المعانى على دعائم من الأحكام الصحيحة ، والتوجيهات الصائبة ؛ ثم أضع بعد ذلك هذه الأحاديث مواضعها التى تجمل فيها ، ولاتجمل ألبتة فى غيرها .

ولابأس هنا من إثبات مثل قصير لهذا الضرب من الإرشاد العام .

فالمصريون يحتفلون بليلة النصف من شعبان احتفالا فيه شطط وخلط .

وقد نظرت فى أصل هذه الليلة فوجدت الحافظ المنذرى يذكر فيها مراسيل جيدة ، أى أن فيها أحاديث من ناحية الإسناد يمكن أن تنظر ؛ فإذا نظرت إلى المعنى الشائع فيها وجدته لايخرج عن المبادىء الكلية المقبولة .

وأول ما يطالعك من هذه الآثار ما ورد (أن الله يطلع على عباده ، ليلة النصف من شعبان ، فيغفر للمؤمنين ، ويمهل الكافرين ، ويدع أهل الحقد بحقدهم حتى يدعوه) .

فهذا الحديث الذى يتهدد بالطرد من فضل الله أهل اللجاجة فى الخصومة والإصرار على الشحناء والحسد ، ليس بدعا فى موضوعه فقد روى مسلم فى صحيحه (تعرض الأعمال فى كل اثنين وخميس ، فيغفر الله عز وجل لكل امرىء لايشرك بالله شيئاً ، إلا امرأ كان بينه وبين أخيه شحناء ؛ فيقول : أتركوا هذين يصطلحا ..) .

وإذا كان الإسلام فى دورة الأسبوع الضيقة ، يطارد أهل الحقد ، فلا غرابة قط أن يطارد فى غضون سنة كاملة هؤلاء المجرمين ، ولا غرابة كذلك أن يكون هذا الحساب قبل رمضان ، وإن البعد عن الشهوات البدنية أمر تافه الأثر إن لم يصحبه بُعد عن نزعات النفس الحقود . فلتكن ليلة النصف إيذانا بهذا التطهر الواجب من الخصومات والشحناء ، حتى نستقبل شهر الصيام بقلب سليم .

* * *

ووردت آثار تستحب قيام الليلة بالاستغفار والصلوات والأذكار — ولم يرد قراءة سورة بعينها ، ولا تحديد ركعات — والخطب سهل ، فما من ليلة فى دهرنا الطويل إلا والحق جل شأنه يتجلى على عباده فيها يقول :

« هل من مستغفر فأغفر له ؟ هل من سائل فأعطيه ؟ هل من داع فأستجيب له ؟ »

ولئن كان ذلك فى ثلث الليل الأخير ، كما ورد فى الصحيح من السنّة ، فقد روى مسلم فى صحيحه أيضاً : « إن فى الليل لساعة لا يوافقها رجل مسلم يسأل الله خيراً من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه الله إياه ، وذلك كل ليلة »

وعندى أن ليلة النصف تمتاز بأنها حددت المرشحين لمغفرة الله ورضوانه ورسمت الدائرة التى تضمهم وتطرد من عداهم ، بينما سكتت الآثار الأخرى عن ذلك ، ففى حديث عائشة أن الرسول قال لها : « أتانى جبريل فقال : هذه ليلة النصف من شعبان ولله فيها عتقاء من النار بعدد شعور غنم كلب — اسم قبيلة عربيه — لا ينظر الله فيها إلى مشرك ، ولا إلى مشاحن ، ولا إلى قاطع رحم ، ولا إلى مسبل — متكبر — ولا إلى عاق والديه ، ولا إلى مدمن خمر »

والتذكير الصحيح لهذه الليلة وما جاء فيها، إن كان يوحى بشىء ، فبضرورة تنظيف المجتمع الإسلامى من هذه الجرائم التى شانته ، ومن هذه المنكرات التى لوثته . . . ثم هو يكذب مزاعم الكثيرين الذين ينتظرون رحمة الله من غير عمل يقدمونه ، أو جهد يبذلونه .

وليست ليلة النصف هى التى يفرق فيها كل أمر حكيم وليست هى ولا ليلة القدر موعد تقسيم الأرزاق ، وتحديد الآجال ، فإن هذه كلها فرغ منها القدر الأعلى فى الأزل . ثم جفت الأقلام ، وطويت الصحف .

والدعاء عبادة مطلوبة ، وخيره ما كان بالمأثور من كلام الله ، وحديث رسوله.

وكلما كان الدعاء سهل العبارة ، صادق اللهجة . كلما كان أدنى إلى القبول.

وقد كره النبي صلى الله عليه وسلم التقعر والتفلسف فى الدعاء وقال :

« إذا دعا أحدكم فلا يقل : اللهم اغفر لى إن شئت ، اللهم ارحمنى إن شئت ؛ ولكن ليعزم المسألة ، فإن الله تعالى لا مستكره له » .

والذين يدعون الله فى هذه الليلة فيقولون له إن كنت كتبت فامح ، وإن كنت فعلت فارجع! إنما يتقعرون حيث لا تجوز إلا السهولة والبساطة .

وما ضر أحدهم أن يطلب من الله العفو والرحمة فقط ! وأن يسكت فلا يرسم لربه الطريقة التى يعفو بها ويرحم .

ألا فلنستمد من الآن بتصفية قلوبنا للشهر المبارك المرتقب ؛ ولنجعل الأيام الباقية من شعبان تمهيدا له .

على أن من علماء الإسلام — كما قلنا — من رفض هذا المسلك ، ومن نفض يديه كلتيهما من الأحاديث الضعيفة . ووجهة نظره — كما نفهم — أن سنن الآحاد الصحاح تفيد الظن العلمى فحسب ، وأن هذا الظن يعمل به حيث لا يفترض اليقين ، ولا يطلب الثبوت الجازم .

ويكفى فى تعاليم الإسلام أن تعتمد على اليقين المقطوع به فى ميدان العقائد والأحكام ، وأن تقبل الظن العلمى فيما وراء ذلك . فأما الروايات المريضة فيجب أن تستبعد ابتداء ، حماية للدين من تسرب المعلولات إلى مصادره .

* * *

ثم إن هذه الأحاديث الضعيفة قد اشترط لقبولها اتفاقها مع مبادئ الدين الكلية ، وقواعده العامة .

وكثيراً ما يحدث أن يأخذ بها البعض دون أن يحاكمها إلى غيرها من الدُّول الثابتة ، بل إن أغلب الأوهام والمتاعب التى عانتها الجماعة الإسلامية جاء من شيوع هذه الأحاديث الضعيفة ، وإقبال الناس على تلقفها وحدها دون نظر إلى غيرها من حديث صحيح !

بل إن العامة والمتصوفة ومن إليهم قد يتعلقون بالآثار الواهية ، ويذهلون عن السنن الثابتة ، فمن الخير إغلاق الباب أمام هذا الموج ، وهجر الأحاديث الضعيفة جملة وتفصيلا . . !

وهذه وجهة نظر لها قيمتها ، وغيرة على الإسلام تستحق الاحترام !

ونحن نرى أن الأحاديث الصحيحة نفسها لا يجوز تناولها إلا بعد استكمال النقول المتواترة من كتاب الله وسنة رسوله ، ولا يجوز إعمالها وتدريسها إلا بعد فقه عميق فى أصول الإسلام ، ومقاصده العامة التى لا ريب فيها .

فنحن إذا قبلنا الحديث الضعيف بعد شهادة القوى له لا نقبل الرواية الصحيحة إلا إذا وافقها ما هو أصحُّ منها .

وعلماء الإسلام يردُّون رواية الثقة إذا خالف ما هو أوثق منه .

ونحن مع حفاوتنا بسنن الآحاد الصحيحة نرى أنها تجىء فى المنزلة الثانية بعد المقطوع به من الكتاب والسنة . وأئمة المسلمين جميعا على هذا الرأى . فإن دعائم الدين ومعاقده ومقاصده ، كعمد القصر وأركانه ، وأرضه وسقفه ، وهى كلها يقينيات لا تقبل جدلا !

أما الأحاديث — وإن صحت — فهى كفرشه ونقشه ، قد يغنى بعضها عن البعض ، وربما لا يضر نسيانه أو إرجاؤه ؛ فالمهم قيام الأساس الحق والعماد الصالح ، وعلى هذا تجتمع الأمة ، وعلى هذا يلتقى الأئمة ، وإن

اختلفت آراؤهم فى الفروع اليسيرة ، أو اختلف تأويلهم للأحاديث الواردة . .

وقد عاش نفر من أصحاب رسول الله وهم لا يعرفون ما نعرف من سنن الآحاد الصحيحة ، ولم يضرَّهم ذلك فى دينهم ، لا لشىء إلا لأنهم استكملوا شعائر الإسلام ، ومعالمه اليقينية ، وحِكَمه العليا ، ومقاصده العامة من القرآن الكريم ، ومن بعض الأحاديث التى وصلت إليهم ...

* * *

وقد يجىء الحديث صحيحا لا غبار عليه ، ثم يرون أنه سيُفْهَم على غير وجهه ، أو أن إشاعته بين العامة سوف تمسُّ من تعاليم الإسلام العامة ، فيحكمون بوقف مسيره ، وإلقاء ستار عليه ... ! !

روى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة قال :

« كنا قُعوداً حولَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، معنا أبو بكر وعمرُ فى نفر فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم مِن بين أظهُرِنا فأبطأ علينا ، وخشِينا أن يُقتطع دوننا وفزِعنا ، فقمنا ، فكنتُ أولَ مَن فزِع ، فخرجت أبتغى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أتيتُ حائِطا للأنصارِ لبنى النجار ، فدُرت به هل أجِدُ له باباً فلم أجدْ ، فإذا ربيع يدخل فى جوف حائط من بئر خارجةٍ (والربيع : الجدول) فاحتفزتُ كما يحتفِزُ الثعلبُ .

فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال أبوهريرة ؟ فقلت : نعم يا رسول الله . قال : ما شأنك ؟ قلت : كنتَ بين أظهُرِنا فقمت فأبطأت علينا ، فخشينا أن تُقطَع دوننا ، ففزِعنا ، فكنت أولَ من فزِع ، فأتيت هذا الحائط فاحتفزتُ كما يحتفِزُ الثعلب ، وهؤلاء الناسُ ورائى فقال : يا أباهريرة وأعطانى نعليه ، قال : اذهب بنعلى هاتين فمن لَقِيت مِن وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنا بها قلبُه فبشِّره بالجنة .

فكان أولَ من لقيتُ عمرُ ، فقال : ما هاتان النعلان يا أبا هريرة ؟ فقلتُ : هاتان نعلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعثني بهما ، مَن لقيتُ يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبُه بشرته بالجنة فضرب عمرُ بيده بين ثديي ، فخررت لِاُستي ! فقال : ارجع يا أبا هريرة ! فرجعتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجهشت بكاء ، وركبني عمر ، فإذا هو على أثري

فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : مالك يا أبا هريرة ؟ قلت لَقِيتُ عمرَ فأخبرتُه بالذي بعثني به فضرب بين ثديّ ضربةً خَرَرْتُ لِاُسْتِي ، قال : ارجع

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عمرُ ما حمَلك على ما فعلت ؟ قال : يا رسول الله بأبي أنتَ وأمّي ! أبعثت أبا هريرة بنعليك مَن لقِيَ يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبُه بشّره بالجنة ؟ قال : نعم . قال عمر: فلا تفعل ، فإني أخشى أن يتكل الناسُ عليها فخلِّهم يعملون . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فخلِّهم !

وروى كذلك أن عمر في أثناء خلافته ردَّ حديث فاطمة بنت قيس الذي يَحْرِمُ المطلقة ثلاثا من السكنى في بيت زوجها وحديث فاطمة هذا صحيح وبه الفتوى . فكيف ردّه عمر ؟

ردّه لأنه توهم فيه مخالفة لنص القرآن على استبقاء المطلقات في بيوتهن : « لا تُخْرِجُوهُنَّ من بُيُوتِهِنَّ ولا يَخْرُجْنَ إلا أن يأتِينَ بفاحشةٍ مُبيِّنَةٍ ، وتلك حدودُ اللهِ ، ومَنْ يَتَعَدَّ حدودَ اللهِ فقد ظلَمَ نفسَه ، لا تدْرِي لعلَّ اللهَ يُحدِثُ بَعْدَ ذلك أمراً[1] » .

وقال عمر : لا ندع كتاب ربنا ، وسنة نبينا لقول امرأة لا ندرى ، أصابت ، أم أخطأت !!!

---

(١) الطلاق :

والحقُّ أن رواية فاطمة عن رسول الله صحيحة ، وهى لا تناقض النص القرآنى .

فالتأمل اليسير يدل على أن الآية فى المطلقات طلاقاً رجعيّاً .

والوصية بإبقائهن فى بيت الزوجية محاولة لوصل ما انقطع من حبالها ، وختام الآية يفصح عن هذا القصد الكريم : « لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً » .

لكن عمر توهم أن النهى عام ، وأن المطلقات كلهن سواء ، ورفض لذلك الحديث الوارد ...

ونحن لا نؤيد عمر فى فهمه ، ولكنا ننوه بحرصه على حماية أحكام القرآن الكريم ، وإيثاره لها على أى رواية مهما صحت . ولولا أن فهمه للحكم لا يتمشى مع دلالة الآية نفسها ، لرددنا حديث فاطمة للفور .

* * *

الثروة الطائلة من السنن — مع الفقر الظاهر فى فقه القرآن — ليست طريقة صحيحة فى تصوُّر الإسلام وتصويره . ومعرفة أجزاء من السنة مع القصور فى معرفة أجزاء أخرى لا يعد ضماناً مقبولا للحقيقة الإسلامية ، ولا تخطيطاً مستقيماً لمنهجها ..

لا بد من دراسة شاملة للقرآن الكريم ، وإحاطة واعية بنظراته فى الحياة ، وتناوله لشئونها .

ولا بد كذلك — لمن أراد التحدث فى الإسلام — أن يجيل بصره فى طول السنة وعرضها ، غير مكتف بمعرفة القليل منها فإذا ورد حديث ما لم يفهم على حدة . ! إنما يفهم على ضوء ما استقر فى الأذهان من جملة الكتاب والسنة .

كذلك فعل الأئمة الأولون من خلفاء راشدين ، ومن فقهاء مجتهدين .

على أن توجيهات القرآن الصريحة ، أو إيماءاته الخفية ، يجب أن تكون سياجاً لا يخترق ، ويجب أن ترجح بكل توجيه آخر مهما صحت روايته .

وذلك حق القرآن وحده .

فإن الله أضفى عليه من الحفظ والخلود ما لم ينله غيره .

إننا نستطيع الجزم بأن آيات الكتاب العزيز لم ينقص منها حرف واحد ، بينما لا نستطيع الجزم بأن كل ما قاله الرسول وصل إلينا كاملا ، لم يضع منه شيء ..

وهذه الميزة إلى غيرها من خصائص الوحى الإلهى تجعل القرآن المرجع الحاسم عند كل اختلاف ..

ولا يعترض على هذا الكلام بما يقال فى أصول الفقه : إن السنة قاضية على الكتاب ، إن السنة الثابتة إذا فسرت مجملا ، أو وضحت مشكلا فهى مقبولة ، وقيمتها هذه جاءت من حقيقة ذكرناها من قبل ، وهى : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعرف الناس بمراد الله ، وأحقهم بتفسير كتابه ، وشرح آياته ، وحديثه فى ذلك لا رادّ له ، ولا معقب عليه .

وهذا الحق المقرر لصاحب الرسالة لا يعنى ألبتة تأخيراً فى منزلة القرآن ، وترجيحاً لأمر آخر عليه .

وإلى جانب الخصائص التى أثبتناها للقرآن آنفاً نذكر أن القرآن وحى خالص وعام ومؤبد .

أما السنة ففيها عاديّات لانتكلف باتباعها كالعبادات اللازمة ، وفيها توجيهات موقوتة بزمان مضى ، وفيها توجيهات منظور فيها إلى أحوال معينة ، وأقوام مخصوصين . . .

وزيادة فى الإيضاح ننقل مقتطفات من بحث قيم للشيخ «محمد المدنى» جاء فيه:

* * *

السنة تشريع ، وغير تشريع :

١ — لايمكن أن يقال إن النبى صلى الله عليه وسلم قد تمحص للرسالة وزالت عنه مقتضيات بشريته ، وأنه لايتكلم ولايتحرك ، ولايأمر ولاينهى ، إلا عن وحى يوحى ، وذلك أن رسالته لم تخرجه عن بشريته ، وكونه إنساناً يحب ويبغض ، ويسر ويحزن ، ويدركه الجوع والعطش ، والراحة والتعب ، ويزور ويزار ، ويساوم فى البيع والشراء ويساوم ، ويخبر عما رأى بعينه أو سمع بأذنه كما يخبر سائر الناس عما رأوا وسمعوا ، ويجلس مع أصحابه فيأخذ معهم أحياناً فى الأحاديث المعتادة التى لاتمت إلى التشريع بصلة ، ويطلب إلى من معه من خادم أو زوجة أو صاحب ، أن يناوله شيئاً أو ينحى عنه شيئا أو يقرب إليه شيئا وقد يمشى فيسرع أو يبطىء ، وقد يحب لوناً من الألوان فيؤثره على غيره ، أو صنفا من الطعام أو اللباس تميل إليه نفسه ، وقد يستريح إلى هيئة من هيئات الجلوس ويضيق بهيئة أخرى ، وقد يكون من عادته أن يزاول أمراً من أموره الخاصة على طريقة معينة ، وقد يقول قولا فى الطب أو الزراعة عن ظن يظنه ، أو عن تجربة ينقلها عن غيره ، وهكذا من كل ما يصدر عنه من شئون البشرية فى أحواله العادية والجبلية .

وقد أنزل الله عليه فى محكم تنزيله مايدل على أن أمره دائر بين البشرية والوحى حيث يقول :

« قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى[1] » وورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنما أنا بشر ، إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فأنا بشر » ورووا « أن نفراً دخلوا على زيد بن ثابت فقالوا له : حدثنا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كنت جاره فكان إذا نزل عليه الوحي بعث إلى فكتبته له ؛ فكان إذا ذكرنا الدنيا ذكرها معنا ؛ وإذا ذكرنا الآخرة ذكرها معنا ؛ وإذا ذكرنا الطعام ذكره معنا ؛ فكل هذا أحدثكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم »

ومثل ذلك ماروى عن جابر بن سمرة رضى الله عنه قال : « جالست النبي صلى الله عليه وسلم أكثر من مائة مرة ؛ وكان أصحابه يتناشدون الشعر ؛ ويتذاكرون أشياء من أمور الجاهلية وهو ساكت ؛ وربما تبسم معهم »

ولذلك فرق علماء الأصول بين ماصدر منه صلى الله عليه وسلم عن جبلة أو عادة ؛ وماصدر منه مما سبيله التشريع فقالوا : إن الأول غير داخل فيما يطالب الناس بالاقتداء به ؛ وإن الثاني تطالب به أمته على حسب ما ورد من إيجاب أو تحريم أو غير ذلك ؛ ومن دوام أو توقيت ؛ ومن عموم أو خصوص .

وقال : ومن أمثلة ما اشتبه الأمر فيه ؛ هل هو من قبيل التشريع أو لا :

الرمل فى الطواف - فالجمهور من أهل الفقه ذهبوا إلى أنه سنة من سنن الحج ، أخذا من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعله ، وذهب ابن عباس إلى أنه إنما كان لمعنى وقع اتفاقا ، وذلك أن المشركين كانوا يقولون حينما رأوا

---

(١) الكهف : ١١٠

المسلمين : لقد حطمتهم حمى يثرب ، فأراد النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه أن يظهروا بمظهر الأقوياء الذين لم يضعفهم مرض ، فرملوا ، وليس ذلك بسنة . وفى ذلك يقول عمر رضى الله عنه : مالنا وللرمل كنا نتراءى به قوما أهلكهم الله ؟

ولكنهم ذكروا أن عمر مع هذا لم يمنع الرمل ، لأنه خشى أن يكون له سبب آخر ، أى أن يكون مقصودا بالتشريع .

ومن ذلك اختلافهم فى أفعال تقترن بعبادات : كاضطجاعه صلى الله عليه وآله وسلم على شقه الأيمن بعد صلاة الفجر ، وركوبه فى الوقوف بعرفة، وجلسة الاستراحة بين السجدة الثانية والقيام لركعة ثانية أو رابعة .

وقد تختلف أنظارهم فى فعل من أعماله لا يتصل بعبادة كإرساله عليه الصلاة والسلام شعر رأسه إلى أذنيه ، إذ ذهبت طائفة إلى أن هذا الفعل من السنة ، وذهب آخرون إلى أنه من قبيل العادة .

وشبيه بهذا مايروى من أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يأخذ من لحيته من عرضها وطولها ، وكان يحف شاربه ، ومايروى عنه من أنه قال : « قصوا الشارب وأعفوا اللحية » وذلك أن اتصال الأمر بالفعل يسر لبعض الناس الظن بأنه قربة ، وإن كان فى جانب الزى والهيئة .

وقال تحت عنوان : السنة تشريع عام وخاص :

بينا الفرق بين مايصدر عن شخصيته البشرية، ومايصدر عنه بالصفة التشريعية .

والآن نفرق بين مايصدر عنه من التشريع فنقول :

١ — إن ماصدر عنه صلى الله عليه وآله وسلم قد يكون تبليغا عن الله تعالى

وتشريعا يتبين فيه أنه مبلغ عن الله ، وذلك كالأمثلة التى ذكرناها من بيان لمجمل الكتاب ، أو تخصيص لعامه ونحو ذلك .

وحكم هذا أنه تشريع عام باق إلى يوم القيامة ، فإن كان مأمورا به أقدم عليه كل أحد بنفسه وكذلك المباح ، وإن كان منهيا عنه اجتنبه كل أحد بنفسه .

ويلحق بهذا ماجاء على سبيل الفتوى ، بأن يسأله سائل عن حكم الله تعالى فى أمر فيجيب بهذا الحكم ، فإنه لايعدو أن يكون مجيبا بما أوحى إليه به ، فيكون مطبقا للنص . أو بما اجتهد فيه فيكون أيضا واجب الاتباع دائما ، إذ اجتهاده صلى الله عليه وسلم بمثابة الوحى ، فقد أثبت جمهور المحققين من العلماء أنه عليه الصلاة والسلام لايقر على الخطأ فيما سبيله سبيل التشريع من فتوى أو اجتهاد .

٢ — وقد يصدر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شىء بوصفه أماما ورئيسا المسلمين « فيكون مصلحة للأمة فى ذلك الوقت وذلك المكان وعلى تلك الحال » فراعى فيه التى راعاها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن هذا بعث الجيوش للقتال ، وصرف أموال بيت المال فى جهاتها ، وجمعها من محالها ، وتولية القضاة والولاة ، وقسمة الغنائم ، وعقد المعاهدات ، ونحو ذلك من كل ما يظهر أنه تدبير لشئون الأمة ، وتنظيم لأمورها .

وينبغى أن يتنبه هنا إلى أن إمامة الرسول صلى الله عليه وسلم للمسلمين تتفق فى بعض الجوانب مع إمامة غيره من أئمة المسلمين . وتخالفها فى بعض الجوانب ، وإذن فكل مايصدر من الرسول صلى الله عليه وسلم فى إمامته مما سبيله التدبير البشرى . والتنظيم الذى يفعله القادة والأئمة ، تركيزا لشئون الأمة ، إنما يجب فيه على الأئمة رعاية المصالح التى رعاها رسول الله صلى الله عليه وسلم

ودرء المفاسد التى أراد درءها ، وإن اختلفت الطريقة باختلاف الزمان والمكان، والظروف والأحوال.

وأما ما كان فى هذا الشأن من أوامر جاء بها الوحى كطريقة معاملة الأسرى ، وإعطاء الأمان للمحاربين ، وضرب الجزية ونحو ذلك ، فيأخذ أيضا حكم التشريع وهو الذى تمتاز به إسامة الرسول عن غيرها من الرياسات ، فقد رسم لها الشارع فيها صراطا مستقيما ، غير ما تسير عليه الأمم اللادينية.

٣ — وقد يتصرف عليه الصلاة والسلام بوصف القضاء كأن يحكم فى قضية خاصة بحكم لا يقترن بما يدل على العموم ، فلا يكون حكمه به تشريعاً عاما . وإنما يكون قضاء جزئيا . ولا يجوز لأحد أن يقدم عليه إلا بحكم حاكم ، وذلك مثل فصله فى دعاوى الأموال ، أو أحكام الأبدان ونحوها بالبينات والأيمان والنكول والقرائن والأخذ بقول أهل الخبرة ، ونحو ذلك من كل ما يُعتمد عليه فى القضاء وفى مثل هذا يقول النبى صلى الله عليه وسلم ، لعلىّ رضى الله عنه : « الشاهد يرى مالا يرى الغائب » .

وإنما قلنا لا يقترن بما يدل على العموم ، لأنه إذا اقترن بذلك كان عاماً ، مثل ما روى من أنه صلى الله عليه وسلم : « قضى ألا يقتل الوالد بولده » وقضى أن الحامل إذا قَتلت عمدا لم تُقتل حتى تضع ما فى بطنها ، وحتى تكفل ولدها .

« وإذا قالوا إن الحكم فى الواقعة الجزئية لا يتعدى إلى أمثالها من وقائع فإنما يريدون أن الحالات التى تنتج حكماً خاصاً لا تتعدى غير المحكوم له أو عليه أو به » .

* * *

وهذا الكلام الجيد يلقى ضوءا آخر على الطريقة التى ينبغى أن نفهم بها سنن الآحاد ، ونحن بحاجة إلى من يعلمنا حسن الفقه فى هذه السنن ، لأن سوء تناولها أفسد صورة الدين فى الأذهان ، وبذر بذور الفوضى فى الجماعة الإسلامية ، وأغرى طوائف من المصلحين بالتجهم للأحاديث كلها صحيحها وضعيفها ، إذ عدُّوها مسئولة عن الارتباك الذهنى والعملى الذى وقعت فيه أمتنا أخيراً . . .

وعندى أن الذهول عن هذه الأحاديث ونسيانها فى كتبها أفضل عند الله وأجدى على الناس من تسلُّط العقول المريضة عليها بسوء الفهم والشرح ، تؤبد المؤقت ، وتطلق المقيد ، وتنقل اللبنة من مكانها فى جدار أو تحت نافذة لتجعلها دعامة ركينة ، وأساسا يَحمِل ولا يُحْمَل . . .

والحذر فى تعليم السُّنن يأخذ به المسلمون من قديم ، وقد جاء عن على : حدثوا الناس عما يطيقون ! أتحبون أن يكذب الله ورسوله ؟ ؟

وإنى لألقى الآن نظرة سريعة على بعض الأفكار والتقاليد الشائعة ، وهى أفكار وتقاليد عميقة الأثر فى تضايل المجتمع الإسلامى ، وغلٍّ نشاطه ، فأجد أكثرها يعود إلى فهم مريض لأحاديث صحيحة ، أو تعلق غريب بأحاديث واهية .

وتأمل ما يكون مصير أمة تخبط فى تراثها الروحى هذا الخبط ؟ ؛ خذ مثلا هذا الحديث :

عن عمرو بن عوض أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبا عبيدة ابن الجراح رضى الله عنه إلى البحرين يأتى بجزيتها ، فقدم بمال من البحرين ، فسمعت الأنصار بقدوم أبى عبيدة ، فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله ، فلما

صلى انصرف ، فتعرضوا له ، فتبسم رسول الله حين رآهم ثم قال : أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشىء من البحرين ؟

قالوا : أجل يا رسول الله .

فقال : أبشروا وأملوا ما يسركم ، فوالله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم ، فتنافسوها كما تنافسوها ، فتهلككم كما أهلكتهم .

والحديث صحيح ، ولم يفهم منه جمهور الفقهاء ، ولا جمهور العقلاء إلا شيئاً واحداً : أن التهالك على الحطام الفانى لا ينبغى ، وأن نسيان المثل العليا وراء المآرب الدنيا ليس شيمة المؤمنين ، وأن أهل التقى والهدى والعفاف لا يجعلون للمال سلطانا على ضمائرهم ، ولا لأمانىّ الحياة الحلوة مدخلا إلى نياتهم وأهدافهم .

* * *

ومنذ أيام كتبت إحدى السيدات تشكو من سطوة المال على الأرواح ، ومن سيطرته المنكرة على الأخلاق والأعمال فقالت :

« إن المجتمع بأسره يشترك فى وضع القيم الخلقية التى تنظم حياتنا الاجتماعية ولكن القيمة العليا التى توّجناها (ملكة) على سائر القيم هى « المال »

المال يتحكم فيها ، ويتسلط على العلم وعلى الكفاءة والصداقة والجمال

بالمال نقيس مكانة الأشخاص ، ونزن مروءة الأفراد ، قد نشيد فى دروس الوعظ ، وكتب الأخلاق ، بالأمانة والرحمة ، والصداقة والجمال ،

ولكن أعمالنا الواقعية تعلن دائماً أن غاية الغايات هى المال ! وفى سبيله تهدر الأمانة ، وتوءد الصداقة ، ويصلب العلم ، وتهتك الأعراض ، وتقدم النفوس البشرية قربانا لصنم المال !

واختلط الأمر . . واعتبرنا المال قيمة ، بدل أن نعتبره وسيلة لتحقيق القيم العليا ، . . . فالقطن يزرعه الفلاح ، والسمك يصيده الصياد ، والذهب يستخرجه العامل ، والمنتجات يبتكرها الفنان . ليست كل هذه هى القيم ، وإنما القيم هى فى « كد الفلاح » و « مجهود الصياد » و « مهارة العامل » و « تفكير العالم » و « حساسية الفنان . . . »

***

الشطط فى أعطاء المال فوق قدره هو إذا ما يكره الدين ، ويرفضه العقلاء

ومافهم إنسان له رأى أن المال يحتقر لذاته ، وأن حقيقة التقوى لاتكتمل إلا بفقدانه ، ومع ذلك فقد شاعت بين المسلمين تعاليم الزهد فى المال وفى جمعه ، حتى أصبحوا أعداء له ، سواء كان وسيلة أم غاية وسمعنا فى حكم المتصوفة .

إذا أقبل الفقر فقل : مرحبا بشعار الصالحين ، وإذا أقبل الغنى فقل : ذنب عجلت عقوبته !!!

وبهذا التفكير المقلوب انطلق المخربون فى أرجاء العالم الإسلامى يعطلون كل همة ، ويدمرون كل نشاط ، ويسوقون بين أيديهم مئات من الأحاديث النبوية تحتفى بالفقر والفقراء ، وتذم الغنى والأغنياء ، وهم لا يدرون لهذه الأحاديث معنى صحيحا ، بل هم لا ينقلونها على أساس صحيح . . .

والفوضى التى لحقت قضية « المال » وخلفت وراءها أمما فقيرة معوزة ،

أصابت كذلك قضية « القدر » ؛ فإذا عددٌ من الأحاديث الصحيحة والعليلة ، يساق أمام دوافع الجهل والقصور ، ليبطل الحركة الطبيعية فى الناس ، وليجعل عقيدة الجبر تشع بين الجماهير شيوعا يحيلُ المسلمين أمواتا وهم أحياء ! ! !

وأنصاف العلماء ، وعوام القصاص والوعاظ – لابارك الله فيهم – كانوا رسل هذا الفناء المزرى .

فهم يتجاوزون المحكم من آيات القرآن ، والصحيح الصريح من أحكام العقل والنقل والمقاصد العامة من رسالة الإسلام ؛ بل الحكم المقررة من رسالات الله كلها ؛ يتجاوزون ذلك إلى أحاديث الآحاد المقبولة أو المرفوضة ، ليتخذوا منها القواعد الكلية ؛ والأسس التى يُرَدُّ إليها ؛ أو يُرَدُّ بعدها كل شىء ! ! !

انظر مثلا إلى مارواه الترمذى عن عبد الله بن عمرو قال : سمعت رسول الله يقول : « إن الله عز وجل خلق خلقه فى ظلمة ، فألقى عليهم من نوره ، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضلّ ، فلذلك أقول : « جف القلم على علم الله تعالى » .

ومارواه أبو داود عن خالد الحذاء قلت للحسن البصرى : يا أباسعيد ، أخبرنى عن آدم أللسماء خُلِقَ أم للأرض ؟ قال : بل للأرض ! قلت : أرأيت لواعتصم فلم يأكل من الشجرة ؟ قال : لم يكن له منه بُدٌّ ! ! قال أخبرنى عن قوله تعالى : « ماأنتم عليه بفاتنين ، إلامَنْ هو صَالِ الجحيمِ[1] » ؟ قال : إن الشياطين لايفتنون بضلالتهم إلامن أوجب الله عليه الجحيم .

وسأله عن قوله : « ولذلك خلقهم[2] » ؟ قال : خلق هؤلاء لهذه ، وهؤلاء لهذه . !!

---

(١) الصافات : ١٦٢ ، ١٦٣

(٢) هود : ١١٩

وقد كنت أتمنى أحد أمرين: إما أن تدفن هذه المرويات فلا يسمع بها مسلم ! ! ، ولن يضار الإسلام بنقصانها حتى لو كانت صحيحة ! ! ! وإما ألا يَعْرِضَ لها غير العلماء الراسخين .

العلماء الذين درسوا القرآن دراسة أصيلة ، وفقهوا سيرة محمد وأقواله وأحواله .

فإن هؤلاء العلماء وحدهم هم الذين يحسنون الفصل بين عموم العلم الإلٰهى وشموله ، وبين حرية الإرادة الإنسانية ومسئوليتها ، وهم وحدهم الذين يشرحون الآماد التى يعمل فيها الجَبْرُ ، مكتسحاً إرادات البشر ومُرَتِّباً عليها ما لا يعلمون ولا يتوقعون ، ويشرحون إلى جانب ذلك الآماد التى تنفرد فيها قدر الناس ، ويجنون منها — فى عدالة مطلقة — النعيم أو الجحيم[1] ..

أما سوق الآثار السالفة ، ثم تنزيل غيرها عليها من كتاب وسنة ، فهو خبط نال المسلمين منه شر مستطير . .

* * *

والأمر كذلك فى قضية المرأة ! ! فهناك حديث واه يروونه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حوار بينه وبين ابنته فاطمة ، أن كمال المرأة وعفتها فى ألا ترى رجلا وألا يراها رجل ! !

وعلى هذا الحديث المريض المردود قام المجتمع الإسلامى حِقَباً من الدهر مات فيها نصفه ! !

---

(١) أوردنا فى كتابنا « عقيدة المسلم » بحثا فى القضاء والقدر بسطنا فيه أطراف الموضوع .

والأمزجة التي أحيت هذا الحديث ، وروجت له هي التي ردّت السنن الصحاح ، وردت قبل ذلك ما يوحى به القرآن نصاً وروحاً[1] .. !!

وما هكذا تؤخذ السنة ، ولا هكذا فهمها السلف الصالح ، ولا الخلفاء الراشدون ؛ ولا الأئمة المتبوعون !

---

(١) ذكرنا طائفة من السنن والأحكام الخاصة بالنساء في كتابنا «فقه السيرة» وكتابنا «من هنا نعلم» ...

لماذا أنا مسلم ؟

(١٦)

لقد ورثت الدين عن أبوىّ كما ورثت اللغة ، أى بالتلقىّ والتلقين الذين لايصحبهما طويل تأمل أو إعمال فكر !!

ثم مرت بى مع فترة المراهقة حالة شك اجتاحت كل ما أعرف وجعلتنى أناقش فى حرية أدنى إلى الجرأة مواريث الإيمان والفضيلة وتقاليد الحياة العامة والخاصة ! ولا أدرى كم بقى هذا الشك ؟

كان لابد أن ينتهى إلى نتيجة حاسمة على كل حال ! لأن العاقل يستحيل أن يعيش طول عمره أو أغلبه شاكا تحيّره الرِّيَب .

وقد خلصت من هذه المرحلة بأن الله حق .

واستبعدت — وأنا مطمئن — كل افتراض بأن العالم وجد من تلقاء نفسه أو أوجد نفسه بنفسه . . .

ثم شرعت أنظر فى الإسلام ، وأدرس علومه القريبة منى

وَوَقَعَتْ فى يدى كذلك كراسات صغيرة وزعها مبشرو النصرانية الذين نشطوا لأداء رسالتهم فى بلادنا ، أيام سطوة الاستعمار الغربى عليها ...

والحقّ أقول إننى ضقت ذرعاً بالكتب الإسلامية التى طالعتها صدر حياتى ، لِما شابها من لغو وتخليط وخرافة .

وكنت أسخر من بعض فصولها وأرفض الإذعان له .

وعلمت — بعدُ — أنى كنت على حقٍّ فى هذا التحدِّى . فقد كانت هذه الكتب فى وادٍ ، والقرآن الكريم والسنة المطهرة فى وادٍ آخر . . .

أما الأوراق التى نشط المبشرون فى توزيعها فقد تناولتها لأقرأها بدقة ؛ وأنا أحسب أنى سأخوض بحثاً عقلياً يحتاج إلى احتشاد وإلى استمداد . .

ثم اكتشفت بسرعة أنه يجب أن أطرح عقلى جانباً إذا أردت المضى مع هـذه الطفولة الفـكرية إلا أن حب الاستطلاع جعلنى أستقصى هـذه النشرات جميعا !

لماذا لا أكون مخطئاً ويكون غيرى مصيبا ؟

على أن هذا التساؤل قد تلاشى فى هدوء بعدما قارنت بين رسالة عيسى كما وصفها القرآن ، وبين هذه الرسـالة نفسها كما يصفها الأتباع المسحورون ، فوجدت سياق القرآن أحكم ، ووجدت ما عداه أبعد عن منطق العقل وعن أسلوبه الحاسم فى النقد والتمحيص ! !

* * *

كنت مسلما عن تقليد ، ثم أصبحت مسلما عن اقتناع .

اقتناع يقوم على البحث والموازنة والتأمل والمقارنة .

وكل يوم يمر بى يزيدنى حباً للإسلام ، واحتراماً لتعاليمه ، وثقة فى صلاحيته للعالمين ، وجدارته بالبقاء أبد الآبدين .

وقبل أن أوجز الأسباب التى انتهت بى — وبغيرى — إلى هذا المصير أحب أن أصارح بأمر ذى بال ، هو أن أمداد هـذا الإيمان جاءت من إدمان البصر فى الـكتاب والسـنة مع أدمان البصر فى الوقت نفسه إلى آفاق الـكون والحياة .

أما طول المذاكرة فى عشرات الـكتب التى ألِّفت فى عصور مختلفة فلم أعُدْ منه بطائل ، بل خرجت منه وأنا بحاجة إلى ما ينظف ذهنى كما يحتاج الجسم إلى حمام ساخن بعد دعكة مع الغبار والأوساخ . . . ! !

إن الإسلام ظلم ظلما فادحا فى مئات الـكتب التى انتشرت زمناً طويلا

بين أيدى العامة ، كما صُوِّر تصويراً سخيفاً شأنها فى المتون والشروح والحواشى التى اعتبرت وحدها موادّ الدراسة فى الجامع الأزهر . . ! !

وعندى أن فساد المجتمعات تحت وطأة الحكم الفردى والاستبداد السياسى هو الذى سجن العقول وحجر على الأفكار وقتل الكفايات الكبيرة أن تؤدى واجبها فى خدمة الدين ، فبقى المجال أمام التافهين والصغار وذوى المواهب المحدودة .

وهؤلاء حجاب كثيف دون الحقيقة .

بل هؤلاء عنصر خطير فى إفساد الحقائق وإبرازها للناس وفق أهواء معينة ، أو تلوينها لتترك فى النفوس آثاراً خاصة .

والإنسان يسرِّح طرفه خلال الأجيال الأخيرة فى الأمة الإسلامية الكبيرة فيروعه هذا الجهل الدامس الذى أطبق على جنباتها .

وهو ليس جهلا بسيطا غايته أن يغفل المرء عن معرفة الحق ، بل هو جهل مركَّب جعل الأقوام يفهمون ديناً ما ليس بدين ، ويحسبون تقوى مالا يمت إلى التقوى بصلة .

وقد طُمِرَتْ فى هذه الجهالة الغليظة شُعَبُ الإيمان وشرائع الإسلام .

ومن المحزن أن تلتمس مبادىء التربية والأخلاق فى ديننا فتجدها مبعثرة بعثرة شائنة فى كتب التصوّف التى يتجاور فيها الجِدُّ والهزل والحق والباطل والرشد والجنون .

أما العبادات . فقد ذابت السنن وسط آراء الفقهاء من أتباع المذاهب ومؤلفى المتون .

وذبلت نضـارة التـكاليف الشرعية فى ركام من التصورات والافتراضات المربكة .

ثم أغلق باب الاجتهاد فى آفاق الفقه كلها ، وبذلك توقف الفكر الإسلامىّ ، على حين تحركت الدنيا فى كل ناحية . . .

* * *

وقد رفض لفيف من الأئمة الكبار أن ينطووا مع هذا الخمول السائد ولـكن ما عساهم يفعلون فى أمة ألْجَم الاستبداد مقومات حياتها ؟

إنه لولا بقاء القرآن الـكريم — الذى تأذن الله بحفظه — ما بقيت للإسلام شارة ، ولـكنّا الآن ركبا يضرب على غير هدى ويجهل : من أين أتى ؟ وإلى أين المصير ؟

ولئن كان هنالك دعاة منفرون من الإسلام ، ومؤلفون يصدون عن سبيل الله وعوام يتعلقون بالقشور من دينهم ويذهلون عن صميمه ، لقد بقى الإسلام — برغم هذا كله — نقيًّا فى ينابيعه الأصيلة ، سليم الجوهر ، تـكسوه بشاشة ورواء . . .

إن كل امرئ سلس الطبع صافى الفكر يطالع القرآن ، أو يتابع سيرة محمد وقوله وفعله ، يشعر بإيناس وإلف ، ويرى صورة نفسه ، أو بتعبير أدق يرى أشواقهـا إلى الـكمال والحق والفضيلة تتجاوب فى هذا الـكتاب الفريد ، وفى هذه السنة النبيلة فهو يستريح إلى ما وعى استراحة العين إلى الخضرة والماء .

ثم هو يقول فى تسليم ويقين : « رضيت بالله ربًّا ، وبالإســـلام

ديناً ، وبمحمد نبيًّا ورسولا[1] » !!!

ولقد كنت أقرأ عبارات الإعظام والإجلال لله — وما أكثرها فى أصول الإسلام — ثم أقارن بين مدلولاتها الرحبة الشاملة وبين مشاهد الخلق وآيات الكون وأسرار العالم ، كما صورتها كشوف المعرفة الحديثة ، فأجد تطابقا يؤكد أن رب الكون وربّ الإسلام واحد فأقول ما قال النبىُّ صلى الله عليه وسلم « سبحان الله وبحمده ، عدد خلقه ، ورضا نفسه ، وزنة عرشه ، ومداد كلماته[2] » . . !!

ثم يزيدنى احتراما للإسلام عرفانى أنه منهج النبوات كلها ، وأنه الحقيقة التى انتقلت إلينا عبر القرون ، وتضافر على إبلاغها هى هى آدم ونوح ، وإبراهيم وموسى وعيسى ، ومحمد . فهو حقيقة علمية كالقوانين الكونية التى أجمع العلماء على احترامها .

وإنى — إذ أنشدُّ بها — أمضى على النهج الراشد الذى سلكه من قبلى كل عبد صالح .

ويجب ألا يحيد عنه عاقل ما بقيت الحياة والأحياء ، وقد كان صحب رسول الله يؤكدون استمساكهم بهذه الحقيقة القديمة الجديدة فيقولون : « أصبحنا على فطرة الإسلام ، وكلمة الإخلاص ، وعلى دين نبينا محمد ، وعلى ملة أبينا إبراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين » .

* * *

---

(١) مسلم . (٢) أصحاب السنن .

والآن فلأذكر الأسباب التي تجعل المسلم مسلما كما أحصاها رجل لم يتخرج في جامعة دينية ، ولم يتلقَّ علمه عن الشيوخ المتخصصين في الدراسات الإسلامية ، ولكنه استطاع أن يذكر الحقيقة كاملة في سطور . . .

إنه مصري هاجر إلى الولايات المتحدة ، فلم يتنصَّر ولم يتهوَّد ، ولم يلحد في دين الله كما يفعل الأغرار الذين تستهويهم المدنية الغربية ويحسبون أخصر طريق للاندماج فيها هو الانسلاخ عن الإسلام والاستحياء من النسبة إليه ...

قال الدكتور أبو شادي مجيبا على سؤل : لماذا أنا مسلم ؟ :

(١) الإسلام الذي أومن به عقيدة سهلة سمحة تتفق مع المنطق المعقول ، أساسها الإقرار بإلـه واحد عظيم ، أبدع هذا الوجود ودبَّر أمره على سُنَن حكيمة قديمة مطردة .

ولا يوجد وصف لله أقدس ولا أزكى مما حواه الإسلام ، فإن تصوير العظمة الإلهية في هذا الدين جمع بين مفهوم الحقائق العلمية الثابتة وأهداف الفلسفات النفسية والتربوية .

(٢) يرفض الإسلام الشرك بالله في صوره كلها ويردُّ كل احتيال للبس التوحيد بغيره من أساليب التملق بغير الله .

والإسلام قاطع في عدِّ الشرك امتهانا للعقل ، وسقوطا بالإنسانية . والإنسان في نظر الإسلام — سيد حرٌّ بين عناصر الطبيعة المختلفة فهو ليس رقيقا للكون ، ولا مسخَّراً للوجود ، بل هو كائن مخيَّر إلى حد بعيد ذو إرادة مستقلة ، وهو مُسيَّر من جهة أنه جزء من نظام الملكوت الضخم وقطرة في خِضَمِّ العالم الكبير .

(٣) الإسلام مع الأديان السماوية التى سبقته بناء متكامل ، فهى وحدة تمشى تحت رايته إلى غاياتها الصحيحة .

وتعاليم السيد المسيح وفى طليعتها السلام والرحمة — لم تجد كالإسلام نصيراً لها ولا مدافعا عنها . —

واليهود والنصارى الوادعون فى بلاد الإسلام هم فى نظره مسلمون جنسية وإن احتفظوا بعقائدهم .

ومع أن الإسلام يأبى إكراههم على الدخول فيه فهو يُسَوِّى بينهم وبين أتباعه فى الحقوق والواجبات ، لهم ما لنا وعليهم ما علينا .

(٤) الإسلام خصم للعدوان والفساد ، وهو منذ نشأته ينادى بالحرية والعدالة ويتبرأ من الاستبداد والظلم .

(٥) الإسلام دين عالمىّ لا يمكن أن ينحصر فى بيئة خاصة ولا أن يكون وقفا على جنس بعينه أو عصر بعينه .

إنه حقيقة إنسانية مطلقة تسع الأزمنة والأمكنة كلها .

(٦) للإسلام دستور مرن فى شرائعه وآدابه هو القرآن الكريم .

وقيام القرآن على القواعد العامة للإيمان والأخلاق يترك المسلمين أحراراً فى وضع القوانين الملائمة لأقطارهم وأزمانهم وفاقا للصالح العام والاجتهاد المقبول .

(٧) يعتبر الإسلام العلم ، هو المصباح المنير المرشد إلى تفسير آياته والدال على صدق رسالته ولذلك يحارب الجهل والغباء ويحتفى بالمعرفة والحكمة .

(٨) لا يقر الإسلام أية واسطة بين الإنسان وربه ، فلا كهنوت فى الإسلام

بأية صورة من الصور ، ويحترم الشخصية الإنسانية ويؤمن بإمكان ترقيها إذا استجابت لهداية الفطرة ونداء الإيمان .

(٩) خلق الإسلام من مذهبه فى العدالة الاجتماعية والديمقراطية الحقة وضعا سياسيا للحكم لم يُبَزّ فى أى عصر ، كان ولايزال مصدر النعمة الموفورة للشعوب التى أخذت به مخلصة . وماسقط هذا الحكم إلا يوم انفصل عن هذه التعاليم وخضع لهوى الأنفس .

(١٠) إن الإسلام دين عملى كفيل بالنجاح المادى والروحى معا ، وقد تنزه تنزها تاما عن الخرافات والخزعبلات والغيبيات السخيفة والأوهام التى يخلقها الجهل أو التعصب الأعمى ، كما تنزه عن التواكل والتسليم بالقدرية .

(١١) اعتبر الإسلام قداسة العلم أعظم من قداسة العبادة الشكلية ، لأنه اعتبر العلم فى ذاته عبادة ينكشف بها الحق ويقوم عليها الإيمان و تتلاشى فى جوها الخرافات .

(١٢) جاء (القرآن) الشريف بنبوءات شتى انطبقت على تطور البشرية وعلى اكتشافاتها ومخترعاتها مما لم يكن يحلم به أحد منذ أربعة عشر قرنا ، ولو أن القرآن نزل اليوم ماتغير فيه حرف واحد لأن صلاحيته للعصور كلها لم تمس !!

(١٣) جاء (الإنجيل) بتنبؤات عن رسالة محمد (صلوات الله عليه) كما جاءت قبله (التوراة) بذلك مما لا يحتمل أى تأويل آخر وإن جادل علماء الديانتين فى المعنىّ بهما .

(١٤) أصول الإسلام نابعة من العقل والفطرة ، وبهذا فتح صدره لتقبل جميع التشريعات المتمشية مع مبادئه الأدبية الرفيعة والكفيلة بسعادة البشرية

أينما كانت ، وهكذا ساند جميع الحضارات السامية ورعاها ، فاستظلت بجناحه واستوعبتها فلسفته ، فامتدت وترعرعت وأسهمت في إسعاد المسلمين بل في إسعاد البشرية عامة .

(١٥) لا يحتمل الإسلام الرجعية مطلقاً ، وإنما شعاره دائما الرقي والتقدم ، فكل حجر على الحرية أو النهوض مناف له ، بل هو بمثابة الكفر به ، وكل إنسان يحترم حقوقه وفى مقدمتها حرية الفكر والقول لابد أنه يناصر الإسلام ، ولو لم يكن من أتباعه .

(١٦) يعتبر الإسلام أن الإنسان نفسه هو المسؤول عن خلاصه بالعمل الطيب ، فلا وساطة ولا شفاعة ولا فداء ينجيه إذا لم تنجه أعماله هو ، وماورد غير ذلك فى أى دين فإن الإسلام ينكره .

(١٧) يستطيع المسلم أن يكون موسويا وعيسويا ومحمديا فى آن واحد لان هذه روح الإسلام وعالميته ، كذلك كان الإسلام ولا يزال أهلا لقيادة العالم قيادة ديموقراطية صحيحة مشربة بروح المحبة والسلام [1].

قال الدكتور أبو شادى .

لهذه الأسباب الوجيهة ولأسباب متفرعة عليها آثرت أن أبقى مسلماً واعتززت بإسلامى ، تاركاً التوسع فى التفسير والتطبيق العملى لمن يخصهم ذلك ويعنيهم من الشيوخ الواعين والمثقفين المتفرغين لهذا العمل الحميد .

---

(١) نقلنا هذه الأسباب بتصرف يقربها من السياق العلمى .

ولا يسعنا فى ختام هذا الحديث إلا أن نقتبس هذه التحية من توماس كارليل وقد وجهها إلى نبى الإسلام « إلى البطل فى صورة نبى » فهى أبلغ فى دلالتها من أى شعر نرجيه .

قال كارليل : — « العقيدة المحمدية بين العرب أوضح مثل للظاهرة الثانية من ظواهر تكريم الأبطال ، حيث لا ينظر إلى البطل كإلــه ؛ وإنما كمُلْهَم من الله ، كنبي . . . فلنحاول أن نفهم ما كان محمد يعنيه بالدنيا ، أو بالأحرى ما كانت تعنيه الدنيا لديه . . . إنه بالتأكيد لم يكن دجالا ولا محتالا واسع الدهاء ولا مزيفاً . . . والفروض القائلة بأنه كان كذلك ليست سوى نتاج سفه وإلحاد . فهى تكشف عن ألوان من الشلل الروحى تدعوا للأسى . . . أفيقوى مدع زائف على إيجاد دين ؟ . . . إن الزائف لا يستطيع أن ينشىء شيئا ، ولو كان هذا الشيء بيتا من طوب ! وما كان ميرابو ، ولا نابليون ولا بيرنز ولا كرومويل ، ولا أى مخلوق ليستطيع أن يفعل أمرا ما لم يكن قبل كل شيء صادق الإيمان به . . .

فإن الإخلاص وصدق الإيمــان هما أعظم ما يميز جميع أولئك الذين يأتون عملا من أعمال البطولة » . وقال أيضاً : « الإســلام يرمى بطريقته الخاصة — إلى إنــكار الذات وقمع النفس .

وهذه هى أسمى حكمة كشفتها السماء لعالمنا الأرضى وإنى لأجد فى محمد — وفى قرآنه — الصدق والإخلاص ، والتحرر الكامل من الزيغ والضلال قبل كل شيء ، وقد ظل دينه طيلة هذه القرون الاثنى عشر مرشدا

لجنس الجنس البشرى ، وظل — قبل كل شىء — موضع إيمان قلبي عميق ...

لقد كان العرب شعبا ضيق الأفق ، فبعث إليهم نبي بطل فلم ينقض قرن حتى كان العرب قد وصلوا إلى غرناطة من ناحية ، وإلى دلهى من ناحية أخرى » . .

هذا هو الدين الذى أحببته ، ودعوت غيرى إلى محبته .

هذا هو الإسلام كما يجب أن يعرف ، أى من مصادره الأولى .

لا من أفواه الجاهلين به ، أو الحاقدين عليه ... ! !

ختـــام

الإسلام ليس ديناً غامضاً حتى يحتاج فى فهمه وعرضه إلى إعمال الذهن ، وكدّ الفكر .

إن آيته الأولى هى البساطة ، وميزته التى سال بها فى الآفاق هـذه السهولة البادية فى عقائده ، وشعائره وسائر تعاليمه .

وأشد الإساءات إلى الإســلام أن تسلك به متاهات الفلسفة ، وأن تدور به مع حيرة العقل الإنسانى فى البحث عن الحق ، بعيداً عن هدايات الله ، وسنن المصطفين الأخيار من عباده ! ! !

كما أن من أشد الإساءات ، أن يتسلط على هذا الدين أقوام لهم عاطفة ، وليس لهم ذكاء ، أو لهم ذكاء ، ولكن الهوى يميل بهم عن الصراط المستقيم .

وقد بذلت جهدى منذ انتصبت للدعوة إلى الله ، أن أنفى عن الإسلام تحريف الغالين فيه ، وأوهام الجاهلين عنه ، وأن أعرضه — كما أوحته العناية العليا — نقيًّا مُصَفًّى .

فإن الإسلام لم يُصَبْ فى ميادين الحياة من شىء ، مثلما ما أصيب من هذه الأثواب المزوّرة التى أظهرفيها ، وتلك التشويهات الزرِيّة التى ألصقت به .

وفى النواحى الاجتماعية ، والاقتصادية ، والسياسية ، نشرت كتباً شتى ، أظن أن فيها إبانةً حسنة عن جوهر الإسلام ، دون تزيُّد ، أو تزويق . ودون نقص ، أو تفريط .

والهدف الذى جاهدت لإدراكه ، هو إنصاف الإسلام من أصدقائه ، ومن أعدائه ، على سواء ...

إن كتلا ضخمة من الجماهير اعتنقت هذا الدين ، وحملت رايته ، وعُرِفَتْ به . ومع ذلك ، فهى واهية الملاقة به .

لو بعث محمد رسول الله حيًّا ، ثم قيل له : هذه أمتك ! ما عرف فيها رسالته ، ولا توسّم فيها كتابه وسنته ! !

أفليس من الواجب كشف هذا البعد بين المسلمين ، وبين ما يعتنقون من دين ؟

ثم هناك كتل ضخمة من الجماهير ، التى تُنْـكر الإسلام ، وتطوى الجوانح على كرهه ، وحرب أهله ، عن جهل فاضح به ، وعن جشع يغرى بالافتيات .

أليس من الواجب ، إبراز هذه الحقيقة فى إطار كبير ، ولفت الناس — مؤمنهم وكافرهم — إلى سرها ، وضرورة الانتهاء منها ؟

إن عبء ذلك يقع علينا وحدنا ، ولعلنا — بهذا الـكتاب وأمثاله — نندفع خطوة إلى الغاية المنشودة .

« إن ربى على صراط مستقيم » .

للمؤلف

١ — الإسلام والأوضاع الاقتصادية .
٢ — » والمناهج الاشتراكية .
٣ — » المفترى عليـــه . .
٤ — » والاستبداد السياسى .
٥ — تأملات فى الدين والحيـــاة .
٦ — من هنـــا نعـــلم .
٧ — التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام .
٨ — عقيدة المسلم .
٩ — خلق المسلم .
١٠ — فقه السـيرة .
١١ — فى موكب الدعوة .
١٢ — من معـالم الحق .
١٣ — ليس من الإسلام .
١٤ — ظلام من الغرب .
١٥ — جدد حياتك .
١٦ — كيف نفهم الإسلام .

تحت الطبع

١ — الاستعمار أحقاد وأطماع .
٢ — نظرات فى القرآن .